

الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية
وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

جامعة باتنة
كلية الآداب والعلوم الإنسانية
قسم اللغة العربية وآدابها

أثر القرآن الكريم في النثر الجزائري
الحديث
(1925 – 1962)

بحث مقدم لنيل شهادة دكتوراه الدولة في الأدب العربي الحديث

تحت إشراف :
أ.د. خذري علي

إعداد الطالب :
حسين بن مشيش

رئيسا
مشرفا ومقررا
عضوا مناقشا
عضوا مناقشا
عضوا مناقشا

جامعة بسكرة
جامعة باتنة
جامعة باتنة
جامعة باتنة
جامعة باتنة

لجنة المناقشة
- أ.د. صالح مفقودة
- أ.د. علي خذري
- أ.د. عز الدين بوبيش
- د. عيسى مدور
- د. عبد الرزاق بن السبع

السنة الجامعية : 2008/2007 م .

بسم الله الرحمن الرحيم

{ إقرأ بِسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ . خَلَقَ
الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ . إقرأ وَرَبُّكَ
الْأَكْرَمُ . الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ . عَلَّمَ
الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ }

صدق الله العظيم

سورة العلق : 1 ، 2 ، 3 ، 4 ، 5

مقدمة

لقد كان القرآن الكريم وسيبقى من الكتب السماوية المنزلة على رسوله الأكرم محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم ، المحفوظ إلى يوم الدين ، مصداقا لقوله تعالى: { إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ } سورة الحجر:9 . خلافا لغيره من الكتب السماوية المنزلة من قبله .

والقرآن الكريم هو الذي جعل العرب يحтарون من دقته وينبهرون من شموليته ، فألزموا نفوسهم حفظه ومدارسته والمحافظة عليه ، واعتمدوه مصدرا أساسيا في مختلف الأبحاث وفي جميع المجالات .
وقد نالت اللغة العربية وآدابها حظا كبيرا في ظل القرآن الكريم ، وخاصة في مجال التجديد الحاصل في الأساليب البلاغية الرفيعة. وقد استمر الإنتاج الأدبي خلال العصور يقتبس من فيض القرآن الكريم ، خطابة ، ورسائل ، وشعرا وغيره من الفنون الأدبية التي تركت بصمات واضحة على ساحة الأدب العربي من طرف الكتاب والنقاد القدامى. خلافا للعصر الحديث ، فالدراسات الأدبية فيه تكاد تكون جد عقيمة وخالية من ظهور الأثر القرآني الا بعض الشذرات الخفيفة. مع أن فرص إفادة الأدباء من القرآن متعددة.

وفي خضم وجود الاختلاف والتفاوت في وسائل التراث الأدبي من أجل القيام وإرصاء قوائم النهضة الحضارية ودفعها إلى الأمام ، فإنه لا يجوز لنا حصر القرآن الكريم على فترة معينة ، لأنه هو دستور الله الدائم ، ومصدر التراث الأكبر . يفترض علينا الاتصال المستمر به ، نظرا لما يتضمنه من الإعجاز البلاغي ، والأدبي ، والتشريعي يتزود منه كل مؤمن بالله يرغب في صيانة نفسه ، وإتقان عمله الأدبي منه ماتعلق الأمر بكتابة

مقال أو قصة ، أو شعر ، أو مسرح ، وغيرها مما له علاقة وصلة بالفن الأدبي.

وهو ما استوقفني ، إلى التفكير في موضوع هذه الدراسة في تلك المرحلة من مراحل الإفاقة و الإنبعاث ، والعودة إلى الذات ، وانطلاقا مما استقر في ذهني بفعل الارتباط المتواضع بالقرآن الكريم ، وأثره في النثر الجزائري الحديث .

والقصد من النثر الحديث ، هو واقع التجديد في كل من الأساليب والأشكال الأدبية الرفيعة ، كالتغير في الصياغة الشكلية واللغوية ، خلافا لما هو معهود في أسلوب النثر الجزائري في عهد الاحتلال الفرنسي 1830م ، المعتمد على الأسلوب التقليدي الضعيف حيث يسوده التكلف ، والسجع ، والصور الجامدة .

ولكن بعد هذه المرحلة التي مر بها النثر العربي ، استطاع أن يتحرر من تلك القوالب المعتمدة سلفا ، ومال أسلوبه إلى السهولة ، متجنباً التعميم ، منتهجاً أسلوب التجرد والتحرر من الألفاظ الغريبة .

وبفضل التطور الحاصل في عصر الإحياء والإنبعاث ، أشرقت بواذر النهضة الحديثة للأدب العربي ، انجر عنها ظهور أنواع أدبية جديدة مثل المقال الأدبي ، والقصة القصيرة والرواية ، والمقال الصحفي ، والنقد الأدبي وغيرها من المضامين النثرية المتأثرة تأثيراً عظيماً بالقرآن الكريم في الأسلوب والمستوى نتيجة ثمار تلك النهضة ، وبفضل تفتح الجزائر على الثقافات العربية الوافدة من المشرق ، وما أفرزته من تطور معرفي لدى رجال الإصلاح الجزائري ، عن طريق الرحلات إلى المشرق ، والحجاز ، كما هو الحال عند الإمام عبد الحميد ابن باديس والشيخ محمد البشير الإبراهيمي ، والشيخ العربي التبسي ، ومبارك الميلي ،

ومحمد السعيد الزاهري ، ورمضان حمود وغيرهم من رجال الإصلاح بالجزائر ، الذين ساهموا في نهضة الثقافة الإسلامية المستمدة من القرآن الكريم ، ومن السيرة النبوية الشريفة .

وقد كان للقرآن الكريم أثر كبير في حياة الكتاب والمثقفين الجزائريين في كثير من الجوانب ، والميادين المختلفة ، مما سمح لهم بالإسهام في تعميق وتطوير النثر الجزائري وطبعه بطابعه الوطني والديني ، وتجسيد ذلك كله في العيش مدة زمنية حيث أثبتوا فيها وجودهم في الإنتاج الأدبي الذي ترك بصمات على الشعب الجزائري ، وإلتزامهم بقضاياها والتعبير عن مشاعره .

وانطلاقا من ذلك كله ، ونظرا لرغبتني الملحة من أجل الإطلاع على ثقافة تلك الفترة وعلاقتها بالقرآن الكريم ، إرتأيت أن يكون موضوع بحثي بهذا العنوان الموسوم بـ : أثر القرآن الكريم في النثر الجزائري الحديث : (1925-1962) . الذي يبدو لي أنه جديرا بالدراسة والبحث ؛ لأنه لم يتناول بالدراسة مما حفزني إلى البحث في الموضوع ودراسته ، عساني أجد الإجابة عن التساؤلات التي تشكل إشكالية الموضوع التالية :

ماهي الأسباب والدواعي التي دفعت برجال الإصلاح إلى الاقتباس من القرآن والأخذ منه بالشكل المستفيض والملفت للنظر ؟

وماهي الأهداف الحقيقية التي توصلوا إليها في هذا المجال ؟

وأخيرا ماهي الفائدة الحاصلة من ذلك في نهاية المطاف ؟

وللإجابة على هذه الأسئلة ، إعتد البحث عدة مناهج منها : المنهج التاريخي والوصفي والتحليلي ، والإجتماعي وكل محور انبعث منه المنهج الذي تقتضيه طبيعة الموقف، مما يستلزم

الاستقراء وتتبع الظاهرة ، من أجل تكامل المناهج ، ولتقديم صورة لحقيقة الاقتباس من القرآن الكريم ، لما له من أهمية تتمثل في :

1- إبراز أثر القرآن الكريم في النثر الجزائري الحديث ، وذلك إنطلاقاً من الدراسات التي تنادى باليقظة ، والمطالبة بالحرية والمساواة ، ودفع الظلم والطغيان ، وإرساء القواعد الأخلاقية السامية وغيرها من الموضوعات التي أعتنت ببناء الشخصية الوطنية . باعتبار أن النص القرآني نص يبيث في النفس البشرية الحرية ، والإعتداد بالذات في إطار الوحدة الجماعية

2- إثراء المكتبة العربية بهذا النوع من الدراسات التي تعد إضافة للبحث ، بغية الإستفادة منها في مجال البحث العلمي.

واعتماداً على هذه الأهمية ازدادت رغبتني في هذا الموضوع ، وبخاصة بعد إطلاعي على أهم المصادر والمراجع التي تخص الموضوع ، وبعدها تكونت لدي فكرة واضحة عن موضوع البحث ، واستقرت في ذهني المنهجية التي وضعتها في الخطة المشتمة على مدخل وأربعة فصول وخاتمة ، حيث يتناول المدخل :

أ- أثر القرآن الكريم في فنون النثر الجزائري الحديث قبل سنة 1925م ، الذي ناقشت فيه فني الخطابة والرسائل.

ثم أنتقلت إلى الفصل الأول الذي يتناول الحديث عن الكيفية التي حاول بها الأدباء

استلهام المعاني القرآنية في النثر الجزائري الحديث ، مستعرضاً أهم القضايا التي وردت في القرآن الكريم ، وما تعرض له الكتاب ، و الوصول إليه للإفصاح عن مشاعرهم وأفكارهم ، من وجهة نظر الفكر والمضمون ، دون التعرض للناحية الجمالية والفنية .

وأما الفصل الثاني : فهو مخصص لأثر القرآن الكريم في المعجم اللغوي الذي كان له انعكاس في كتابات الأدباء والمفكرين .

وأما الفصل الثالث فيتناول التصوير الفني في القرآن الكريم وأثره في النثر ، موزعا على أنواع من التصوير الواردة في الدراسات النقدية . اعتمادا على الإستشهاد بالنماذج المتناصدة مع القرآن الكريم ، و إبراز قدرة الكاتب على التصوير الفني المتأثر به.

وأما الفصل الرابع فهو مخصص لأثر القرآن الكريم في بناء الرمز بفرعيه الموضوعي واللغوي ، والغرض الهادف من كتابات رجال النهضة والإصلاح ، المتمثل في أخذ العبرة والعصاة الأخلاقية من الأحداث القرآنية . وهذا يندرج ضمن التوجيه الأخلاقي والتربوي لدى رجال الإصلاح الجزائريين .

وفي الأخير ختمت البحث بخاتمة أوجزت فيها أهم النتائج التي توصل إليها البحث.

أما عن الصعوبات التي واجهتني فهي عديدة ، نذكر منها قلة المصادر والمراجع - وبخاصة التطبيقية منها - التي تساهم في معالجة الموضوع ، ومع ذلك وبفضل توجيهات الأستاذين المشرفين : الأستاذ الدكتور محمد ناصر بوحجام ، والأستاذ الدكتور علي خذري الذي تبنى الإشراف ، وأكمل معي المشوار إلى نهاية هذه الرسالة ، ونتيجة لملاحظتهما القيمة تمكنت من تجاوز هذه الصعوبات .

أخيرا أتوجه بالشكر الجزيل إلى المشرفين ، وإلى كل من ساهم في إنجاز هذا البحث

وتقويمه من قريب أو بعيد ، وكافة أساتذة القسم ، وإداريه على مستوى القسم والكلية .

وأحمد الله تعالى على ما أعانني به من صبر وعون ، راجيا إياه أن يجزييني
على الجهد المتواضع بأجري على الإجتهد والإصابة ، وأن يغفر لي الخطأ
والزلل ، وهو ولي التوفيق .

مدخل

1 - أثر القرآن الكريم في النثر الجزائري قبل سنة 1925م . توطئة :

إن النثر الجزائري - بصفة عامة - كان أكثر تعبيراً عن مشاعر الكاتب ، وتصوراتهِ للواقع الجزائري حيث " عكس بوضوح وضع الثقافة العربية الجزائرية والأدب العربي في الجزائر منذ زمن طويل ... فقد تطور أسلوباً وموضوعاً ومحتوى " (1).

هذا فضلاً عن أنه سار في أشكاله على النمط التقليدي القديم " مثل الخطابة والرسالة والمقالة والقصص الشعبي وما إلى ذلك " (2) . ومع ذلك فإن كل هذه الأنماط والأساليب الأدبية أصبحت مسائرة لذوق العصر ، وكشفت عن رؤية الكتاب للواقع.

وإبرازاً لمدى تأثير القرآن الكريم في النثر الجزائري ، يستلزم منا العودة إلى ما قبل قيام الحركة الإصلاحية سنة 1925م ، التي كانت البذرة الحقيقية لإنماء النهضة الأدبية في الجزائر لرصد المظاهر الأدبية ، والوقوف على الأسباب ، والظروف التي صاحبت مسيرة النثر الجزائري "وانعكاساتها الإيجابية والسلبية على الحياة العامة ، وعلاقتها بالشخصية الوطنية ودورها في المحافظة عليها تمسكاً بها أو مقاومة محاولات النيل منها ، أو تجديد

1- عبد الله الركيبي ، تطور النثر الجزائري الحديث ، 1830-1974 ، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم معهد البحوث والدراسات العربية ، دار نافع للطباعة مصر 1976 ، ص 7 .

2- المرجع نفسه ، ص 8 .

الأسباب الكفيلة بالإبقاء عليها " (1).

ولإدراك الأثر القرآني في نثر الكتاب (سواء ما تعلق بالجانب التصويري أو اللغوي) والكشف عن الدوافع والرغبات التي قادتهم إلى الأخذ من المصدر الرسمي والحقيقي في الأدب العربي، وطريقة الأخذ من ذلك النبع الأصيل، وتضمن إنتاجاتهم الأدبية ما ينفعها ويكسبها أساليب فنية ذات طابع أدبي رفيع، وكل ذلك لن يأتي إلا عن طريق الدربة والممارسة التي يكتسبها ذلك الكاتب الأدبي البارِع الذي يسعى من أجل الحفاظ على شخصيته من التلاشي والاندثار، وذلك باستعمال الأثر المقتبس فيما يفيد وينفع مجال النثر الأدبي الجزائري ونستطيع أن نستعرض من ضمن هذه الفنون النثرية التقليدية أولا: فن الخطابة والرسائل.

1- محمد ناصر بوحجام، أثر القرآن في الشعر الجزائري الحديث، 1925-1976، الطبعة العربية، غرداية ط: 1، 1992، ص17.

1-1- الخطابة :

لقد عرفت الخطابة عند العرب بأنها : " الكلام المنثور ؟ المسجع ونحوه ...، ورجل خطيب : حسن الخطبة ، وجمع الخطيب خطباء" (1) ، وتعد الخطابة من أسبق الفنون الأدبية عند العرب وكانت كثيرة الرواج بشكل خاص في العصر الجاهلي ، وذلك للحفاوة البالغة والإجلال العظيم الذي كان يحاط به الخطيب لما يقوم به من الذود والمحافظة عن حياض القبيلة التي يرفع من شأنها وقدرها ، بواسطة لسانه الذي كان السلاح الثاني بعد سلاح السيف المستعمل آنذاك .

والخطب التي عثر عليها ليست بالقدر الكافي بالنسبة لما عرف عن العصر الجاهلي ويعود سبب القلة إلى عدم التدوين في ذلك العصر ، ولكن ما وصل إلينا من تلك الخطب يؤكد لنا سلامة ، ودقة لغتها ، وفصاحة بلاغتها ، وهو ما عرف عند العرب واشتهروا به .

ولقد ازداد تطور الخطابة بعد انتشار الدعوة الإسلامية ، لأنها كانت لسان حال هذه الدعوة ، فتحول مضمونها وأسلوبها متماشيا مع روح العقيدة الجديدة ، التي أحدثت ثورة اجتماعية ، وفكرية عظيمة ، غيرت جميع المفاهيم والمضامين في صالح العدالة الإنسانية ونصرة الحق ، وإزهاق الباطل ، على الرغم من كراهية المعتدين ، قال تعالى : {وَيُحِقُّ اللَّهُ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ} (2) .

1- ابن منظور ، لسان العرب ، دار صادر بيروت ، د- ط ، 1992 ، 361/1 .

2- يونس : 82 .

وفي العصر الأموي كادت الخطابة أن تعود إلى سالف عهدها في الجاهلية ، إذ أنها كانت تدافع عن القبيلة ، إلا أن القبيلة المعنية في هذا العصر هي ما يعبر عنه بالقبيلة السياسية ، أو بمعنى آخر الحزب السياسي ، وفي هذا الإتجاه سار الخطباء ، فأحتدم الصراع بين الدين والسياسة ، فكثر توليد الموضوعات والأساليب ، وظهر خطباء مرموقون يمتازون بالبيان والفصاحة .

واستمر الأمر كذلك في العصر العباسي الذي عرف توسعا في الثقافة العربية - لاحتوائها على الثقافات الأجنبية - مما جعل الخطابة فنا منظما ، إلا أنه بعد تعاقب الزمن إستتب الأمن ، وتوقف الصراع ، وعندها تحول الخطباء إلى الوعظ والإرشاد ، والإشادة بالخلفاء ⁽¹⁾ .

لذلك ورد عنهم في وصف بعض الكتاب قول أحدهم : " فهناك خطباء كان يغلب عليهم العي ، حتى كانوا ينيبون غيرهم للقيام بمهمتهم ، وهناك من كان الناس يشكون من عدم إنابته وعدم أهليته لهذه المهمة الجليلة " ⁽²⁾ . أما إذا ما حاولنا الإنتقال إلى العصر الحديث في الجزائر ، نجد أن زحف الإحتلال الفرنسي أثار نخوة العاطفة الوطنية في بعض المثقفين والعلماء ، الذين شعروا بالخطر الاستعماري الداهم ، ففاضت قرائحهم بذلك الاحساس العاطفي ، فعبروا عنه في شكل

1- عبد الله الركيبي ، تطور النشر الجزائري الحديث ، ص11.

2- أبو القاسم سعد الله ، تاريخ الجزائر الثقافي ، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع الجزائر، 1981 212/2-213 .

خطب ، مستنهضين الهم للدفاع عن الوطن ، والجهد في سبيل الله ، ومن ضمن هؤلاء العلماء الغيورين على بلادهم ، نذكر بطل المقاومة الجزائرية الأمير عبد القادر (ت - 1883) الذي أعاد للخطبة قيمتها وحررها ، مما كانت تعانيه من أساليب الركاكة والعقم و" السجع المتكلف المقصود لذاته ، ومالت إلى البساطة في التعبير ، والقصد في القول دون إطناب إلا في المناسبات التي تتطلب الكثير من الإقناع . أما في الاستنفار إلى الكفاح والحرب وشحذ الهمم للدفاع عن الوطن ومقدساته فإن المجال يقتضي التركيز والإيجاز كما يقتضي أيضا التعابير الحماسية الفياضة " ⁽¹⁾ . التي تشعر السامع بأنه معني بهذا الخطاب التوجيهي البياني الفني ، المتمثل فيما " ينظمه عبد القادر من شعر وينثره من خطب ويختارلها من القرآن والحديث وعيون الأدب وأيام الأوائل حتى ينظم ويلم شتات هؤلاء المتذوقين لبيانه الفني وكيف يستجيبون له ، وينفعلون به حتى الإستشهاد " ⁽²⁾ .

ويبدو ذلك واضحا في خطبة ألقاها عند نقض العهد من طرف المستعمرين فيستفتح ذلك بقوله : " أما بعد، فلا يخفى أن الله تعالى قال في كتابه المجيد : { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَلِيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً وَعَلِّمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ } ⁽³⁾ .

1- عبد الله الركيبي ، تطور النثر الجزائري الحديث ، ص12 .
2- محمد السيد علي الوزير، الأمير عبد القادر الجزائري ثقافته وأثارها في أدبه ، المؤسسة الوطنية للكتاب الجزائر 1986، ص28.
3- التوبة : 123 .

وقال أيضا : { وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنْ
انْتَهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ } ⁽¹⁾. وهؤلاء القوم ، قد عاهدناهم
فנקثوا وصدقناهم فغدروا وصابروناهم فلم يصبروا ، وإن تركناهم وشأنهم ،
فلا نلبث أن نراهم قد فتكوا بنا على حين غفلة " ⁽²⁾.

فالخطبة استهلّت بالقرآن الكريم الذي تأثر به الخطيب ، ويلوح به
ليؤثر على قلوب المجاهدين ليهيأهم للاستعداد نفسيا لمقارعة جنود
الأعداء والفتك بهم ، بعد نقضهم للمعاهدة موضحا أن هؤلاء الأعداء ليس
فيهم شيمة الوفاء التي يتحلّى بها الأبطال ، لذلك فهم مناقضون للعهد، ويحق
فيهم الجهاد ، لتطهير الوطن من دنسهم ، فيوجه نداه للمسلمين قائلا : " فهيا
بنا أيها المسلمون إلى الجهاد ، وهلموا إليه باجتهدوا وارفعوا على عواتقكم
برود الكسل وأزيلوا من قلوبكم دواعي الخوف والوجل . أما علمتم أن من
مات منكم مات شهيدا ومن بقي نال الفخار وعاش سعيدا " ⁽³⁾.

يبدو من خلال هذه الخطبة أن صاحبها يغلب عليه طابع التأثير بالقرآن
الكريم ، سواء تعلق الأمر ببدايته به أو فيما تزخر به ألفاظه ، وتعابير
المستوحاة من القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة ، وكذلك تأثره بأسلوب
علي بن أبي طالب كرم الله وجهه في عنايته بتولّد

1- البقرة : 193 .

2- الأمير محمد بن عبد القادر الجزائري ، تحفة الزائر في تاريخ الجزائر والأمير عبد القادر ،
شرح وتعليق ، ممدوح حقي دار اليقظة العربية بيروت ، ط : 2 ، 1964 ، 236/1 .

3- المصدر نفسه ، 236/1 .

المعاني والصيغ ، وحثه المجاهدين على الاستماتة في الدفاع عن الوطن، وترغبا منه في إحدى الحسينيين: وهي إما النصر أو الشهادة في سبيل الله التي ورد قوله تعالى فيها : { لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ }⁽¹⁾. وهي المرتبة التي يتحصل عليها الشهيد عند ربه سبحانه وتعالى إذا رزق بالإستشهاد أثناء الدفاع عن وطنه ودينه ، وأبلى في ذلك البلاء الحسن ، ونال الشهادة . وأما إذا انتصر وبقي حيا فإنه ينال سعادة الانتصار مع العزة والشرف العظيم في وسط قومه ووطنه .

تلك هي طريقة الأمير عبد القادر في دعوته التي يجيز فيها ولا يكثر من الأسجاع المكلفة ولا يطنب ليخفف عن السامع الملل بخلاف عمه أبي طالب في خطبه فهو " يكثر من الإطناب ويعنى بتفصيل الأحداث ويوازن بين السجع والإرسال في سلامة ظاهرة ... لأنه أراد أن يقنع قادة الجيوش الجزائرية ويقنع الناس أيضا بالهدنة مع الفرنسيين ، فكان يعيد إلى الأذهان هذا الموقف أو ذاك فيتحدث عن الأوضاع التي كانت عليها البلاد وما حدث فيها بعد الاحتلال "⁽²⁾، من اضطراب وما تقشى فيها من أمراض اجتماعية مستغلا في ذلك العاطفة الدينية، ويرسخ دعوته في نفوسهم فيقول : "قد علمتم أيها السادة أنه لما تكاثرت المظالم وتواطأ العمال ومن وافقهم على إرتكاب المآثم ، انتقم الرب تعالى منهم ، وعمنا ذلك معهم قال تعالى:

1- آل عمران : 169 .

2- عبد الله الركيبي ، تطور النثر الجزائري الحديث ، ص15 .

{ وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ } (1)

فسلط الله علينا عدو ديننا ، فتكالب على بلادنا واستولى على مراسينا واستبدل مساجدنا فيها بالكنائس ، وأخلاها من المدرس والدارس " (2) .
فهذه الخطبة واضحة الدلالة وذلك لأن أبا طالب وهو عم الأمير عبد القادر متأثر بالثقافة الدينية - وبخاصة القرآن الكريم - التي تظهر في استعمالاته اللفظية والتعبيرية واستشهاداته مثل الآية السابقة : { وَاتَّقُوا فِتْنَةً ... } . التحذيرية الموجهة للذين يتجاوزون حقوقهم إلى حقوق الغير منتهكين كل الحدود الأخلاقية فيجازيهم المولى جلّت قدرته بالسيئة أكثر من أختها كما هو واضح من هذا التصوير الوارد في هذه الخطبة ، مثل :
التسلط والتكالب على البلاد ، وإخلاء المدارس من الدارسين وغيرها من الأشكال التي تعرض لها عم الأمير ، وهي خطبة طويلة إقتطفنا منها ذلك ، لإبراز الصورة التي تعلق بها ومدى تأثره بالقرآن الكريم .
أما ما صارت إليه الأمور بعد هذه الفترة التي أعقبت نضال الأمير عبد القادر ونفيه خارج الوطن ، فقد تفهقرت الحياة الثقافية والأدبية ، جراء الأحداث السياسية والفكرية التي سيطر الاستعمار على مجرياتها ، سواء ما تعلق منها بأسلوب الخطابة ، أو غيرها من الفنون الأدبية والنثرية ، وانحصرت الخطابة ، في المساجد والزوايا ، مقلدة كما كانت عليه في عصور

1- -- الأنفال : 25.

2- الأمير محمد بن عبد القادر الجزائري ، تحفة الزائر في تاريخ الجزائر ، 274/1 .

الإنحطاط ، إلى أن قدم عليها عصر الإصلاح ، فأعاد فيها الروح من جديد، وأزاح عنها غبار التقهقر والانطواء والتخلف ، وذلك سعيًا من حركة الإصلاح لإعادة إثبات الشخصية الجزائرية ، وبنائها على مقوماتها الأساسية التي حاول الاستعمار الفرنسي بكل ما في وسعه تدميرها ، وهنا يعود الفضل لله الذي هيا نخبة من جماعة الإصلاح التي أنارت طريق الحق والهادية إلى سبيل الرشاد .

ومن ضمن هؤلاء الخطباء الذين سلكوا سبيل الإصلاح ، وكان لهم الفضل في إحياء فن الخطابة نذكر منهم ابن باديس الذي كان من الزعماء الأوائل ، الذين كان لهم السبق في الدعوة إلى الفكرة الإصلاحية في خطبه ، سواء ما تعلق منها بما قاله ارتجالاً أو ما سجل منها ⁽¹⁾ وهو لا يتميز بالتركيز " على غرض واحد بل نجده حيناً يركز على الدين وحيناً على الإصلاح والاجتماع ، وأحياناً أخرى على السياسة والإصلاح معاً، وعلى التربية والأخلاق في أوقات كثيرة " ⁽²⁾. وابن باديس في خطبه يسلك الأسلوب البسيط المفهوم لدى الخاص والعام لذلك نجده يتجنب التكلف ، من أجل إبراز قوته على القول ، وإنما يعتمد على طريقة تبليغ أهدافه الإصلاحية والوطنية.

وعند الشروع في الخطبة ، يستهلها بالبسملة ، والحمد لله والصلاة والسلام على خير المرسلين عليه الصلاة والسلام ، وخير دليل على ذلك خطابه الذي ألقاه في الاجتماع السنوي

1- عبد الله الركيبي ، تطور النثر الجزائري الحديث ، ص22.

2- المرجع نفسه ، ص22-23.

العام ، الذي يحمل أفكار عميقة ، تحدث فيه عن نشاط الجمعية وأهدافها ، وما يتعرضون إليه من خصوم الجمعية وأعدائها . وفي تعرضه لأولئك الأعداء ⁽¹⁾ . يقول : " فأما الذين استغربوها فهم طائفة من السذج يقيسون الحقيقة الإنسانية بوجودهم و يقيمون التاريخ الإنساني بأعمارهم و يقيسون الاجتماع الإنساني ببیت يجمع زوجا وزوجة وأولاد يفرقهم الصباح للكد على القوت و يجمعهم المساء للنوم تحت السقف ، فأی نقطة في الحياة عند هؤلاء تحتاج إلى مظاهر الحشد والاجتماع وضم رأي لرأي ، وبهذا المقياس يقيسون الدين فهو عندهم اسم متعارف بين المسلمين وصلاة مفروضة تؤدي أو لا تؤدي ، وانتساب إلى الإسلام تجري مجرى القوانين في زمننا هذا ، والاعتقاد بجنة ونار ، ومن وسائلهم الأمل ولو بلا عمل ، كانت نقطة في الدين تحتاج إلى شيء اسمه جمعية العلماء المسلمين" ⁽²⁾ . وهكذا كان ابن باديس يستعرض تلك الطائفة من أولئك السذج الحاقدين على الجمعية وأعضائها الذين لا يفكرون في كيفية الوصول إلى الغد الأفضل ، غد الحرية الذي ينشده أعضاء الجمعية .

إن رجال الإصلاح في خطبهم كثيرا ما يعتمدون على الأفكار الإصلاحية ، لأنها الأساس الذي يمهد السبيل إلى الأفكار الأخرى . كما أن ابن باديس لم يترك شاردة ولا واردة ، وكانت في صالح الشعب الجزائري إلا تطرق إليها ، ومن ضمن ذلك فكرة العروبة التي أخذت حيزا في خطبة له عند تعرضه لحالة الجمعية الأدبية ، مفتتحا إياها بالحمد لله

1- عبد الله الركيبي ، تطور النثر الجزائري الحديث ، ص 23.

2- ابن باديس ، حياته وأثاره ، جمع ودراسة : عمار الطالبي ، ط : 2 ، 1983 ، 527/1.

ثم الصلاة على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، كما هي العادة في كثير من خطبه ، ثم توجه فيها بالتحية إلى الحاضرين قائلاً : " ...أما بعد فحياكم الله أبناء العروبة والإسلام وأنصار العلم والفضيلة ، حوربت فيكم العروبة حتى ظن أن قد مات منكم عرقها ، ومسخ فيكم نطقها فجئتم بعد قرن تصدح بلبلكم بأشعارها فتثير الشعور والمشاعر وتهدر خطباؤكم بشقاشقها فتدك الحصون والمعازل ويهز كتابكم أقلامها فتصيب الكلى والمفاصل " (1) . وفي هذا ما ينم على أن ابن باديس يسعى دائما إلى إحياء مثل هذه الأفكار البناءة من أجل الحفاظ على الذاكرة التاريخية ، مركزا في ذلك على بعض المفردات المقتبسة من الذكر الحكيم في قوله تعالى : { وَحُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً } (2) . ومعنى ذلك أن الأرض والجبال رفعت من مكانتها ، فوقع الضرب ببعضها البعض إلى أن تحطمت وأصبحت عبارة عن لا شيء (3) ، وهو ما يعنيه ابن باديس في عبارة "دك" التي حاول فيها أن يصف ما قامت به جماعة الإصلاح على غرار ما جاءت به هذه الآية الكريمة في إزالة كل ما حاول أعداء الوطن إحلاله محل ثقافتهم الأصلية كالفرنسة والتغريب .

هكذا لا يكاد أسلوب ابن باديس يخلو من خصائص الرمز في أثناء حديثه عن العقبات التي تعترض سبيل الجمعية ، عند مواجهة أعضائها للاستعمار ومن سار على دربه من أعوانه

1- ابن باديس ، حياته وأثره ، جمع ودراسة : عمار الطالبي ، 555/3.

2- الحاقة : 14.

3- محمد علي الصابوني ، صفوة التفاسير ، دار الصابوني ، ط : 9 ، د-ت ، 436/3.

ومع ذلك فهو في قوله يهدد ويعلن أن الأمر يتطلب العمل من أجل تغيير الواقع قائلا : "وما حيلة من يسلك سبيلا فتعترضه الصخور حتى لا يجد عنها محيدا ، وأن الضرورة تقضي عليه أن يجهد في نزعها وإماطتها ثم لا يكون جهده في ذلك كتماديه في السير"⁽¹⁾.

ومعنى ذلك أن ابن باديس في استعماله للرمز في خطبه لا يبقى مستمرا على ذلك النهج بل يكشف عن غرضه في بعض تصريحاته بكل وضوح ، فيما يدعو إليه من تأمل الواقع المزري للشعب الجزائري الذي تسبب فيه الاستعمار الفرنسي .

وبهذا القدر القليل جدا من الإنتاج الضخم في المجال الخطابي الكثير المتنوع ، يتضح أن أسلوب ابن باديس " يمتاز بالوضوح والدقة واختيار الألفاظ وتفصيل القول ... ، فهو لا يعمد إلى الفكاهة أو النكتة أو السخرية اللاذعة ، لأن شخصيته لا تميل إلى مثل هذا الأسلوب ، وإنما تميل إلى الجد والرزانة والهدوء في التعبير ، والقصد في القول ، والهجوم على الموضوع بلا تزويق أو تنميق أو بهرجة لفظية ، فهو من خطباء المعاني لا الألفاظ"⁽²⁾.

وخلاصة القول بالنسبة لمهمة ابن باديس الطويلة والشاقة ، أنه استطاع برباطة جأشه ورجاحة عقله ، وتفكيره النير ، أن يكون الزعيم الأمثل والمحنك الهادي إلى سبيل الرشاد والرائد في مجال الخطابة. التي " استندت على التراث العربي القديم وتأثرت بالأساليب

1- ابن باديس ، حياته وأثره ، جمع ودراسة : عمار الطالبي ، 526/3.

2- عبد الله الركيبي ، النشر الجزائري الحديث ، ص26.

العريقة فيه حيث استخدم أصحابها السجع أحيانا واستشهدوا بالقرآن أو الحديث أو الشعر. إلا أنها اختلفت من حيث المحتوى والموضوع من جهة ، وتحررت من الزخرف اللفظي ومالت إلى الوضوح والبيان العربي الأصيل من جهة أخرى ، فأعادت بذلك للأسلوب العربي مكانته في الأدب الجزائري⁽¹⁾.

هكذا استطاع رجال الإصلاح أن يبلغوا أفكارهم التحررية إلى الشعب الجزائري عن طريق الخطابة ، الشفوية والكتابية وغيرها من وسائل التبليغ المتنوعة ، ويتعاونون في شتى المجالات ذات العلاقة الوطيدة بالقضايا الاجتماعية والسياسية والثقافية، ومن ضمن القائمين بهذا الدور الهام محمد البشير الإبراهيمي⁽²⁾ ، الذي يأتي في مقدمة الخطباء البلغاء " ذلك أن الحقل الذي يتحرك داخله ، يقتضي منه بالضرورة أن يلبي الحاجة التي تستدعيها فكرة الإصلاح . وإن كان الإبراهيمي أدبيا أكثر منه مصلحا "⁽³⁾. ويرجع السبب في هذا إلى تكوينه الثقافي المستمد من التراث العربي الإسلامي الذي مكنه من ناصية القول واستيعاب البيان العربي، والتبحر في اللغة العربية وآدابها ، والقدرة على توليد الكلام والموهبة الأدبية وعرف الارتجال "⁽⁴⁾.

1- عبد الله الركيبي ، النثر الجزائري الحديث ، ص33.

2- محمد البشير الإبراهيمي ولد بشرق الجزائر 1889، وهاجر مبكرا إلى الحجاز ومنها إلى سوريا . ثم عاد إلى الجزائر ليشترك في الحركة الإصلاحية ، وترأس "جمعية العلماء " . بعد وفاة ابن باديس اشتغل بالصحافة والخطابة والتدريس وتولى رئاسة تحرير (البصائر) وتوفي 1965.

3- محمد عباس ، البشير الإبراهيمي أدبيا ، ديوان المطبوعات الجامعية بهران ، د-ت ، ص187.

4- عبد الله الركيبي ، تطوير النثر الجزائري الحديث ، ص27.

ولمزيد من التوضيح نَعقُدُ مقارنة بين هذين المصلحين فيما يخص أسلوبهما الخطابي الذي نلمس فيهما اختلافا واضحا ، لأن لكل منهما أسلوبه الذي يعود إلى تكوينه الخاص ومصدر ذلك هو " أن الثقافة قد لعبت دورا في ميل ابن باديس إلى الفكر الواضح والمنطق الذي يسبغ على كتابته منهجية معينة ، وهي ثقافة دينية بالدرجة الأولى بينما ثقافة الإبراهيمي لغوية أدبية وإن تشبع بالعلوم الدينية وأهدافها وبالفكر الإصلاحي ومبادئه "(1).

ومع ذلك نجد أن الإبراهيمي مزج بين أن يكون رجلا مصلحا وأديبا ، وهو ما نلمسه في خطبه وكتابات التي استمدتها من حياته الثقافية . والصفة الغالبة على خطب الإبراهيمي هي الارتجال نتيجة لعدم إستقراره وكثرة حله وترحاله ، الذي كان حائلا بينه وبين تحضير لهذه الخطب التي ضاع منها الكثير نتيجة عدم تدوينها . وأحسن دليل على ذلك خطبته التي ألقاها ارتجالا بمناسبة اختتام تفسير القرآن الكريم لابن باديس ، ففي حفل تكريم ابن باديس في كلية الشعب ، حيث ألح عليه جماعة من السامعين المعجبين به " أن يكتب ما علق بذاكرته من ألفاظها، ويضيف إليها بقلمه ما يربط بين معانيها حرصا على تخليدها "(2). وتتجلى فيها عظمة الإبراهيمي وذلك باختياره العبارة المناسبة للموقف ، وقدرته على الارتجال ، واستعماله للسجع قصدا منه أو عن غير قصد وهو يهدف من ذلك إلى إحساس المخاطب باللذة الفنية ، كما يلاحظ عليه أنه متعلق

1- الدكتور عبد الله الركيبي ، تطوير النثر الجزائري الحديث ، ص 28 .
2- محمد البشير الإبراهيمي ، أثار الإبراهيمي ، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع الجزائر ، ط : 1 ، 1978 ، 249/1 .

"بالصورة البيانية واحتفاله بالألفاظ القوية الجزلة" (1). ففي مخاطبته للجمهور الحاضر قال : " ما أشرقت شمس في الجزائر الحديثة على مثل يومكم بالأمس مضى بجلاله وروعته ولم ينطق في وصفه لسان بكلمة ولا اختلجت من نعتة شفتان بحرف لا زهدا فيه ولا عدم عرفان لحقه ، ولا غبنا لحقيقته ... وإنما هو كلام الله وبيت الله عقد الألسنة بجلالها وحبس النفوس على جمالها " (2).

وللابراهيمى العديد من الخطب في مناسبات عدة منها ما ألقاه في الاجتماعات السنوية للجمعية أو في أماكن أخرى من أنحاء الوطن عند فتح المدارس ، وبناء المساجد بأموال المواطنين الخاصة ، كما أن له خطبا كثيرة ألقاها في أثناء رحلاته داخل الوطن وخارجه . وحين يتعرض في خطبه للغة العربية ، يشعر السامع بأنه من الذين يتوفرون على مخزون أدبي ولغوي ضخم ، ساعده على التصرف في العبارات ، وتوليد الكلمات (3) وهو ما نجده مثلا في قوله : " ولقد علمتنا لغة العرب فنا في مصاص الأشياء فقها منه أن من النساء عقائل وأن في الأموال كرائم وأن في الجواهر فرائد وأن من النجوم درارى وأن في الشعر عيونا وأن في الذخائر أعلقا إلى آخر ما يجري على هذا النسق " (4).

وهكذا يستمر في إبراز البعد التاريخي لأصالة اللغة العربية ، في ماضيها السحيق

1- عبد الله الركيبي ، تطور النثر الجزائري الحديث ، ص30 .

2- محمد البشير الإبراهيمي ، أثار الإبراهيمي ، 249/1 .

3- عبد الله الركيبي ، تطور النثر الجزائري الحديث ، ص30 .

4- محمد البشير الإبراهيمي ، أثار الإبراهيمي ، 250/1 .

وبين ما آلت إليه من الضعف والجمود ، والقصور في تأدية مهمة التواصل الثقافي ، وغيرها من العلاقات ذات المدلول الاجتماعي ، إلا أن الفضل في الحفاظ على هذه اللغة يرجع إلى القرآن الكريم الذي خلدها " بفضل مجهودات المصلحين وخاصة الشيخ " باديس " الذي كان له الفضل في بعث الثقافة العربية وفي تفسير القرآن تفسيراً سلفياً جديداً يتلاءم مع جوهر العقيدة مع الحياة وتطورها "(1).

مما سبق ذكره نستنتج أن الخطابة كانت من الأنواع الأدبية التي لعبت دوراً هاماً في العديد من القضايا ، وانعكس ذلك على نمو اللغة العربية ، وتطورها، وخاصة في مجال تبليغ الدعوة التحررية التي تولى الشعب حملها وضحي من أجلها.

1- عبد الله ركيبي ، تطور النثر الجزائري الحديث ، ص 30 .

1-2- الرسائل :

بعد تعرضنا لفن الخطابة التي هي فن من الفنون النثرية الأدبية ، ننتقل إلى نوع آخر كان رائجا في الأوساط الثقافية ، والذي تناوله رجال الإصلاح ، ألا وهو الرسائل التي ساهمت في خدمة الأدب الجزائري الحديث في فترات كانت بأمس الحاجة إليها من أجل لعب دور لا يخلو من الأهمية . فمنذ أن عرف هذا الفن في عصر التدوين ، بعد اتساع رقعة الخلافة الإسلامية ، الذي ساعد على نقل أوامر الخلفاء وتبليغها للعمال والولاة لتنفيذ ما ورد فيها من إصلاح وتوجيه لرعاية الأمة وتطويرها . ومن هذا المنطلق ، بدأ الإهتمام بهذا النوع من الفن الأدبي ، الذي حاول الكاتب فيه أن يصبح " أسلوبه جميلا مؤثرا متماسكا في صيغته ومحتواه بحيث تبرز فيه شخصيته وأصالته وطريقته الخاصة في التعبير "(1).

وهو ما انجر عنه تميز كتابة الرسائل ببعض المميزات : " الملاءمة بين الموضوع والأسلوب والعناية بالصياغة وبالسجع بوجه خاص ، ومراعاة الفواصل بهدف إحداث المتعة الأدبية أو إظهار البراعة اللفظية "(2).

ويمكن استعراض نموذج من الرسائل التي كتبها الإبراهيمي في أثناء تواجده بمصر ، وأرسل بها إلى إخوانه من رجال الإصلاح في الجزائر تحت عنوان : "تحية غائب كالأيب..." يقول فيها : "حي الجزائر عني يا صبا... واحمل إليها مني سلاما تباري لطافته لطافتك وتُساري

1- عبد الله الركبي ، تطور النثر الجزائري الحديث ، ص 34.

2- المرجع نفسه ، ص 34.

إِطَافُئُهُ إِطَافُئُكَ ، فَقَدِيمَا حَمَلَكُ الْكَرَامِ الْأَوْفِيَاءُ مِثْلُ هَذِهِ التَّحِيَةِ إِلَى مَنْ يَكْرُمُ عَلَيْهِمْ أَوْ مَا يَكْرُمُ عَلَيْهِمْ ، فَحَمَلَتْهَا رَوْحًا ، وَأَدَّيْتُهَا بَوْحًا ، وَأَعْلَنْتُهَا شَذَى وَفَوْحًا وَكُنْتُ بَرِيدَ الْأَرْوَاحِ إِلَى الْأَرْوَاحِ ، بِالْأَفَافِظِ غَيْرِ مَكْتُوبَةٍ ، وَمَعَانٍ غَيْرِ مَكْذُوبَةٍ ، وَقَدِيمَا أَفْضَى إِلَيْكَ الشُّعْرَاءُ بِشُجُونِهِمْ وَائْتِمْنُوكَ عَلَى جِيدِهِمْ وَمَجُونِهِمْ ، فَأَحْتَمَلْتُ غَثًا وَسَمِينًا ، وَكُنْتُ عَلَى الْأَسْرَارِ أَمِينًا فَكَأَنَّكَ كُنْتُ لَهُمْ مَحْطَةً إِرْسَالٍ وَإِسْتِقْبَالٍ مَعًا ، يَحْمِلُونَكَ الرِّسَائِلَ تَخِيلًا وَيَتَلَقُّونَ أَجْوِبَتَهَا إِحْسَاسًا وَمَا عَرَفَ وَاشْ وَلَا شَعُرَ رَقِيبٌ ؛ ... " (1).

بهذه التحية افتتح الكاتب هذه الرسالة العاطفية ، المزودة بالحنان والشوق ، المحملة بالقيم التعبيرية ذات الألفاظ الموحية ، والتي تعبر عما يلاقيه في غربته ، ويتمنى رجوعه إلى وطنه قريبا ، ثم راح يرسل التحية مرة أخرى للجزائر التي ولد ونشأ وترعرع فيها ولها من الفضل الأكبر ، والأأيادي البيضاء ، في الأخذ بيده في مجال التكوين والاطلاع على كثير من المعارف المكونة لشخصيته ، كنشأته على حب العروبة والإسلام ، وتعلمه للغة العربية التي وسعت وحي الله ، وكل ذلك نلمسه في الفقرة التالية من رسالته التي يقول فيها : " أد التحية عني للجزائر التي غدت وربت ، وأنبتت القوادم في الجناح ، وأسلفت الأأيادي البيضاء وأسدت العوارف الغر ، وأشربت من الطفولة حب العروبة والإسلام وأخذت باليد إلى رياضهما ففتقت اللسان على أشرف لغة وسعت وحي الله ووحى العقول وفتحت القلب لأكمل دين جمع الروح والمادة ، ثم أورثت - فيما أورثت - من مآثر العرب وفضائل الإسلام- أنفا حميا

1- محمد البشير الإبراهيمي، عيون البصائر ، 482/2.

وفؤاد ذكيا، ولسانا جريئا، وهمة بعيدة ،..."(1).

إن ما نلاحظه على الإبراهيمي أنه متشبع بلغة القرآن ومتأثر به تأثرا بليغا ، يبدو ذلك واضحا في هذا النص .الذى يمكننا أن نشير على سبيل المثال إلى لفظة وردت فيه وهي : "وسعت وحي الله " التي اقتبسها من قوله تعالى : { رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ } (2) . ومعنى ذلك " يا ربنا وسعت رحمتك وعلمك كل شيء ... ، وفي وصف الله تعالى بالرحمة والعلم -وهو ثناء قبل الدعاء - تعليم العباد أدب السؤال والدعاء فهم يبدأون دعاءهم بأدب ويستمتطرون إحسانه وفضله وإنعامه "(3). وأن رحمته سبحانه شاسعة وواسعة في العفو عن خطاياهم وأن علمه محيط بكل شيء من أعمال وأقوال ، وكذلك حركاتهم وسكناتهم (4) وغيرها مما يمت لذلك بصلة .

أما ما يخص النص من الناحية الأدبية ، فإنه لا يخلو من "عملية تماوج الأسلوب عند الأديب ، بين ارتباطه بالمحسنات اللفظية وبين تخلصه منها أحيانا والهروب إلى الاسترسال وإن كان الأديب يميل إلى عملية التجميل دائما بين فترة وفترة ، سواء بالمحسنات اللفظية

1- المرجع السابق ، 483/2.

2- غافر : 7.

3- محمد علي الصابوني ، صفوة التفاسير ، دار الصابوني القاهرة ، د-ت ، 95/3.

4- ابن كثير ، تفسير القرآن العظيم ، دار ابن حزم ، بيروت ، ط : 1 ، 2002 ، 2516/4 .

أو البيانية" (1).

ومما لا شك فيه أن أسلوب الرسائل في العصر الحديث قد تطور ، وخاصة في ظل قيام الحركة الإصلاحية التي أعطت دعماً لفن النثر الحديث ، لاستعادة أصالته من ناحية اللغة والعبارة .

1- محمد عباس ، البشير الإبراهيمي أدبيا ، دار المطبوعات الجامعية وهران ، دت ، ص221.

الفصل الأول

استلهم معاني القرآن الكريم

تمهيد :

لم يكن من الغرابة بمكان أن نجد للقرآن الكريم دوراً فعالاً في توجيه قرائح الكتاب والأدباء ، لما يمتاز به من البيان والسحر والجادبية ، ولما يتضمنه من معان وأفكار سامية وتعاليم رشيدة ، تفيد الفرد وتوجهه نحو النجاح والسودد ، وتجنبه طريق الشر . فالقرآن الكريم نور يهدي إلى سبيل الرشاد ، ويزيل غشاوة الظلام ، وهو علاج للمرض ، وفيه شفاء للمؤمنين الذين اتقوا ربهم ، واستقاموا على الطريقة المثلى ، التي هدانا الله إليها في كتابه العزيز ، يصفه محمد البشير الإبراهيمي أحد رجال الإصلاح المتأثرين به قائلاً :

" فالقرآن كتاب يحمل في ثناياه دين الله الكامل . وكل ما سبقه من الكتب والصحف فهي إرهابات له وشارات به وإشارات إليه . ابتعث به نبيه الأمين محمد صلى الله عليه وسلم لهذا العالم الإنساني كله ... هادياً له إذا ضل . ومصححاً لخطاه إذا أخطأ . ومخرجاً له من ظلمات الحيرة إذا التبست عليه مناهج الحياة ... ومحرراً له من أصناف العبودية الفكرية والبدنية التي تقلب فيها قروناً . ومرشداً إياه إلى وسائل الكمال التي كان يطلبها فلا يجدها " (1).

والقرآن الكريم هو الكتاب المنزل من الله ، الذي يتصف بالكمال ، وأن كل من إطلع عليه يكتشف بسهولة تلك الإحاطة الشاملة لما سبق ولما هو آت . ولذلك نجد أن الزاهري أحد رجال الإصلاح المتأثرين بكتاب الله يقول : " أن القرآن الكريم ، أيها السادة

1- محمد البشير الإبراهيمي ، آثاره ، 224/1 .

وإن كان المنطق الانساني يقصر عن وصفه ، وعن الإحاطة بكماله ، الذي لا يحد ولا ينتهي فإن من يتدبر - ولو قليلاً - يعلم أنه منزل من الله ما فيه من شك ، وأنه ما يقدر عليه من أحد غير الله " (1).

وفي كل ذلك نجد أنه يدعو إلى تهذيب النفس وإلى نشر الفضيلة واجتناب الرذيلة والتمسك بالمثل العليا ، والأخلاق الكريمة .
ويتناول القرآن كذلك " إصلاح الإنسانية من ناحية التربية والتهذيب فيضع لها المثل الأعلى للفضيلة والخلق الكريم ... حتى يصل بك - إذا أنت تخلقت بخلقه - إلى أقصى ما يمكن أن يصل إليه أمرؤ من الكمال ... ولو أن هذه الإنسانية قد وُفِّتْ إلى أن تتربى بتربية القرآن ، وتتأدب بأدابه لاستراحت مما هي فيه من إثم وفساد ، ومما تعانيه من شرور وموبقات " (2)

وللتوضيح أكثر، فإن هذا الكتاب الذي جاء لتهذيب الإنسان من جميع النواحي الإنسانية لينال رضى الله ، ويفوز بنعيم السعادتين الدنيوية والآخروية كما يصفه ابن باديس في قوله : " القرآن كتاب الإنسان من جميع نواحي الإنسانية وكتاب الأكوان بما فيها من نعيم وعبر وكتاب العمران بما يحتاج إليه العمران مما يصلح أحوال البشر وما يتصل بالبشر ، وكتاب السعادتين الدنيوية والآخروية " (3) .

1- محمد السعيد الزاهري ، الإسلام في حاجة إلى دعاية وتبشير ، دار الكتب الجزائر ، دت ، ص40 .

2- المصدر نفسه ، ص41 .

3- ابن باديس ، حياته وأثره ، جمع ودراسة : عمار الطالبي ، 226-225/3 .

ونتيجة للبرهان القوي الذي يمتاز به القرآن الكريم ، نلاحظ أن رجال الإصلاح لا ينقطع تعاملهم مع القرآن الكريم ، بحثا عن الطرق التي تُزيل سبل التدهور والانحطاط ، الذي تتخبط فيه تلك المجتمعات الإسلامية ، والتي تفرقت في الأرض شيئا وأحزابا ، حتى أصبحت لقمة سائغة للاستبداد والاستعباد كما هو الأمر في القطر الجزائري وغيره من الدول التي ترزخ تحت نير الاستعمار .

ومن أجل رفع الظلم والاستعباد رأى المصلحون ، أنه لا مفر من ذلك إلا بالعودة إلى المصدر الأساسي ، الذي هو حال إصلاح الإنسان ، ومن ذلك قول الإبراهيمي : " القرآن إصلاح شامل لنقائص البشرية الموروثة ، بل اجتثاث لتلك النقائص من أصولها . وبناء للحياة السعيدة التي لا يظلم فيها البشر ولا يهضم له حق على أساس من الحب والعدل والإحسان ... والقرآن هو الذي صلح عليه أول هذه الأمة وهو الذي لا يصلح آخرها إلا عليه .."(1)

لكل هذه التجليات ، والمعاني الواضحة ، والأدلة القوية التي يتحلى بها القرآن الكريم حاول رجال الإصلاح التعرض لبعض المعاني التي يتضمنها القرآن الكريم حسب الحالة الظرفية. وسنحاول في هذا الفصل من البحث التعرض إلى بعض المعاني التي تتطلبها طبيعة البحث ، المرتبطة بالقضايا الفكرية المتعددة المطروحة في نصوص هؤلاء المفكرين من رجال الإصلاح.

1- محمد البشير الإبراهيمي ، أثار الإبراهيمي ، 78/4 .

والجدير بالذكر أن القارئ المطلع على الكم الذي تزخر بها المعاني القرآنية في النثر الجزائري الحديث ، يلاحظ مدى تأثر كتاب تلك المرحلة بالقرآن الكريم ، والإرتواء من نبعه روحا ومعنى ، وهو الأمر الذي أدى بهم إلى توجيه مجتمعهم إلى الاهتداء بالقرآن الكريم الذي يحررهم من الاستعمار والاستبداد .

والسؤال المطروح في هذا المجال ، والذي يمكن الإجابة عليه من خلال ما تعرض إليه الكتاب والأدباء هو : ما هي القضايا والمعاني التي إهتم بها الكتاب والمصلحون؟ وهو ما يمكن التطرق إليه والإجابة عليه فيما يلي :

1- الإيمان بالله :

إن أول ارتباط يرتبط به الإنسان المؤمن مع خالقه هو ذلك الحبل المتين المسمى بالإيمان به ، ومعناه التصديق به ⁽¹⁾ . الذي يشده نحوه للإطلاع على قدرة الخالق ، وأغوار أسرارهِ العظيمة ، التي يستطيع الفرد من خلال اطلاعه عليها أن يتخذ لنفسه منها يسلكه من أجل تحقيق بعض الغايات والأهداف الدنيوية والأخروية .

وفي هذا الصدد نجد القرآن الكريم ، يوضح أثر الإيمان وغايته في هذا الجزء من الآية الكريمة في قوله تعالى : { إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ } ⁽²⁾ . وتعني هذه الآية أن المؤمنين بالله حقا يرشدهم

1- الجواهري ، الصحاح ، تحقيق أحمد عبد الغفور عطار، دار العلم للملايين بيروت ، 1984 ، ط : 3 2071/5 .

2- يونس : 9.

ربهم إلى النهج القويم والعمل الصالح لارتباطهم بربهم ، الذي يفتح لهم أبواب الخير ، ويسدد خطاهم إلى بلوغ الهدف المنشود ، بوحى من إحساس الضمير وتقوى الله إلى طريق الجنة .

وعن توضيح معنى الإيمان وغايته التي يجب على المؤمن أن يمر بها ، ويتعرف على حقيقة أمره ، نسوق قول الحسن البصري في هذا الصدد: " ليس الإيمان بالتمني ، ولا بالتخلي ولكن ما وقر في القلب وصدقته العمل " (1) . لذلك نجد في قول له في مجال الحديث عن الإيمان أيضا ، يبين الطريقة المثلى ، الواجب اتباعها ، ونبذ كل العيوب التي تؤثر في الإيمان الصحيح ، وعلى المرء الصالح أن يشرع أولا وقبل كل شيء في إصلاح نفسه قبل إصلاح غيره . حيث يقول : " لا يستحق أحد حقيقة الإيمان حتى لا يعيب الناس بعيب هو فيه ، ولا يأمر بإصلاح عيوبهم حتى يبدأ بإصلاح ذلك من نفسه فإنه إذا فعل ذلك لم يصلح عيبا إلا وجد في نفسه عيبا آخر ينبغي له أن يصلحه . فإذا فعل ذلك شغل بخاصة نفسه عن عيب غيره . وإنك ناظر إلى عملك بوزن خيره وشره ، فلا تحقرن شيئا من الخير وإن صغر فإنك إذا رأيته سرك مكانه ، ولا تحقرن شيئا من الشر وإن صغر فإنك إذا رأيته ساءك مكانه " (2) .

وإذا ما حاولنا البحث عن تفرعات الإيمان البالغة الأهمية نجد أن " الإيمان نوعان : إيمان عقلي ، وإيمان قلبي ، والإيمان العقلي ، هو العقيدة الثابتة في النفس التي لا تتبدل

1- الجاحظ ، البيان والتبيين ، دار الكتب العلمية بيروت لبنان ، د- ط ، د- ت ، 75/3 .

2- المصدر نفسه ، ص70 .

ولا تتزعزع ، ولا حاجة إلى التدليل عليها ، لأنها من البديهيات بالنسبة إلى المؤمنين بها . فمن يؤمن بالله وحده عد من ذوي الايمان العقلي ، ومن يبذل دمه ويضحى بروحه في سبيل وطنه ويوقف نفسه لخدمته وسعادته ، فهو من ذوي الايمان القلبي ، والعقلي أعم من القلبي ⁽¹⁾ .

لذلك نلاحظ أن الإيمان القوي المنبثق من أعماق النفس يتخطى الحواجز ويصنع المعجزات ، مثل ما هو واقع لدى تلك القلة القليلة من المؤمنين الأولين ، عندما تملكهم الإيمان الصادق ، صنعوا مجدا تاريخيا زاهرا ، ما زال يقتدي به على مر الأيام والعصور، ومن أجل ذلك وجه إلى التحلي بالإيمان .

" وقد أدرك قادة الأمم وزعماءها ما للإيمان من قوة ، وفعالية وتأثيره في الأفراد والجماعات ، فنوهو به ، وأوصو بالتمسك به ، فقال الرئيس إزنهاور : " بغير الإيمان بالله والعودة إليه لا تستطيع أن تحيا حكومة أو شعب " ، وقال بتان عاهل فرنسا : " إنني أدعوكم قبل كل شيء إلى نهوض أخلاقي " ، وقال المارشال مونتميري : " لا نستطيع أن ننتصر في معركة إلا إذا انتصرنا على أنفسنا " ⁽²⁾ .

هذه بعض الإشراقات الإيمانية التي دعا إليها بعض العظماء ، وكبار الأمم ، نتيجة استخلاصهم للتجارب التي مروا بها ، أثناء قيامهم بأعمالهم القيادية للأمم .

1- محمد الصالح الصديق ، الدروب الحمر ، المكتبة الوطنية للنشر والتوزيع الجزائر ، 1979 ، ص30 .

2- المرجع نفسه ، ص32 .

وعلى هذا السبيل ، ترد العديد من الآيات التي توجه إلى الإيمان الصادق ، الذي تستقر إليه النفوس البشرية ، والاستقرار إليه هو الإذعان " والتصديق المطلق الثابت بالقلب والإقرار باللسان ... " (1) . لذلك حاول الكتاب وزعماء الإصلاح في الجزائر نشر هذا النور الإلهي وبثه في ضمير الشعب الجزائري ، أثناء محاولة الاستعمار الفرنسي إطفاء هذا القبس الرباني وإزالة كل ما يمت إلى العقيدة الإسلامية ، وطمس الحياة العلمية والثقافية ، وإحلال الجهل محله ليسهل عليه قيادته واستعباده كيفما شاء . فقيض الله ثلة من المجاهدين المؤمنين المخلصين لدينهم ووطنهم ، فراحوا يرفعون أصواتهم منددين بالظلم والعدوان ، ويكشفون عن نوايا الاستبداد ، حيث نجد ثلة من رجال الإصلاح الذين تركوا نشر أدب خالدا ، ومن خلاله استطاعوا أن يدافعوا عن مقومات الأمة الجزائرية ، وأن يعيدوا لها ما حاول الاستعمار طمسه ، كما هو الأمر لدى محمد البشير الإبراهيمي الذي ورد عنه الحديث عن المستدمر قائلا: " وهو في هذا الوطن قد أدار قوانينه على نسخ الأحكام الإسلامية ، وعبث بحرمة المعابد وحارب الإيمان بالإلحاد ، والفضائل بحماية الرذائل ، والتعليم بإفشاء الأمية ، والبيان العربي بهذه البلبلة التي لا يستقيم معها تعبير ولا تفكير " (2) .

لقد أوضح لنا محمد البشير الإبراهيمي العديد من العناصر السلبية ، التي رغب الاستعمار أن يفرضها على الشعب الجزائري ، كمحاربة الإيمان بالإلحاد ، وغيرها من مقومات الشخصية الجزائرية ، لذا نراه في نص آخر ينعى الاستعمار بالكفر والإلحاد ولا يرضخ

1- بكير بن سعد ، أضواء على الاخلاق الإسلامية ، دار البعث قسنطينة ، ط : 1 ، 1984 ، ص 35 .

2- محمد البشير الإبراهيمي ، عيون البصائر ، 22/2 .

إلا للقوة ، التي يجب أن يتحلى بها الشعب الجزائري ، ألا وهي الإيمان بحقه إذ يقول : " إن الاستعمار لا يؤمن بالله حتى نسأله الإنصاف لدينه الحق ، ولكنه يؤمن بالقوة فلنحذر عواقب الاغترار ، فإن هذه الأمة في مجموعها قوة ... بعددها ، و بالمعاني التي استيقظت فيها ، وبإيمانها بحقها ، وبتصميمها على استرجاعه ، فإذا تعامى على هذه القوات كلها فإن تقلبات الدهر ستفتح عينيه منها على ما يكره ، وإن الله للظالمين بالمرصاد "(1) .

هكذا يستمر الإبراهيمي في إبراز الخصائص التي يتصف بها هذا المعتدي المغرور باستخفافه بقوة هذه الأمة المتمسكة بقضيتها وحققها في الدفاع عنه ، مهما كان الثمن لأن الأمة إذا عقدت العزم على شيء ما ، عليها أن يكون كل مؤمن فيها كما يصفه الشيخ العربي التبسي في قوله : " إن المؤمن يجب أن لا يكون خادعا ، ولا مخدوعا ، وإذا خدع مرة

فيجب أن يكون له درسا ، فلا يخدع مرة أخرى "(2) .

تلك هي صفة الاستقامة والاعتدال التي يجب أن تتوفر في الأمة الجزائرية ، لكي تستطيع أن تقف على أقدامها وتدافع عن كيانه من تلقاء نفسها ، دون الانصياع إلى غيرها إذا دخل الإيمان في قلوبهم ، وهو ما يدعوا إليه محمد السعيد الزاهري بقوله : " ولا يمكن بحال أن ننظر من المسلمين عملا صالحا ، ولا خلقا برّا شريفا ، مالم يدخل الإيمان

1 - محمدالبشير الإبراهيمي ، عيون البصائر ، 181/2-182.

2- العربي التبسي ، مقالات في الدعوة إلى النهضة الإسلامية في الجزائر ، جمع وتعليق:شرفي أحمدالرفاعي، دار البعث للطباعة والنشر قسنطينة الجزائر، ط : 1 ، 1981 ، 112/1 .

في قلوبهم حقاً ، وما لم يتقوا هذا الإيمان فيهم ، حتى تطفح به أنفسهم هدى ونورا وهنالك ينصرون الله وهنالك ينصرهم الله " (1) . وهو الوعد الحق ، بدليل قوله تعالى : { وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَاؤُوهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَاَنْتَقَمْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ } (2) .

إن الكاتب هنا أكد على الإيمان الكامل ، الذي يجزي عنه صاحبه بالمساندة والتأييد الكامل ، من قبل المولى جلت قدرته ، لأن ذلك وعده سبحانه وتعالى ، وقد صرح به في قوله تعالى : { وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّاماً مَعْدُودَةً قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِنْدَ اللَّهِ عَهْدًا فَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ } (3) .

" إن الله تعالى ما شرع هذه الشعائر عبثاً إنما شرعها لحكم جليلة أعلاها جمع الأمة على الدين ، لتجتمع في شؤونها الدنيوية ، وتوحيدها في عبادة الله ، لتتربى على الاتحاد في مصالحها العامة المشتركة " (4) .

لكن المستعمر حاول بشتى أنواع الوسائل طمس كل مقومات الشخصية الوطنية والدينية للمجتمع الجزائري ، وخاصة الإيمان بالله وحده ، وهو ما أكده عبد الحميد بن باديس في قوله : " وَحُورِبَ فِيكُمْ الْإِسْلَامُ حَتَّى ظُنَّ أَنْ قَدْ طُمِسَتْ أَمَامَكُمْ مَعَالِمُهُ وَانْتَزَعَتْ مِنْكُمْ

1- محمد السعيد الزاهري ، الإسلام في حاجة إلى دعاية وتبشير ، ص 79-80 .

2- الروم : 47 .

3- البقرة : 80 .

4- محمد التبشير الإبراهيمي ، عيون البصائر ، ط : 1 ، 1981 ، 12/2 .

عقائده ومكارمه فجنتم بعد قرن ترفعون علم التوحيد وتنشرون من الإصلاح لواء التجديد وتدعون إلى الإسلام كما جاء به محمد - صلى الله عليه وسلم - وكما يرضى الله ، لا كما حرفة الجاهلون وشوّهه الدجالون ورضيه أعداؤه "(1).

من خلال هذا النص ، نلاحظ أن هناك صحة إسلامية استطاعت أن توقظ الأمة الجزائرية من سباتها العميق الذي ما انفك ينخر قواها، لولا تلك الجماعة من المصلحين التي خصها الله لهذه الأمة ، لاستدراجها إلى سالف عهدا ، وإيمانها بوحداية الخالق "وما يجب أن يثبت له من صفات وما يجوز أن يوصف به ، وما يجب أن ينتفي عنه "(2).

والتمسك بالتوحيد الصحيح الذي يعني اعتقاد أن الله واحد لا شريك له وهو العظيم الأعظم الذي تنبعث بوادر تلك الاعتقادات من أعماق النفس الطيبة . وقد ورد في الذكر الحكيم ، ما يشير إلى بعض الصفات الإلهية في قوله تعالى : { هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ ، هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ "(3).

1- محمد الطاهر فضلاء، قال الشيخ الرئيس الإمام عبد الحميد بن باديس ، نشر مطبعة البعث ، الجزائر ، د- ط د- ت ، ص : 162 .

2- محمد عبده ، رسالة التوحيد ، ديوان المطبوعات الجامعية ، الجزائر ، د- ت ، ص : 7.

3- سورة الحشر : 22-24 .

لقد عبر المولى جلت قدرته أنه هو وحده الواحد الأحد لا إله غيره وأنه رب العرش العظيم ، وأنه يمتاز بصفات متعددة ، ومتميزة عن مخلوقاته ، وله الأسماء الحسنى ، حيث نجد هذه التعبيرات والأوصاف ، قد وردت في تصريحات رجال العلم المصلحين الذين تشبعوا من مناهل القرآن الكريم ، والسنة النبوية الشريفة التي برزت بشكل صريح في تراثهم النثري وغيره ، فكان ذلك شعلة متقدة لشحذ همم الجزائريين الذين كانوا شغوفين بتلك الحركة الفكرية الأدبية والدينية . فهاهو عبد الحميد ابن باديس يشكر الله تعالى ويثني عليه ويصفه بعدة صفات من أسمائه الحسنى كالوحدانية والربوبية والألوهية ، وأنه المنشئ الأول والآخر للخلق ، فكان ذلك رحمة واسعة منه حيث يقول : " الحمد لله الواحد الأحد في ربوبيته وألوهيته ، مبتدئ الخلق برحمته الداعي إليه بنعمته وحجته ، شرع الشرائع بالحكمة والعدل لسعادة الإنسان ، وأودعها أسراراً وفوائد يعظم منها النفع ويزداد بها الإيمان " (1) .

فالكاتب هنا استوحى هذه الدعوة ، وتلك الفكرة من القرآن الكريم مثل سورة الإخلاص وهو ما جاء في قوله تعالى : { قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ، اللَّهُ الصَّمَدُ ، لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ، وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ } (2) .
فهذه السورة التي أحدثت إحساساً وشعوراً عميقاً في نفس الكاتب ، جعلته يعبر تعبيراً صادقاً ، على خصوصية الله بالوحدانية ، وانفراده بالربوبية والألوهية ، ووحدانية المولى جل شأنه باقية غير زائلة ، ويمتاز بالقدرة ، والكفاءة التي ليس كمثله شيء .

1- ابن باديس ، حياته وأثاره ، جمع ودراسة : عمار الطالبي ، 529/3 .

2- الإخلاص : 1- 4 .

وأما عن وصفه الله بالربوبية ويعني بها في هذا المقام الرب سبحانه وتعالى فقد استلهمه من قوله تعالى : { إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ } (1). وكذلك قوله تعالى : { قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّي الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ } (2).

كذلك كلمة الألوهية ، فهي وصف للرب خالق الخلق ومبدع الرزق ، الذي استمدده الكاتب من قوله تعالى : { اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ } (3). وكذلك قوله تعالى : { إِنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ الَّذِي لَّا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا } (4).

الشيء نفسه نجده عند الفتى الناضج ، رمضان حمود ، المتشبع بظاهرة الإيمان بالله ووحدانيته ، والتمسك بدينه الحنيف عندما يوازن بين المؤمنين بالله ، فيذكر أن " كثير من يشعر بكماله وقوته " (5).

1- آل عمران : 51 ، سورة الزخرف : 64 .

2- الأعراف : 33.

3- البقرة : 255.

4- طه : 98

5- محمد ناصر ، رمضان حمود ، حياته وأثره ، المؤسسة الوطنية للكتاب ، الجزائر ، ط : 2 ، 1985 ص 267 .

فهؤلاء القوم المؤمنون الموحدون لله ، قليل منهم من يحس ، ويصور من خلال ذلك الإحساس ، وصف الله بالكمال والقوة والعظمة الإلهية التي لا تضاهيها قوة ، في الحياة الدنيا ، لأن الله منزّه عن النقص الذي يتصف به الخلق. فيجب أن نتعظ بالله وأن نهتدي بهديه لأنه " رزقنا القوة في قلوبنا وعقولنا وأرواحنا وأبداننا ، وأشعرنا الرحمة بأنفسنا وببعضنا وبغيرنا ، إنه القوي المتين ، الرحمن الرحيم " (1) .

هكذا نجد في هذين النصين لهذين الكاتبين الذين تعرضا لصفة القوة ، المستمدة من قوله تعالى : { اللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ } (2) . وكذلك قوله تعالى : { فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ } (3) .

تلك هي الصفة التي عبر عنها الكاتبان رمضان حمود وابن باديس معا ، لأن كل واحد منهما ينفرد بخصوصيته من الصفات . فرمضان يذكر صفة الكمال ، وابن باديس يعرض صفتين لم يتعرض لهما رمضان حمود ، وهما صفة الرحمن والرحيم ، المقتبستان من قوله تعالى : {وَالْهُكْمُ إِلَهُ وَاحِدٌ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ } (4) .

1-- ابن باديس ، حياته وأثره ، جمع ودراسة : عمار الطالبي ، 515/3 .

2- الشورى : 19 .

3- هود : 66 .

4- البقرة : 163 .

فهما صفتا الرحمة والمغفرة والعطف والعفو ، والرفق بعباد الله الذين يمتثلون لأوامر خالقهم ونواهيهم .

وقد تكررت كلمة الرحمة أربع مرات في موطن واحد ولم يقل لنا " القهار الجبار " مع أنه عز وجل قهار جبار. كل ذلك لنستشعر سعة رحمة الله بخلقه ، فإذا كان رب الناس الذي هو المالك لهم يعامل عباده بمقتضى هذه الرحمة التي وسعت كل شيء فأحرى أن يتخلق عباده بأخلاقه وتظهر عليهم آثار هذه الأخلاق في معاملة بعضهم ببعض " (1) .

هكذا ، نجد الكاتب قد ساق هذا التوجيه في التربية الأخلاقية مقتبسا ذلك من قوله تعالى : { الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ، الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ } (2) . وكذلك ما ورد من السنة النبوية الشريفة حيث قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : { مَنْ لَا يَرْحَمْ لَا يُرْحَمْ } (3) .

أما عن الصفات التي وردت في النص السابق لابن باديس ، فهي صفة " القهار الجبار " فالقهار يعني أن الله قاهر لكل معتد آثم عات من خلقه ، ويوقفه عند حده ، وقد استند الكاتب على هذه الصفة التي استخلصها من قوله تعالى : { لَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا لَأَصْطَفَى مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ سُبْحَانَهُ هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ } (4) ، ومعنى ذلك

1- ابن باديس ، حياته وأثاره ، جمع ودراسة : عمار الطالبي ، 338/4 .

2- الفاتحة : 2 ، 3 .

3- عز الدين بليق ، منهاج الصالحين ، دار الفتح للطباعة والنشر ، بيروت لبنان ، ط: 3 ، 1984 ، ص 251 .

4- الزمر: 4 .

أن الله وصف نفسه بالوحدانية ، نفياً لاتخاذ الولد ، ثم وصف نفسه بالقهار
ليدل دلالة واضحة على نفي الشركاء والندية له ؛ لأن كل شيء مقهور تحت
إرادته ⁽¹⁾ وكذلك قوله تعالى : { قُلْ إِنَّمَا أَنَا مُنذِرٌ وَمَا مِنِ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ
الْوَّاحِدُ الْقَهَّارُ } ⁽²⁾ .

وثاني آية ، معناها أمر من الله لنبيه الذي يدعو إلى توحيده دون
الإشراك به ، لأن الإشراك به ظلم واعتداء صارخ ، وللتوضيح أكثر فمعنى
القهار هو تبليغ الإشعار بالترهيب والتخويف ⁽³⁾ . لينصع كل طاغ وجاهل ،
ويهتدي إلى معرفة الله عن قرب . ويعود إلى الطريق السوي .

أما عن الصفة الثانية التي تعرض لها الكاتب في النص السابق فهي
صفة الجبار التي هي " من أسماء الله تعالى ، وهو العلي العظيم " ⁽⁴⁾ ،
استوحاها الكاتب من قوله تعالى : { هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ
الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ
عَمَّا يُشْرِكُونَ } ⁽⁵⁾ . ففي هذه الآية الكريمة نجدها تضمنت عدة صفات
للمولى جلت قدرته .

1- محمد علي الصابوني ، صفوة التفاسير ، ص 70 .

2- ص : 65 .

3- محمد علي الصابوني ، صفوة التفاسير ، 64/3 .

4- محمد إسماعيل إبراهيم ، معجم ألفاظ القرآن الكريم ، الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر
، ط : 2 ، 1970 189/2 .

5- الحشر : 23 .

هذا من جانب ومن جانب آخر نجد أن الكاتب يحاول لفت نظر الإنسان البائس الفقير إلى التحلي بالتأني والصبر ، ويعلم أن الله ليس بغافل عما يعمل الظالمون ، وأنه مغير الأحوال وأنه يمهل ولا يهمل ، وسيجازي كل على حسب ما قدم ، إن شرا فشر وإن خيرا فخير فيصرح الكاتب فيقول : " صبرا أيها البائس المسكين فعين الله لا تنام ، والدهر لا يدوم على حال ومهلا أيها الغني البخيل ، فربك لا تخفى عنه خافية وأنه عزيز ذو انتقام "(1).

ففي هذا النص البسيط الواضح الدلالة يشير فيه إلى تهدة البائس ، وإسكان روعه ويأمره أن يعتمد على الله وحده.

وهذا التوجيه الرباني لا يصدر هكذا عفويا ، إنما نتيجته تعود إلى أن صاحبها متشبع من دراسته الدينية وخاصة القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة . ونستشف ذلك ، من استعراضه لصفات الله سبحانه وتعالى ، التي تأثر بها رمضان حمود في قوله تعالى : { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْتُلُوا الصَّيِّدَ وَأَنْتُمْ حُرْمٌ وَمَنْ قَتَلَهُ مِنْكُمْ مُتَعَمِّدًا فَجَزَاءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنْكُمْ هَدْيًا بَالِغَ الْكَعْبَةِ أَوْ كَفَّارَةٌ طَعَامُ مَسَاكِينَ أَوْ عَدْلُ ذَلِكَ صِيَامًا لِّيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِ عَفَا اللَّهُ عَمَّا سَلَفَ وَمَنْ عَادَ فَيَنْتَقِمِ اللَّهُ مِنْهُ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ } (2). فمعنى هذه الآية التي استعرض الكاتب فيها صفتين من صفات المولى جل شأنه وهي : " عزيز ذو انتقام " أنه سبحانه وتعالى صاحب العزة ، ورفيع الشأن ، كما أنه لا يتوانى في الانتقام

1- محمد ناصر ، رمضان حمود حياته وأثره ، ص 291 .

2- المائدة : 95.

السريع من المسيء ، الذي لا يتفكر في ملكوت السماوات والأرض ،
ويضرب بكل الأوامر والنواهي الإلهية عرض الحائط .
هكذا نلاحظ أن هناك كتابا تمسكوا بالإيمان بالله وحده ، ودعوا إلى
متابعة هذا السلوك الأخلاقي والديني القويم ، نتيجة اطلاعهم العميق على
التراث الإسلامي الراقى وأعني ، بذلك أولئك الكتاب المصلحين الذين
تركوا لنا نتاجا أدبيا لا يستهان به ، سواء تعلق الأمر بالناحية الروحية أو
العاطفية المتأثرة بالدين الإسلامي الحنيف ، أو بالناحية النفسية التربوية
المحضة ، في اقتفاء سلوك الرسول وأثره ، لأنه لعل خلق عظيم ، وإيمان
صادق لذلك نادى هؤلاء إلى السبيل الذي يجب أن يخضعوا له ويقتنعوا به ،
وهو الإخلاص لله الواحد القهار ، الذي لا إله إلا هو الرحمن الرحيم .

2- اليوم الآخر:

الإيمان باليوم الآخر ؛ من الموضوعات التي تقترن بالأشياء الغيبية ، مثل الارتباط بالإيمان بالله لقوله تعالى : { لَيْسَ الْبِرُّ أَنْ تُولُؤُوا وَجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ } (1) ، يدل هذا على الاهتمام البالغ بهذا اليوم العظيم الذي لا يقل أهمية عن الإيمان بالله ، حيث أننا نجد الله سبحانه وتعالى يكرر هذا الارتباط به في موضوع آخر فيقول الله تعالى : { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا } (2) .

ويكثر تردد هذه التسمية في القرآن الكريم بأسماء متعددة منها يوم البعث ، والنشور والقيامة ، والساعة ، والدين ، والحساب ، والجمع والتغابن ، والقارعة ، والطامة الكبرى والأزفة والحشر ، والنبأ العظيم .

إن الألفاظ المعبر عنها في القرآن الكريم عن يوم الآخر ترتبط بالثواب والعقاب

1- البقرة : 177.

2- النساء: 59.

الذي هو جزاء المحسن على إحسانه ، والمسيء على إساءته ، وعلى الإنسان أن يعمل وأن يجد في عمله بإخلاص ليفوز بالدارين ، دار الدنيا ودار الآخرة ، كما ورد في قوله تعالى : { أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ } (1) .

ومن سلك هذا السبيل فإنه : " أقام الدين فاستقامت له الدنيا ، وانقاد إلى الله فانقاد له عباد الله ، وأخذ كتاب الله بقوة ، فمشى على نوره إلى سعادة في الدارين وأرشده إلى أن سعادة الدنيا عز وسلطان ، وعدل وإحسان ، وأن سعادة الآخرة حياة لا نصب فيها ولا نهاية ، واطمئنان لا خوف معه ولا كدر في أثنائه ، ورضوان من الله أكبر " (2) . هذا ما توحى الآية الكريمة السابقة إليه ، فهو عهد من الله الذي لا يخلف وعده . لذلك نلاحظ أنه أوكل مهمة التبليغ إلى أولئك العلماء المتضلعين بالرسالة ، لنشرها على عباد الرحمن دون زيادة ولا نقصان ؛ لأن " عهد الله في أعناق علماء الدين لعهد ثقيل وأن أمانة الإسلام في نفوس علمائه لعظيمة ، وإنهم لمسؤولون عليها يوم تنتشر الصحائف في هذه الدار ، وفي تلك الدار " (3) .

تلك هي التوجيهات التي دعا إليها نبي البشر إلى الاقتداء بها ، حرصاً منه سبحانه

1- التوبة: 89.

2- محمد البشير الإبراهيمي ، آثاره ، 222/4 .

3- المرجع نفسه ، 340/3 .

وتعالى على نجاحهم ، مبينا لهم سبيل الخير فيما وجهوا إلى العمل به ، والشر فيما نهى عنه لأن يوم الآخر أو البعث هو " من دلائل قدرة الله على البعث الأخير ، ومن الحجج الدافعة على منكريه ولكنها - مع ذلك - قريبة الخطورة في أذهان المتفائلين مثلي بالبعث الأول في هذه الحياة الدنيا .

تلك الآية هي قوله تعالى : { ضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ ، قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ } (1) . لاحت لي آية البعث من القرآن عندما لاحت لي آية الإنبعاث ... فأجلت بصيرتي في الأولى ، عندما أجلت بصري في الثانية فما زادت الثانية الأولى إلا تمكيناً وتثبيتاً (2) .

هكذا تتضح هذه الدلائل ، وتتجلى المسافات والأبعاد عن الحقائق الغيبية التي أثبت لنا القرآن العظيم صحة وقوعها ، وأن الإيمان بها مثل الإيمان بالله واليوم الآخر في ترتيب لفظي واقعي ، وتسلسل منطقي ممكن الوقوع ، وغير مستحيل استحالة قطعية ، ويمكن استجلاء ذلك عن طريق الإحساس المرهف والشعور العميق ، والإلهام بعظمة الخالق في هذا الكون وأنه سبحانه القادر على كل شيء ، وإذا أراد شيئاً فإنما يقول له كن فيكون .

1- يس : 78- 79 .

2- محمد البشير الإبراهيمي ، أثاره ، 235/3 .

3- القضاء والقدر:

قبل التطرق إلى جملة القضاء والقدر ، لا بد من التعرض إلى تعريف كل كلمة على حده . فالقضاء هو " الحكم ، وأصله قضاي لأنه من قضيت ، إلا أن الياء لما جاءت بعد الألف همزت والجمع أفضية " (1) ، أما القدر فهو " الغنى واليسار " وهو من ذلك لأن الله كله قوة " (2) . ولكي يكون الإنسان في سبيل ربه حقا ، يجب أن يقر بالقضاء والقدر ، لأن هذا الأمر ، يتعلق بصدق الإيمان وتمامه ، وهو من الخضوع الضمني لله ، والإقرار له بالقوة والعظمة ، والإعتراف بالرسول صلى الله عليه وسلم . هذا من المؤكدات التي لا تجعلنا مؤمنين إلا إذا ألحقنا إيماننا بوحداية الله ، والإقرار بالقضاء والقدر ، فيما يتعلق بخيره وشره وأن ذلك كله من الله . وقد ورد الكثير من الآيات الكريمة ، تلفت انتباهنا إلى القضاء والقدر بصريح العبارة في مثل قوله تعالى : { مَا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَقْدُورًا } (3) .

في هذا السياق ، نلاحظ أن بعض الكتاب يعبرون عن الإجحاف والتعسف المسلط على الأمة الجزائرية من طرف الاستعمار ، الذي جثم على البلاد ، وسلب كل شيء حتى

1- ابن منظور ، اللسان ، 2463/6.

2- المرجع نفسه ، 76/5.

3- الأحزاب : 38.

القوانين التي كانت سائدة في أوساط المواطنين ، وأحل محلها قوانينه التي لا تصلح إلا لأغراضه الشخصية ، دون ما ينفع السكان الأصليين ، إذ يقول العربي التبسي : " لا تجد هذه المؤسسات من قوانين بلاد كهذه ومن أحكام الجزائر ما يسهل لها الوجود والظهور ، فإن ظهرت بحكم القضاء والقدر ، وباستعداد الشعب الفطري "(1) .

فمن هذا النص الذي يلمح إلى القضاء والقدر ، بالنسبة لما يصدر من تصرفات الاستعمار الفرنسي . والقضاء الذي يعنيه الكاتب في هذا الصدد هو ما يدعى في الحقيقة بالحكم على الشيء والقطع على ما يمكن أن يليق بذلك ، وأحق أن يقطع عليه ، فيعود مرة إلى إبداع الأشياء ، لتحقيقها على ما هي عليه ؛ لأن الذي خلق الخلق هو الحكيم العليم والحكمة هي إصابة الحقيقة ، والذي يصدقه قوله تعالى : {فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَواتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ} (2) .

ومحل الشاهد لدينا في هذه الآية : {فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَواتٍ} . لذلك يجوز وصف أفعال الخلق بالقضاء ، أي أنه خلقهن وحكم بهن كقوله تعالى : {قَالُوا لَنْ نُؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا} (3) .

1- العربي التبسي ، مقالات في الدعوة إلى النهضة الإسلامية في الجزائر ، جمع وتعليق : شرفي أحمد الرفاعي ص 157 .
2- فصلت : 12 .
3- طه : 72 .

وهو يعني بصراحة الحكم ، ومن هنا صدر على تسمية العالم بالقاضي ، لما يتمتع به من اتزان في الأعمال ، وإعطاء كل ذي حق حقه .
إلا أن ما جاء في النص ، هو الاعتقاد السائد لدى السلطة الحاكمة للبلاد من الفرنسيين الراغبة في محو كل ما يمت بصلة لذلك الشعب المغلوب على أمره ، وطمس معالم بناء شخصيته ليضمحل ويندثر من الوجود ، وإن بقي على الحياة يكون تائها لا هو من هؤلاء ، ولا هو من أولئك ، لأنه أصبح مجرد من كل مقوماته الانسانية ، التي هي البناء الأساسي لكيان الفرد والمجتمع .

وقد تناسى أولئك الحكام المتعجرفون المتسلطون على رقاب الأهالي ، بأن إرادة الله هي أقوى وأعلى من كل شيء ، مصداقا لقوله تعالى :
{قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ} ⁽¹⁾ . وما ذلك على الله بعزيز ، لأنه الجبار العليم الخبير ، يدرك كل الأشياء وأنه يمهل ولا يهمل .

وهكذا نجد تلك القدرة التي بثها الله في رجاله الصالحين من أبناء تلك الأمة ، الذين قاوموا ذلك الإستعمار بشتى الوسائل ، على الرغم من قيامه بإحباط جميع المحاولات المستعملة من طرف أولئك الأحرار ، الذين أنار الله عقولهم بقضائه وقدره ، فكان على يدهم التحرر من العبودية ، والحصول على الإستقلال التام لذلك الوطن والمواطنين المسلوبي الإرادة .

4- صفات المؤمنين :

إن العلي القدير يدعو المؤمنين إلى التحلي بصفات الإيمان الأساسية ، التي جاءت في كتابه العزيز ، الذي أنزله على عبده النبي الأمي محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم ليبلغهم الرسالة ، ويدعوهم إلى الهداية ، التي إرتضاها الله لعباده كافة ، ليسعدوا في الدنيا و الآخرة إن هم تمسكوا بما فضلهم به الله على جميع الأمم السابقة ، حيث يصف الله أمة القرآن بقوله تعالى : { كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ مِنْهُمْ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ } (1).

فالتمسك بكتاب الله الذي " اشتمل على مجموعة من الأحكام إصطلح على تسميتها بالأخلاق ، لذلك سمي القرآن " كتاب أخلاق " لأنه يوجه حياة المسلم نحو الأفضل ، بإرشاده إلى الصفات الحسنة التي يجب التحلي بها للظفر بالحياة السعيدة ، وتحذيره من الصفات السيئة التي يجب التخلي عنها ، للابتعاد عن الشقاء والتعاسة " (2).

والأخلاق الكريمة هي التي مدح الله بها نبيه محمد صلى الله عليه وسلم في قوله تعالى : { وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ } (3) ، وهو الغرض نفسه الذي وصف الرسول صلى الله عليه وسلم به نفسه في قوله : { إِنَّمَا بُعِثْتُ لِأَتَمِّمَ مَكَارِمَ الْأَخْلَاقِ } (4).

1- آل عمران : 110.

2- محمد ناصر بوحجام ، أثر القرآن في الشعر الجزائري الحديث ، ، 61/1 .

3- القلم : 4 .

4- عز الدين بليق ، منهاج الصالحين ، ص192.

إن من مقاصد دعوة رجال الإصلاح في الجزائر هو غرس تلك الصفات الحميدة المستمدة من روح القرآن الكريم ، والسنة النبوية الشريفة في قلوب الشباب الجزائري المسلم خاصة والأمة الجزائرية عامة ، لأن تشبعهم بالتكوين القرآني يبعدهم عن تلك الفوضى ، التي يتخبط فيها من لم يتخذ الأخلاق القرآنية منهاجاً لحياته ، وطريقاً سديداً لمستقبله .

وقد حاول هؤلاء العلماء الأجلاء استغلال كل المناسبات المتاحة لهم ، لشرح تلك الصفات الأخلاقية الحميدة ، وتبسيطها ووضعها في متناول الفئة المتعلمة ، لتجنيبهم تلك المغالاة التي تدعوا إليها تلك الطغمة الاستعمارية بمساعدة الفئة الجاهلة ، التي تتلاعب بها الطبقة الاستعمارية الحاكمة ، فتوجهها كيفما شأت ، وحيثما رغبت خدمة لأغراضها الدنيئة .

وقد ورد عن أحمد الشرباصي قوله : " لقد تعرض كتاب الله تعالى لأصول الأخلاق التي يريد الله لعباده أن يتحلوا بها ، وأن يستجيبوا لروحها ، ولذلك هدف حديث القرآن عن الأخلاق إلى غاية سامية جليلة ، هي أن يكون المسلم المؤمن المتخلق بمكارم الأخلاق صالحاً لتلقي الإشراقات الروحية ، والفيوضات الإلهية التي تجعله يسيطر بروحه على بدنه ويسمو بنفسه فوق حسه ، ويستجيب لعقله أكثر مما يستجيب لعاطفته ، ويحسن الوفاق بين لبه وقلبه " (1) .

وهكذا تحمل أولئك الكتاب عبء الحديث عن الصفات التي يجب أن يلتزم بها

1- أحمد الشرباصي ، موسوعة أخلاق القرآن ، دار الرائد العربي ، بيروت لبنان ، ط : 1 ، 1971 ، ص: ن.

المؤمن للولوج في خضم تلك الفترة المتصارعة عناصرها ، فئة تحاول إحلال النور وفئة تحاول إسدال الظلام ، ليبقى الأهالي على جهلهم ، فتسلح المصلحون بخير زاد ، دعموا به أقوالهم الصريحة تارة ، وغير الصريحة تارة أخرى ، وضربوا الأمثال بأفضل المواقف المشرقة للاهتداء إلى العبر ، التي يجب أن تؤخذ نبراسا لمن دخلت في قلبه الرحمة ، وفهم الأهداف والوقائع . تلك أهم الصفات التي سنتعرض لها فيما يأتي :

4-1- التقوى :

إن التقوى من صفات الأخلاق الإسلامية الأصلية الفردية منها والاجتماعية ، التي رفع الله من شأنها ، وجعلها من المهام الأساسية المفروضة ، ومن الفضائل الواجبة " مرتبطة بطهارة القلب ، والتجرد من الأهواء ونزواتها الحيوانية التي تدفعنا إلى تحقيقها وإشباعها بأية طريقة سواء " (1) .

فهذه الصفات الحميدة ، قد نجد أن لها " صلة بين التقوى والبر الذي هو جماع الفضائل ومجموعة أعمال الخير " (2) . ولذلك يقول تعالى :
{ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهْلِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ اتَّقَى وَآتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا وَاتَّقُوا اللَّهَ } (3) ، إذ أن لها ارتباطا بالصبر حيث جاء في قوله تعالى :
{ لَيْسَ الْبِرُّ أَنْ تُولُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ

1- بكير بن سعد ، أضواء على الأخلاق الإسلامية والمعاصرة ، دار البعث قسنطينة الجزائر ، 1984 ، ص 40 .

2- أحمد الشرباصي ، موسوعة أخلاق القرآن ، ص 208 .

3- البقرة : 189 .

وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ
وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ ۖ (1)

وقد ارتبطت في آيات أخرى بالتوكل وغيرها من الصفات الأخلاقية الحميدة ، التي توضح لنا بأن " التقوى حصانة وصيانة ، والتقوى رعاية ووقاية ، والتقوى قوة وفتوة ، والتقوى بر وخير والتقوى إحسان وإتقان ، والتقوى وفاء وصبر " (2).

تلك هي الركائز الأخلاقية التي تستوجب على الإنسان التحلي بها ، وهو الأمر الذي أدى بأحد دعاة الإصلاح الجزائريين أن يشيد بهذا المنشد الأخلاقي والتمسك به ، لأنه يعتبر بمثابة الزاد والذخيرة التي يستطيع استغلالها عند الحاجة ، ويدافع بها عند اشتداد النوائب وبذلك تهدأ النفس مطمئنة ويرتاح الضمير ، وعليه ترسل الرحمة ، فيكون عندها الاستقرار والهدوء والارتياح .

لأن المتصف بهذه الصفة الحميدة ، يكون مزودا بالعظمة والقوة والسؤدد. والنص التالي يكشف لنا ثمرة التقوى إذ يقول في ذلك محمد البشير الإبراهيمي : " أوصيكم بتقوى الله فهو العدة في الشدائد والعون في الملمات ، وهي مهبط الروح والطمأنينة ، وهي منزل الصبر والسكينة وهي مبعث القوة واليقين ، وهي معراج السمو إلى السماء ، وهي التي تثبت الأقدام في المزالق ويربط على القلوب في الفتن " (1).

لقد اشتمل هذا النص على العديد من المحامد التي يكون أساسها التقوى ، التي هي الأمتداد الحقيقي لمن أراد أن يسمو عن الدنيا والرزائل ، لأن ما جاءنا على لسان هذا المصلح ، وقد اعتمد صاحبه في نصحه وتوجيهه لنا على ذلك القبس المنير ، ألا وهو كتاب الله المبين متأثرا بقوله تعالى : { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ } (2).

1- البقرة : 177.

2- أحمد الشرباصي ، موسوعة أخلاق القرآن ، ص210-211 .

هذه دعوة وتوجيه منه سبحانه وتعالى للخلق الذي أنار الله عقله وهداه إلى الإيمان به ، والعمل بما أمر به ، واجتناب ما نهى عنه ، ليصير مسلماً حقاً كما أمر ، وهو ما قصده الإبراهيمي ، ولم يكتف بهذا فقط ، بل نجده تعدى ذلك إلى رؤية أخرى ألا وهي قوله تعالى :
{ الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَاتٌ فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللَّهُ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى وَاتَّقُونِ يَا أُولِيَ الْأَلْبَابِ } (3).

فهو يذكر في نصه أن التقوى عدة وزاد يتزود به أولئك الذين وهبهم الله القلوب النيرة والعقول الصافية ، وهو ما يدعو إليه عبد الحميد بن باديس مدعماً قول الإبراهيمي السابق

1- محمد البشير الإبراهيمي ، عيون البصائر ، 291/2 .

2- آل عمران : 102.

3- البقرة : 197.

الذكر قائلاً : " وأن لا فضل لأحد إلا بتقوى الله ، ومن يتقي الله فهو أنفع لعباد الله " (1).

ففي هذا النص تأكيد وتوضيح بأن الإنسان الصالح هو الذي لا تغره الحياة الدنيا لأن تقواه لله تحيله إلى أن يكون بشراً سوياً ، يقبل على عمل الخير فينفعه ، وينفع غيره ويكون عند الله من الذين وصفهم بقوله تعالى : { الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ } (2). فالله في هذه الآية يبشر المؤمنين المتقين بالمفازة العظمى في الحياة الآجلة والعاجلة بقوة إيمانهم . وفي آية أخرى يذكر الله تعالى حفظه للمؤمنين المتقين قائلاً : { وَأَنْجَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ } (3).

هكذا يخبرنا القرآن الكريم بأن هناك علاقة مؤكدة تأكيداً منطقياً بين الإيمان والتقوى التي تظهر من خلال تلك البصمات المؤثرة في حياة الأفراد والجماعات .

فالإنسان المسلم ذو الأخلاق السامية لا يؤثر فيه ذلك التقلب " الزمان والمكان بل يرصد نفسه على التمسك الدائم بكارم الأخلاق القرآنية التي تبعدنا عن الرياء ، والنفاق وتدفعنا إلى الإخلاص والإحسان اللذين يكملان فضيلة التقوى " (4). مصداقاً لقوله تعالى : { كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ مِنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ } (1). فالنص القرآني يكشف لنا الغطاء ويزيح اللثام عن الأمة الإسلامية ، التي تختلف عن الأمم التي سبقتها في الدعوة إلى توحيد الله سبحانه وتعالى ، لكونها تتميز بصفات أخلاقية عالية ، من ضمنها القيام بفعل الخير والأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، ودوامهم على الإيمان بالله .

1- ابن باديس ، حياته وأثاره ، جمع ودراسة : عمار الطالبي ، 547/3.

2- يونس : 63-64.

3- النمل : 53.

4- بكير بن سعد ، أضواء على الأخلاق الإسلامية، ص43.

4-2- الصبر:

هو فضيلة من فضائل الشخصية الإنسانية المستقيمة القائمة على ركيزة الإيمان بالله وهو كما عرفه ابن مسكويه بأنه "مقاومة النفس الهوى ، لئلا تنقاد لقبائح الأشياء " أو هي : " احتمال الكد" ⁽²⁾. وهو ما ذهب إليه تقريباً بن الربيع في تعريفه التالي : " هو مقاومة النفس للهوى عن مغالبتها " ⁽³⁾. والشخص المتمسك بصفة الصبر يعتبر ذلك لديه " انتصاراً على النفس الأمارة بالسوء ، وإذا ما حيزت هذه الفضيلة كانت في مواجهة الرذائل عبارة عن : نبات باعث الدين في مقابلة باعث الشهوات كما يقول الإمام الغزالي " ⁽⁴⁾.

1- آل عمران : 110.

2- محمد عبد الستار نصار، دراسات في فلسفة الأخلاق ، دار القلم الكويت ، ط: 1 ، 1982 ، ص 245 .

3- ناجي التكريتي ، الفلسفة السياسية عند ابن الربيع ، دار الأندلس بيروت لبنان ، ط : 3 ، 1983 ، ص 67 .

4- محمد عبد الستار نصار ، دراسات في فلسفة الأخلاق ، ص 245 .

ولما كانت هذه الصفة من أرقى الصفات الأخلاقية ، وصفها المولى جل شأنه بأحسن الأوصاف " في نيف وسبعين موضعا ، وأضاف أكثر الدرجات إليه " (1) . حيث قال تعالى : { وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أُمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ } (2) .

فهذه الآية تشير إلى أن من يتصف بهذه الصفة الحميدة ، يكون مميزا عن غيره ويصبح من الراشدين الذين يهدون بأمر ربهم ، لأن الصبر هو عبارة عن إشراقة نورانية تعد " من معالم العظمة وشارات الكمال ، ومن دلائل هيمنة النفس على ما حولها ولذلك كان " الصبور " من أسماء الله الحسنى ، فهو يتمهل ولا يتعجل ويبطئ بالعقاب إن أسرع الناس بالجريمة ، ويرسل أقداره لتعمل عملها على اتساع القرون ، لا على ضيق الأعمار وفي نطاق الزمن الرحب لا في حدود الرغبات ... ، والمشاعر الثائرة " (3) . نجد ذلك مجسدا في قوله تعالى : { وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ وَإِنَّ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ } (4) . صحيح هناك بعض من الناس يودون دائما الإسراع في تنفيذ الحكم ، وهذا خطأ منهم ، لأن في العجلة الندامة ، كما هو وارد في المثل السائر . لذلك نجد أن الحديث النبوي الشريف يقول في هذا الصدد : " وَمَنْ يَسْتَعْنِ يَغْنِهِ اللَّهُ وَمَنْ يَصْبِرْ يُصْبِرْهُ اللَّهُ ، وَمَا أُعْطِيَ أَحَدٌ مِنْ عَطَاءٍ خَيْرًا وَأَوْسَعُ مِنَ الصَّبْرِ " (1) .

1- المرجع نفسه ، ص245.

2- السجدة : 24 .

3- محمد الغزالي ، خلق المسلم ، دار الشهاب للطباعة والنشر باتنة الجزائر ، 1985 ، ص131 .

4- الحج: 47.

فالحديث يدعونا إلى السلوك السوي ، الذي يزيد لنا قوة وكمالا ؛ لأن " الصبر من عناصر الرجولة الناضجة ... ، فإن أثقال الحياة لا يطيقها المهازيل ، والمرء إذا كان لديه متاع ثقيل يريد نقله ، لم يستأجر له أطفالا أو مرضى أو خوارين ، وإنما ينتقي له ذوي الكواهل الصلبة والمناكب الشداد !! كذلك الحياة لا ينهض برسالتها الكبرى . ولا ينقلها من طور إلى طور إلا رجال عمالقة وأبطال صابرون"(2) ، ليؤدوا مهامهم على أحسن ما يرام .

ولأهمية هذه العظة الأخلاقية نلاحظ أن أحد أعمدة الإصلاح الجزائري ألا وهو عبد الحميد بن باديس يدعو إخوانه في الجمعية الإصلاحية إلى الالتفات إلى العهد الذي تعاقدوا عليه للحفاظ على الجمعية ، وتوسيعها ، وكل ذلك الجهد المبذول لا يتأتى إلا عن طريق فضيلة الصبر ، فيوجه لهم النداء قائلا : " أيها الإخوان قد تعاقدنا في مثل هذا العيد من السنة الماضية ، تعاقدنا على خدمة مبادئ الجمعية وتوسيع نطاق أعمالها ، ونشر هدايتها ونصر كل عامل من رجالها ، بصبر وتضحية وثبات وقد وفينا - بفضل الله - بهذا العهد أو بما استطعنا في السنة الماضية " (3) . هكذا كان الصبر والثبات لتأدية الأعمال الصالحة لبناء الجزائر وإيقاضها من غفوتها التي سلطت عليها من طرف الاستعمار مستندا في كلامه ذلك إلى قوله تعالى : { وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكُمْ فَلَعَرَفْتَهُمْ بِسِيمَاهُمْ وَلَنَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ ، وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ } (1) .

1- مسلم ، صحيحه ، بشرح النووي ، دار الفكر بيروت ، د- ت ، 1983 ، 145/7 .

2- محمد الغزالي ، خلق المسلم ، ص 131 .

3- ابن باديس ، حياته وأثره ، جمع ودراسة : عمار الطالبي ، 564/3 .

هكذا كان الغرض من طرف رائد الإصلاح في الجزائر، مقتنيا أثر القرآن الكريم في اختباره زملاؤه في الجمعية ليعلم الصابرين منهم الذين يستطيعون أداء المهمة الملقاة على عاتقهم لتبليغ رسالة الإصلاح إلى من يهيمه الأمر في هذا الوطن الذي يعاني من ويلات التجهيل والتخلف، فصمدت تلك الفئة من رجال الإصلاح ح في جمعيتها، كما يصرح عنها رائد النهضة عبد الحميد بن باديس بقوله: " والجمعية - بحمد الله - ثابتة لهم صابرة لامتحان الله بهم. وقد وعدنا الله عاقبة الصابرين ورد عنها كيد الظالمين والحمد لله رب العالمين" (2)

هكذا كان الوفاء من طرف رجال الجمعية ، والصمود في وجه أعدائهم معتمدين على ما وعدهم الله به من النصر . الذي وعد الله به المؤمنين الصابرين ، أليس هو القائل في قوله تعالى : { قُلْ يَا عِبَادِ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ } (3).

ذلك هو الجزاء الذي يتحصل عليه من أدرك وتفهم هذا القول العظيم ، واقتدى بهذا القول الإلهي ، الذي يكون " قد كشف الزمان على الحقائق ، وحقت كلمة الله فكانت العاقبة للحق والصبر والتقوى ولمن صبر وغفر إن ذلك لمن عزم الأمور ، اللهم قد صبرنا فآتنا

1- محمد: 30، 31.

2- ابن باديس ، حياته وأثره ، جمع ودراسة : عمار الطالبي ، 551/3 .

3- الزمر: 10.

عقبى الصابرين ، اللهم قد غفرنا فأشهد " (1).

هذه هي أفكار المصلحين من أبناء الأمة الجزائرية ، المنتمين إلى جمعية الإصلاح الوطني ، المتشبعين بأفكار القرآن الكريم ، التي تدعو إلى الخصال الحميدة ، والفضائل الكريمة التي تبدو واضحة جلية ، وهو ما نستشفه من هذا النص الأخير ، والنصوص التي سبقته ، المتأثرة بالقرآن الكريم ، الذي تشبع به أولئك الكتاب المصلحون ، من مثل قوله تعالى : { لَتُبْلَوْنَ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعَنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ } (2).

تلك هما الصفتان الحميدتان اللتان وردتا في هذه الآية الكريمة ، والمتمثلتان في صفتي الصبر والتقوى ، اللتين لهما الفضل الأكبر في بناء أخلاق الإنسان ؛ لأنه "كلنا يعلم أن النجاح والسعادة ، نتيجتا الصبر على المكارِه ، والسعي المتواصل مع الثبات في المبدأ" (3) يقود المرء إلى الغاية المرجوة والهدف المنشود ، والاستقرار الدائم .

ورد عن الإمام محمد الغزالي أنه : " سئِلَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : أَيُّ النَّاسِ أَشَدُّ بَلَاءً ؟ قال : " الْأَنْبِيَاءُ ، ثُمَّ الْأُمَثَلُ فَأَلْأَمَثَلُ ، يُبْتَلَى النَّاسُ عَلَى قَدَرِ دِينِهِمْ . فَمَنْ تَخَنَ دِينَهُ اشْتَدَّ بَلَاؤُهُ ، وَمَنْ ضَعُفَ دِينُهُ ضَعُفَ بَلَاؤُهُ ، وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيُصِيبُهُ الْبَلَاءُ حَتَّى يَمْشِيَ عَلَى الْأَرْضِ مَا عَلَيْهِ خَطِيئَةٌ " (1).

1- محمد البشير الإبراهيمي ، آثاره ، 147/1.

2- آل عمران : 186.

3- محمد ناصر ، رمضان حمود ، حياته وأثاره ، ص238 .

هكذا كان وصف الرسول صلى الله عليه وسلم لأولئك الأشخاص الأقوياء الإيمان الذين يستطيعون تحمل نوائب الدهر. والقوة هي السبيل إلى الوصول إلى "العظمة والاعداد التي أوحى لقائد أمريكي كبير أن يقول : " لا تسأل الله أن يخفف حملك ولكن إسأل الله أن يقوى ظهرك " (2). فالقائد هنا يدعو الفرد إذا توجه بالرجاء ، فاليلطلب ماهو أجدى وأنفع ألا وهو القوة ، التي هي من صفات العظمة . لأن " الصبر لنوائب الدهرمحمود ، ولكن الخضوع للذل والهوان دناءة وخسة " (3).

من هذا المنطق ، نستطيع القول بأن صاحب هذا النص تأثر بالثقافة الإسلامية المستمدة من القرآن الكريم ، ونخص بالذكر قوله تعالى : { وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ } (4) وكذلك قوله تعالى : { وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ مِنْكُمْ طَوْلاً أَنْ يَنْكَحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ فَمِنْ مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِّنْ فِتْيَاتِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِكُمْ بَعْضُكُم مِّنْ بَعْضٍ فَانكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وَآتُوهُنَّ أَجُورَهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ مُحْصَنَاتٍ غَيْرَ مُسَافِحَاتٍ وَلَا مُتَّخِذَاتِ أَخْدَانٍ فَإِذَا أَحْصَيْنَ فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَاحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ الْعَنَتَ مِنْكُمْ وَأَنْ تَصْبِرُوا خَيْرٌ لَّكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ } (1).

1- محمد الغزالي ، خلق المسلم ، ص131 .

2- المرجع نفسه ، ص132 .

3- محمد ناصر ، رمضان حمود ، حياته وأثاره ، ص292 .

4- النحل : 126.

ومن هاتين الآيتين المبرزتين لفائدة الصبر ، التي أوضحها سبحانه وتعالى عند الوقوع في المصائب والمكاره ، التي من المفروض علينا حتما التزام طريق من شأنه أن يوصلنا إلى السؤدد والفلاح وذلك بالتمسك بصفة الصبر ، وهو المنهاج الذي حاول جماعة الإصلاح الديني والاجتماعي والسياسي بالجزائر أن يلقنوه لشعبهم الذي وعى ذلك في ظرف زمني قصير ، وبذلك نجد الشعب الجزائري هب عن بكرة أبيه لدفع الإعتداء السافر ، من طرف المغيرين المعتدين على حقوق غيرهم بدعوى نشر الحضارة ، التي تعد عبارة عن ذر الرماد في العيون لتغطية أهدافهم الاستيطانية والاستعبادية .

وذلك ما نلمسه من هذا النص الذي وجهه الإبراهيمي إلى أولئك المعتدين قائلا إنا قد رأينا " العابثين بمقدرات الأمم كيف تكون عواقب العبث ولكن الله سلم وألهم الرشد فأريناهم كيف يكون الصبر في الشدائد وكيف يكون التنبيه للمكائد وأذقناهم مرارة الخيبة وغصص اليأس وكنا نحن الفائزين " (2) . هكذا كان الإقحام لأولئك الذين يدعون الذكاء والفتنة ، والتحضر على سواهم من السكان الأصليين ، والنص مقتبس من قوله تعالى : { وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَؤُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةِ أُولَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ ، جَنَّاتٌ عَدْنٌ يَدْخُلُونَهَا وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ ، سَلَامٌ عَلَيْهِمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ } (1) . فالآية الكريمة تحت على الصبر عند المكاره رضاء لوجهه سبحانه ، وعليهم الالتزام بفضائل الأخلاق الكريمة ، كالإنفاق في وجوه الخير ، وغيرها من الصفات الحميدة .

فإن عقبى من اتصف بالصبر ، طبقا لما ورد في هذه الآية هو جنات عدن التي أعدت للمتقين ، وهي من المفازات التي ينالها عباد الله الصالحين ، الذين يدافعون عن الحق ويطبقونه على أنفسهم قبل أن يطبقوه على غيرهم ، ليكونوا القدوة الحسنة والمنارة الراشدة إلى الهدى والصواب . وفي هذا السياق نجد رمضان حمود يتحدث في هذا الشأن ويقول إن : "مرارة الصبر ممزوجة بحلاوة الظفر " (2) .

1- النساء : 25.

2- محمد البشير الإبراهيمي ، آثاره ، 213/1 .

هكذا يكون وفاء الصابرين مصداقا لقوله تعالى : { إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا أَنَّهُمْ هُمُ الْفَائِزُونَ } (3).

وفي هذه الآية الكريمة دليل واضح ، وتأكيـد راسخ لقول محمد البشير الإبراهيمي نائب رائـد النهضة عبد الحميد بن باديس رحمهما الله ، بأنهم الفائزون ، وأعداء الوطن هم الخاسرون بدليل قوله تعالى : { وَالْعَصْرُ ، إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ ، إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَّصُوا بِالحَقِّ وَتَوَّصُوا بِالصَّبْرِ } (4). هكذا ترشدنا الآية الكريمة ، إذا كنا من الراغبين في تجنب المهالك أن نعمل العمل الصالح النافع لنا ، ونوجه بعضنا بعضا إلى مراعاة حقوقنا وحقوق غيرنا ، ونرعاها إلى يوم الدين ، معتمدين في قيامنا بهذا العمل على النصـح والنصيحة الخالية من الرياء والنفق ، و الأعمال الهدامة ، ملتزمين بالتأني ، والتدرج في أسلوب عملنا وداعين غيرنا من الأبناء والأحفاد ، إلى الاقتداء بهذا القبس الأخلاقي المنير .

1- الرعد : 22-24.

2- محمد ناصر ، رمضان حمود ، ، ص273

3- المؤمنون : 111.

4- العصر: 1-3.

وهو ما أكدته القرآن الكريم بأن الثواب الأكبر ، والجزاء الأفضل للصابرين المنصوص عليه في قوله تعالى : { مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِّ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ } ⁽¹⁾ . وهكذا يستمر القرآن العظيم في توجيهنا إلى السلوك السوي ، الذي يحقق الجزاء الأوفى لمن إتصفوا بهذه الصفة التي إرتضاها الله لعباده الصالحين . مثل ما هو منصوص في هذه الآية الكريمة.

4 - 3- الجهاد:

كلمة الجهاد تعني بذل الجهد أو " المبالغة واستفراغ الوسع في الحرب أو اللسان أو ما طاق من شيء " (1). وقد تناول القرآن الكريم وحث عليه في آيات عديدة وجعله "في الإسلام ذروة سنامه ، وسياج مبادئه ، وطريق الحفاظ على بلاد الإسلام والمسلمين" (2). لأنه يعد من أفضل مبادئ الأمة الإسلامية ، الذي يقودها إلى حياة العزة والكرامة ، وإدامة سيادتها ، ونشر دينها الإسلامي ، ذلك الدين القيم. " لهذا كان فريضة محكمة ، وأمرًا ماضيًا إلى يوم القيامة ، وما ترك قوم الجهاد إلا ذلوا ، وغزوا في عقر دارهم وخذلهم الله ، وسلط عليهم شر الناس وأراذلهم" (3).

وفي هذا يقول الله تعالى في محكم تنزيله: { وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ } (4) وقال أيضا : { إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةُ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعَدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ } (1).

1- ابن منظور ، اللسان العرب ، 135/1 .

2- وهبة الزحيلي ، الفقه الإسلامي ، مطبعة ابن حيان بدمشق ، ط : 3 ، 1980 ، ص304 .

3- المرجع نفسه ، ص304.

4- الحج : 78.

وقد جاء في السنة النبوية الشريفة أحاديث كثيرة تكشف لنا فضل الجهاد ، إذ نجد أنها جعلته في المرتبة الثانية بعد الايمان بالله وبالرسول صلى الله عليه وآله وسلم ، عندما سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم : أي الأعمال أفضل ؟ قال : " إِيْمَانُ بِاللّٰهِ وَرَسُوْلِهِ قِيْلَ ثُمَّ مَاذَا ؟ قَالَ : الْجِهَادُ فِي سَبِيْلِ اللّٰهِ ، قِيْلَ ثُمَّ مَاذَا ؟ قَالَ : حَجٌّ مَبْرُورٌ " (2). وقال الرسول صلى الله عليه وسلم أيضا في حديث آخر : " لَعْدُوَّةُ أَوْ رَوْحَةٍ فِي سَبِيْلِ اللّٰهِ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا " (3).

وإذا ما دققنا النظر في هذه الأحاديث النبوية الشريفة وحاولنا التقرب منها ، وتحليلها نلاحظ أن محمد السعيد الزاهري كان متأثرا بها وبالآيات السالفة الذكر ، ويتضح لنا ذلك من النص التالي : " هل أدلكم على النجاة مما نحن فيه ؟ : تؤمنون بالله ورسوله وتجاهدون في سبيل الله بأموالكم وأنفسكم ، وتتخذون لكم معهدا إسلاميا تتعلمون فيه الإسلام وتدرسون فيه كتاب الله ، وسيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم . فإن فعلتم فعسى أن تكونوا من المهتدين ، وإن لم تفعلوا فلن تفلحوا إذن أبدا " (4).

1- التوبة : 111.

2- عز الدين بليق ، منهاج الصالحين ، ص700 .

3- مسلم ، صحيحه: 13، 14 / 26 .

4- محمد السعيد الزاهري ، الاسلام في حاجة إلى دعاية وتبشير ، ص67 .

فالكاتب في هذا النص يتوجه بسؤال صريح إلى الأمة الإسلامية قاطبة ، وإلى الشعب الجزائري خاصة ، الذي حاول المستعمر الفرنسي أن يزيل اسمه وأن يطمس شخصيته الجزائرية الإسلامية وأن يجعله بلا هوية تاريخية تذكر ، لكي يسهل عليه التكرار لأصله وذلك بإحلال ثقافته ولغته محل اللغة الوطنية الأم ، وبذلك يستطيع بكل سهولة ويسر أن يسخره كيفما يشاء ، ويستغله استغلا لا فضيحا ، وهو ما كان واقعا فعلا آنذاك .

لذلك كان الطرح بهذا الشكل الذي يبرز لهم فضيحة المستعمر ، وفي نفس الوقت يحاول الكاتب إيقاظهم من ذلك السبات العميق ، ليوصلهم إلى أفضل السبل مسلكا ، وأيسر الطرق نجاحا ، مجيبا على تلك الإشكالية العالقة أمام هذه الأمة الجزائرية المسلوبة الحق المغلوبة على أمرها ، المنهوكة القوى قائلًا لهم : إن خلاصكم مما أنتم فيه ، لا يتأتى إلا بالإيمان الحقيقي الخالص لله وحده ، وبرسالة خاتم أنبيائه محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم ورفع راية الجهاد عالية في سبيل نصرته الشرف والكرامة ، وإحقاق الحق ، بكل ما هو في متناول الإنسان من المال وجهد وغيره ، مما يساعده على التحرر ، والحفاظ على كرامته .

ولم يقتصر الجهاد عند الكاتب في جعل النفس رخيصة في سبيل الله ، والدعم بالأموال ، والأفانفس ، بل يتعداها إلى فعل الخير ، وإنشاء مؤسسة قائمة بذاتها ، تخصص لتعليم رجال المستقبل الإسلام ، ومدارسة كتاب الله دراسة وافية ، تبين للدارس ما عليه من حقوق وواجبات نحوه ، ونحو أبناء ملته ووطنه ، وكذلك دراسة السيرة النبوية الشريفة المخصصة لتوجيه العباد إلى السلوك السوي ، سواء ما تعلق بالحياة الدنيا أو الآخرة .

فإن من وعى وأدرك هذا التوجيه الحي السليم ، واتعظ بهذه الموعظة الحسنة وعمل بها إلى يوم الدين هذا ، فإنه لا محالة يكون من المرشدين إلى طريق النجاح والفلاح ذلك هو الصواب والفتنة التي ألهم الله بها العديد من المصلحين الجزائريين ، من أمثال صاحب النص السالف الذكر ، الذي تشبع من قبس الذكر الحكيم الوارد قوله تعالى : { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا هَلْ أَدْلَكُم عَلَى تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ، تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ، يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتٍ عَدْنٍ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ، وَآخَرَى تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ } (1).

بهذا النداء الإلهي الموجه للمؤمنين الذين صدقوا الله ورسوله ، وآمنوا بالله حق إيمانه بطرح الأسئلة عليهم كالتالي : هل أدلكم على تجارة رابحة ؟ تخلصكم من عذاب شديد مؤلم هو القيام بالجهاد ضد أعداء الدين بالمال والنفس لرد الإعتداء ، ونصرة الحق ، وبذلك يستحق القائم بهذا العمل الجليل من ربه جزيل ثوابه (2). وهذا ما كان يقصده ، ويهدف إليه محمد البشير الإبراهيمي أن : " الجهاد أيها المسلمون - لفظ قليل - تحته معنى جليل ، هو صرف القوى الروحية والعقلية والفكرية ، تظاهرها القوى المادية ، إلى تحقيق غرض مما ينفع الناس ويتفاوت شرف الجهاد بتفاوت ذلك الغرض في النفع فإذا لم يكن الجهاد غاية ، ولم يكن فيه نفع كان جهدا ضائعا وسعيا عقيما ، أما إذا كان وصفا تطلقه الألسنة كما هو واقع في الشأن زماننا هذا ، فهو نفاق يصطنعه الطامعون ، وتزوير يتعلل به الفارغون " (1).

1- الصف : 9- 13.

2- محمد علي الصابوني ، صفوة التفسير ، 374/3.

فالكاتب يوضح للمسلمين في قوله هذا ، معنى كلمة الجهاد ومدى سموها ، إذا ما وجهت كل الدعائم الأساسية ، التي تتخللها القوى المادية ، إلى ما يفيد الإنسان . ويضيف الكاتب بأن قدر الجهاد وشرفه يختلف نسبيا حسب الهدف المنشود ، فإن كان من أجل التقرب إلى الله فجزاؤه نعيم الجنة ، وإن كان من أجل المادة فإنه يكون عنده جهد لا يعود عليه بالنفع ، ويذهب سدى ، وأما إذا كان من أجل التظاهر والتفاخر أمام الناس ، فإنه يعتبر بالنسبة لمن قام بذلك زورا وبهتانا ونفاقا ، وبالتالي يصبح ضرره أكثر من نفعه .

ويمضي محمد البشير الإبراهيمي في توضيح معنى الجهاد الحق قائلا :
" أما الجهاد الذي غايته تثبيت الحقائق الإلهية في الأرض، وغرس البذور الروحية في الوجود فلغته سماوية لا تحمل معاني التراب ، متسامية لا تسف إلى ما تحت السحاب ، وأما المجاهدون في سبيل الله ، فلا يعدون الربح والخسارة في آرائهم ، ولا يدخلون الوقت – طال أم قصر – في حسابهم "

(2)

هكذا كان الكاتب يحاول إشعار الشعب الجزائري بمرتبة هذه الكلمة وقيمتها لإرساء الأسس السليمة القيمة ، والقواعد الراسخة التي سنها الله لخلقه في الأرض ، ليقوموا بالدفاع عن أنفسهم ، راضين بما منحهم الله من الربح أو الخسارة ، ومقبلون على ما أمروا به من الجهاد في سبيل الله ، دون الإدبار ، حتى النصر أو الاستشهاد مصداقا لقوله تعالى :
{ وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ، فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ، يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ } (1)

1- محمد البشير الإبراهيمي ، آثاره ، 216/4 .

2- المرجع نفسه ، 276/4 .

هكذا يخبرنا القرآن بكل وضوح أن المجاهد في سبيل الله سيحصل لا محالة على إحدى الحسنيتين : إما نعمة الإستشهاد في سبيل الله أو الإنتصار على الأعداء . وفي هذه الآيات الواضحات تصريح وتوضيح إلى أولئك الذين يعتقدون أن المجاهدين في سبيل الله إذا ماتوا وتخلصوا منهم سيصبحون مندثرين ، خاسرين لحياتهم الدنيا . ولكن القرآن الكريم يُقحم هؤلاء الذين يدعون ذلك التأويل الخاطئ . قائلًا لهم لا تعتقدوا بأن أولئك المجاهدين الذين استشهدوا في سبيل الله أمواتا بل بالعكس مما تدعون ، فإن ذهبت أجسادهم فأرواحهم بقيت ترفرف في السماء ، فرحة مستبشرة بما خصهم به الله من نعمته .

وقد حاول الإبراهيمي أن يوجه الجزائريين إلى سبل الجهاد وأسسهِ القاعدية التي يجب مباشرة العمل بها إنطلاقاً من الجهاد الجزئي إلى الجهاد الكلي ، الذي يأتي عن طريقه التحرر والاستقلال المنشود ، الذي يسود فيه نشر الفضائل ، والعدل والمساواة بين أفراد المجتمع حيث يقول : " فأعلى مراتب الجهاد وأصله الذي تتفرع منه فروع الجهاد في النفس حتى تستقيم على صراط الحق والفضيلة وتستعد لما بعد ذلك من أنواع الجهاد الخارجي عن النفس " ⁽¹⁾ . بهذا التوجيه السليم ، والأسلوب الرفيع المذهب الملفت النظر إلى قيم الجهاد ومراتبه السامية ، وكيفية التدرج الذي يجب على الفرد انتهاجه ، لكي يمكنه من الوصول إلى أعلى مراتب الجهاد المنشودة .

1- آل عمران : 169-171.

ويستمر الإبراهيمي في استعراض موضوع الجهاد معتمدا في ذلك على الدستور الإلهي ومستوحيا أفكاره منه إذ نجده يقول : " تكررت في النصوص القرآنية كلمة (الجهاد بالنفس) في معرض الأوامر التكليفية ، والأوامر الدينية بمعانيها الكاملة إنما نتوجه إلى أصحاب النفوس الكاملة التي اطمأنت للإيمان بالله ، والإيقان بالحق الذي يدعو إليه والرضا بأحكامه الدينية والقدرية ، وجعل الحياة المحدودة مطية للحياة الخالدة . وما وصل إليها أصحاب هذه النفوس إلى هذه الدرجة من الكمال إلا بعد جهاد في النفوس ، هيأها للجهاد بالنفس ثم دفعها إليه " (2) . فالإبراهيمي في هذا النص يهدف إلى ما يهدف إليه القرآن الكريم من أن موضوع الجهاد يندرج ضمن الأحكام التكليفية والدينية ، وهو موجه إلى الأفراد الذين يتصفون برجاحة العقل ، ورحابة الصدر ، وبعد النظر ، والإعتقاد السليم ، والسير قدما نحو الهدف الأفضل ، الذي يؤدي به في الأخير إلى محطة الحياة السعيدة الآمنة .

أما عن تكرار كلمة الجهاد بالنفس ، فهي مستوحات لدى الكاتب من النصوص القرآنية العديدة من ضمنها قوله تعالى : { إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ } (1) . وجاء أيضا في هذا الصدد قوله تعالى : { لَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ } (2) .

1- محمد البشير الإبراهيمي ، آثاره ، 217/4 .

2- المرجع نفسه ، 217-216/4 .

فالآية الأولى تبين لنا المجاهدين الصادقين ، الذين يترفعون عن الدنيا المادية ، ويميلون كل الميل إلى الدفاع والاستماتة من أجل رفع الظلم وإقامة العدل في الأرض ، واستتباب الأمن وإحلال السكينة ، وهو ما يدفع المؤمنون حسب الآية الثانية إلى عدم الإستئذان وطلب الترخيص لهم برفع السلاح ورد المعتدين عنهم ، من طرف سيد المرسلين محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وبهذا التوجيه الإلهي الوارد عن طريق القرآن المنير لسبيل الهدى ، حاول الإبراهيمي شرح وتوضيح للشعب الجزائري الذي يرزخ تحت أغلال الاستعمار في هذا الموضوع قائلا : " هو ما جاء به الإسلام وسماه جهادا وهو قتال المعارضين لدعوته ، الواقفين في سبيلها ، بعد تبليغهم الدعوة ، وتمكينهم من النظر فيها بالعقل والروية وأنظارهم إلى المدة الكافية لذلك فإن لم يقبلوها بعد ذلك ولم يقفوا في طريقها تركوا وشأنهم ، ولا إكراه في دين الإسلام بالنص القرآني القاطع " (3).

ففي هذا النص الذي يدعو فيه صاحبه الجزائريين إلى التعبئة التامة لرفع الظلم والأعتداء عن أنفسهم عملا بقوله تعالى : { وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ } (1).

1- الحجرات : 15.

2- التوبة : 44 ، ينظر سورة النساء : 94. وغيرها .

3- محمد البشير الإبراهيمي ، أثاره ، 364/4 .

هذه دعوة من الله إلى الخلق كافة للدفاع عن أنفسهم ورفع الظلم عنهم في حدود ما سطر لذلك ، دون مغالات أو تجاوز للحدود المعمول بها. لقد انطلقت صيحات داعية لشحذ الهمم ، ودفع الظلم ، والعمل على إجلاء الاستعمار من البلاد وهو ما يصرح به مصلح آخر من جماعة الإصلاح بالجزائر المتشبعين بالقرآن الكريم وهو العربي التبسي موجهًا خطابه إلى الأهالي قائلاً : " ونحن نتجاهل كل حل لا يفي بالرغبة كاملة ونواصل كفاحنا ما دمنا ، وما دامت هذه الحكومة مصرة على باطلها، تنتحل له كل يوم أسباب البقاء ، وتلتمس وجوه الحيل وتستجد هذا الفريق منا ليكون عوناً لها علينا" (2).

فصاحب النص يرفض الحلول الجزئية ، ويدعو إلى مواصلة الجهاد ، لإزالة الظلم وإبطال الباطل ودفع الغبن والاستعباد ، هذا ما لم يذعن المستعمر إلى المطالب الشعبية ، المتمثل في مطالبة الاستعمار المغادرة من وطنه ، وتسليم مقاليد الحكم إلى أهله الأصليين .

فالكاتب هنا نلاحظ عليه سمة التأثير بالقرآن الكريم وخاصة قوله تعالى: { أَذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتِلُونَ بَأَنَّهُمْ ظَلَمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ، الَّذِينَ أَخْرَجُوا مِن دِيَارِهِمْ بَغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْ لَّا دَفَعُ اللَّهُ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدَمَتِ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذَكَّرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ } (1).

1- البقرة : 190

2- العربي التبسي ، مقالات في الدعوة إلى النهضة ، جمع ودراسة : شرفي أحمد الرفاعي ، 178/1.

إن ما ورد هنا يدعو إلى إباحة الجهاد ضد الطغاة المعتدين ، وإن كل من قاموا بالكفاح ضد الظلم تكون نتيجة قيامهم بهذا العمل هو الغلبة والنصر المبين ، لأنهم من الذين أبعثوا من ديارهم بغير حق، وحرموا من أراضيهم وممتلكاتهم . لذلك لا يمكن التقاعس عن الجهاد؛ لأن التخلي عن ذلك ، يؤدي حتما إلى حدوث الفوضى العارمة التي سينجر عنها إختلال النظام الذى ينجر عنه هدم الصوامع ، والمساجد وبيع ، وهتك الأعراس ، وكل القيم ، وغيرها من الأماكن المقدسة ، إلا أن إرادة الله تقف حائلا ضد هؤلاء الطغاة المعتدين فلا تمكنهم من مبتغاهم لأنه هو القوي العظيم ، ناصر الحق ، وإنه على نصرهم لقدير ؛ لأن الحرب في الحقيقة ليست في صالح البشر .

ويحاول الإبراهيمي أن يوضح لأمته رأي الإسلام في هذا الشأن ، لأنه يدرك نتائج الحرب قبل إحلالها ، وأنها لا تبقى ولا تذر إلا الدمار والتعاسة والشقى واليتم ، وكل السلبات غير المرغوب فيها فيقول : " إن رأي الإسلام في الحرب أنها مفسدة لا ترتكب إلا لدفع مفسدة أعظم منها ، وأعظم مفسدة هي الوثنية التي تعطل العقول وجميع المواهب التابعة لها المنصرفة بآطرها ، وإذا تعطل العقل تعطلت ثمراته وفوائده ، وأصبح الناس في حكم المجانين ، وتسلمت عليهم الأوهام وأصبح نظرهم إلى الحقائق زائغا منحرفا ، وحسبهم نتيجة لذلك أنهم يؤهلون أشياء كلها أخط من الإنسان ، ومنها ما هو من صنعه " (1). وكأنه استسقى الكاتب هذه الدعوة أو ذاك التوجه من قوله تعالى : { كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهُ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ } (2).

" إن القتال في سبيل الله فريضة شاقة . ولكن فريضة واجبة الأداء ... لأن فيها خيرا كثيرا للفرد المسلم ، وللجماعة المسلمة ، ولل البشرية كلها. وللحق والخير والصلاح "(3). والآية الكريمة تخبر المسلمين بما أمرهم الله ألا وهو الجهاد ، الذي يبدو صعب المراس نظرا لما يتطلبه من قوة الدفاع ، ولما يتعرض له صاحبه من المخاطر والمجازفات بالأرواح ، ومع ذلك ففي حالة الضرورة لا مفر منه ، لأنه الوسيلة الوحيدة التي يستطيع الإنسان دفع الاعتداء بها على نفسه ، وعلى قومه لرد الاعتبار وإثبات الشخصية ، والكرامة الإنسانية .

وإن كل ما فرضه الله على عبده فيه سعادة تغمره ، بعد تطبيقه لتلك الدعوة التي وجه إليها ، ومثال ذلك ، ما أشار إليه الإبراهيمي في نصه السابق ، فأعظم مفسدة الوثنية التي هي الرجوع إلى الجاهلية الأولى ، والتي حاربها الإسلام ، لما فيها من تجميد الفكر وتعطيل المواهب ، التي تؤدي إلى فسخ المجال للعقم الكلي للأمة في جميع مناحي الحياة وعندها تكون في موضع القطيع دون راع ، وهو مايسهل على العدو قيادتها ونشر مذهبه ، ودمجها في الوسط الذي يحلو له بكل سهولة ويسر ، ومع ذلك فهؤلاء المعتدين الذين يعملون كل ما في وسعهم لزرع أشواكهم في أوساط المجتمع ، أظلمهم الشيطان وأعمى أبصارهم عن رؤية الحق المبين ، وأصم آذانهم لسماع الدعوة إلى الصراط المستقيم ، وغفلوا عن نداء الحق الذي جاء في قوله تعالى : { وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ } (1).

1- محمد البشير الإبراهيمي ، آثاره ، 364/4.

2- البقرة : 216.

3- سيد قطب ، في ظلال القرآن ، دار الشروق القاهرة ، ط : 35 ، 2005 ، 223/1.

هذا وعد من الذي لا يخلف وعده الحق ، وأنه يمحق أهل الشرك ، ويدعم الذين يدافعون من أجل العدل والمساواة ، والأخوة الإنسانية في الله ، وسيورثهم أرضه ، لأنهم من عباده الصالحين الممتثلين لأمره ، ولا يشركون به شيئاً لأنه رب التقوى ورب المغفرة . ومن عصى أوامره ونواهيه ، فقد ظل ظلاً لا بعيداً ، وسيشقى طول حياته لأن اللعنة نزلت به وأضحى من الذين طردوا من رحمة الله ، وحق فيهم الجهاد في سبيل الله حتى الإبادة النهائية وهو حكم الله فيهم ، لطغيانهم وجبروتهم السافر على مخلوقات الله من جنسهم .

ونخلص إلى أن كلمة الجهاد شرعت من أجل الذود عن حياض المستضعفين المعتدى عليهم من قبل الأعداء المستدمرين لكل ما هو على وجه الأرض . سواء ما تعلق بالحقوق الإنسانية ، أو الحريات الفردية أو الجماعية ، والجهاد شرع لإزهاق الباطل ونبذه ، وبث السلم والسلام ، ونشر الرحمة والحب بين بني البشر، و إسعادهم بالعدل والمساواة .

ومن هذا المنطلق ، نجد أن الإبراهيمي وغيره من المصلحين الجزائريين قد قاموا بالدور الفعال في توصيل مفهوم كلمة الجهاد إلى الأوساط الشعبية الجزائرية ، وتوعيتهم به وكان لدورهم الأثر الكبير في حمل المجتمع على مقاومة العدو الجاثم على بلادهم ، مدة قرن وثلثين سنة من الزمن ، فتكلل بعدها جهادهم بالنصر المبين والحرية والإستقلال .

4-4- العبادات :

ومعنى العبادة في اللغة " الطاعة مع الخضوع " ⁽¹⁾ لما أمر الله به ، ونهى عنه للخضوع لأمره والقيام بعبادته أحسن قيام مصداقا لقوله تعالى : { وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ . مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعِمُونِ . إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ } ⁽²⁾ . ومعنى ذلك ، أن هناك " الوظيفة المعينة التي تربط الجن والإنس بناموس الوجود هي العبادة لله ، أو هي العبودية لله وأن يكون هناك عبد ورب ، عبد يُعبد ، ورب يُعبد . وأن تقسيم حياة العبد جلها على أساس هذا الاعتبار " ⁽³⁾ .

لذلك فهي ليست منحصرة عند موضوع الصلاة والصيام ، بل هي تشمل كل جوانب الحياة ، فالصلاة عبادة ، والصدقة عبادة ، وعمل الخير عبادة ، والإصلاح بين الناس عبادة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر عبادة ، بل إن من سعى للعمل ليكف نفسه عن سؤال الناس ويعفها ، إعتبر رسول الله صلى الله عليه وسلم سعيه هذا جهاد في سبيل الله " ⁽¹⁾ .

1- ابن منظور، لسان العرب ، م : 3 ، ص 273 .

2- الذاريات : 56 - 58 .

3- سيد قطب ، في ظلال القرآن ، م : 6 ، ج : 26-30 ، ص 3387 .

وعندما سأل الرسول صلى الله عليه وسلم عن إنسان يعمل بجد ونشاط مامكانة هذا الشخص عند الله ؟ فقال عليه الصلاة والسلام : { إِنْ كَانَ خَرَجَ يَسْعَى عَلَى وَلَدِهِ فَهُوَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، وَإِنْ كَانَ خَرَجَ يَسْعَى عَلَى أَبَوَيْنِ شَيْخَيْنِ كَبِيرَيْنِ فَهُوَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، وَإِنْ كَانَ خَرَجَ يَسْعَى عَلَى نَفْسِهِ يَعْفُهَا فَهُوَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ } (2).

وتوضيحا لهذا الموضوع يجب عرض بعض النصوص النثرية لرجال الإصلاح الجزائريين الذين خاضوا غمار الجهاد بالكلمة ، ونخص بالذكر منهم على سبيل المثال لا على سبيل الحصر ، محمد البشير الإبراهيمي الذي يقول : " كان الصحابة لاستعدادهم القوي لتحمل رسالة الإسلام بقوة يحرصون على أخذ همات العبادات من فعله صلى الله عليه وسلم ، كما يحرصون على التمثيل بأخلاقه والتقليد له في معاملته لله ومعاملته لخلقه ، وعلى التأسى به في الأفعال والترك في شؤون الدين لعلمهم أن الفعل هو المقصد والثمرة ، وأن الأقوال في معظم أحوالها ، إنما هي أدوات شرح ، وقوالب تبليغ وآلات أمر ونهي ، ووسائل ترغيب وترهيب وأن في قول قائلهم : " أنا أشبهكم صلاة برسول الله " ، لدليل على تغلغل هذه النظرة في مستقر اليقين من بصائرهم ، وأنهم كانوا يتشددون في أخذ الصور العملية

1- عز الدين بليق ، منهاج الصالحين ، ص 125.

2- المرجع نفسه ، ص 125.

من أفعاله صلى الله عليه وسلم كما هي ، ويتخرجون من التقصير فيها "(1). بهذا السلوك السوي ، الذي كان الصحابة عليهم رضوان الله وسلامه ، يتبعون سبيله صلى الله عليه وسلم لأخذ كل الكيفيات التطبيقية اللازمة في عبادتهم لربهم دون الاكتفاء بالنظري لأنها مصدر توضيح للفعل الممارس فعلا أمام الأنظار . وهناك فرق شاسع بين عبادة الصحابة ومن جاء بعدهم من المسلمين الذين آمنوا بربهم ، وذلك لبعد المسافة بينهم وبين الرسول صلى الله عليه وسلم وهو ما يؤكد الإبراهيمي في حديثه : " وقد كانوا يفهمون العبادة بهذا المعنى : أن تعبد الله كما شرع على الوجه الذي شرع فالكيفيات داخله في معنى التعبد ، لذلك لم يحدث السلف زوائد في العبادات من أذكار وغيرها بدعوى أنها زيادة في الخير كما عمل الخلف وكانوا يفهمون يسر الدين بمعناه السامي ، وهو لا إرهاق فيه ولا إعنات ، وإنه ليس في المقادر الزائدة عن إقامة التكاليف أو في المعاذير الصحيحة العارضة للتكاليف لا كما نفهمه نحن تساهلا وتطفيفا" (2).

هكذا كان السلف الصالح من الصحابة رضوان الله عليهم يؤدون عبادتهم التي كانت قد وصلت إليهم من منابعها الأصلية ، وهو القرآن و السنة التي كان مصدرها أقوال النبي صلى الله عليه وسلم وأفعاله . وقد وجه الإبراهيمي في هذا الشأن دعوة إلى أبناء الأمة الجزائرية يحثهم فيها على

1- محمد البشير الإبراهيمي ، آثاره ، 4/ 146.

2- محمد البشير الإبراهيمي ، آثاره ، 4 / 146-147 .

التمسك بعبادة الله وحده ، وتنفيذ ما فرضه عليهم دون التهاون فيه وذلك في قوله : " حثوا إخوانكم على إقامة الفرائض الدينية والاجتماعية التي أضعوها كالزكاة والتأمر بالمعروف والتناهي عن المنكر والتواصي بالحق والصبر والرحمة والتعاون على البر والتقوى والتآلف والتحابب مستنديين في ذلك كله على كتاب الله وحديث نبيه مستدلين بنصوصها على النهج السلفي " (1).

وبهذه الدعوة الإصلاحية الموجهة للمجتمع الجزائري ، فيما يخص التوجيه الديني لعبادة الله المفروضة على المسلمين بدليل قوله تعالى : { مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءُ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقِيمُ وَلَكِنْ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ } (2).

ففي هذا تصريح مؤكد بأن الأمر والحكم لله تعالى ، الذي استوجب على العباد الخضوع لإرادته التي إرتضاها لهم ديناً صالحاً . إلا أن ما يلفت الانتباه ويدعو إلى الحيرة والقلق ، هو جهل السواد الأعظم من الناس لهذه الفائدة العظيمة ، مع العلم أن من قام بأداء شعائره الدينية كاملة نزولاً عند أمر ربه يجزيه عنه خير الجزاء ، حيث يكون الاستناد في تنفيذ ذلك معتمداً على الأمر اليقين ، في التبليغ ، فإذا ما وجد خلافاً في ذلك يجب الرجوع إلى المصادر الأساسية للعبادة ، والتي يدعو إليها الإبراهيمي في قوله : " وكان أليمٌ { (1).

العلماء يردون كل ما اختلفوا فيه من كل شيء ، إلى كتاب الله وسنة رسول الله ، لا إلى قول فلان ورأي فلان ، فإذا هم متفقون على الحق الذي لا يتعدد . ولقد أنكر الإمام مالك على ابن المهدي – وهو قرينه في العلم والإمامة – عزمه على الإحرام من المسجد النبوي فقال ابن المهدي : إنما هي بضعة أميال أزيدها ، فقال مالك : أو ما قرأت قوله تعالى : { لَّا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنْكُمْ لِوَاذًا فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ

1- المرجع السابق ، 3/180-181.

2- يوسف : 40.

وأية فتنة أعظم من أن تسول لك نفسك أنك جئت بأكمل مما جاء به رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ ... ثم تلا قوله تعالى : { حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ الْمَيْتَةُ وَالْدَّمُ وَلَحْمُ الْخَنَازِيرِ وَمَا أَهَلَ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبْعُ إِلَّا مَا ذُكِّيتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النَّصَبِ وَأَنْ تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَامِ ذَلِكَ فِسْقُ الْيَوْمِ الَّذِي كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنَ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ } (2).

وقال كلمته الجامعة التي كان عليها لألاء الوحي وهي قوله : " فما لم يكن يومئذ دينا فليس اليوم بدين " (3).

فالإبراهيمي في نصه هذا يذكر أن المعارضة فيما يخص العبادات بالزيادة أو النقصان من قبل رجال العلم مثل الذي صدر عن الإمام مالك رضي الله عنه لجديرة على المحافظة على العبادات التي شرعها الله على عباده، ودوام صلاحيتها ونظافتها من كل شائبة تلحق بها.

1- النور: 63.

2- المائدة : 3.

3- محمد البشير الإبراهيمي ، آثاره ، 149/4.

فالعبادات شرعها الله لتوضيح العقائد الإيمانية ، وتخصيص المساجد بيوتا لإقامة الشعائر الدينية ، ومظهرا من مظاهر إجتماع المسلمين بها لإقامة الصلاة وغيرها من المهام التي تفيد الإسلام والمسلمين ، وهو ما يبرزه الإبراهيمي في قوله : " إن الإسلام إنما شرع العبادات لتكون شواهد وبيئات على العقائد الإيمانية ، ثم جعل المسجد بيته ليكون مظهرا لتلك الشهادة ، فكل ما يقع فيه من صلاة واجتماع لها ومجالس مدارس ، وخطب فهو إعلان لتلك الشهادة فيجب أن تتظاهر هذه الأشياء كلها على الحق وأن يكون على أساس الحق حتى تكون شهادتها حقا على عقائد الحق " (1) .

هذه لفظة إلى علو نجم العبادة ، لأنها حق فرضت من الخالق على خلقه لما فيها من فوائد جمة تعود على من يلتزم بأدائها بنشاط وحيوية ، وشعور بالسعادة ، والراحة النفسية نتيجة لما قام به من الواجب لإرضاء خالقه ، الذي يجعله محررا من قيود التبعية لغير الله واللاحقة لمن يقوم بتأديتها كما أمر الله .

وقد جعل القرآن الكريم نظاما خاصا ، وأوقاتا معلومة للعبادات ، ويبرز الإبراهيمي ذلك بقوله : " الأوقات الفاضلة وأفضلها شهر رمضان ؛ لتلاقي عدة عبادات فيه ، من الصوم والصدقة والتراويح والتهجد ، وكل عبادة منها ذات أثر في النفس " (2) .

1- المرجع السابق ، 203/2 .

2- المرجع نفسه ، 314/2 .

ولأهمية هذا الشهر العظيم الذي أنزل الله فيه القرآن الكريم على رسوله صلى الله عليه وسلم ليخرجهم من الظلمات إلى النور هداية منه سبحانه وتعالى ورحمة لخلقه ، كما جاء في قوله تعالى : { شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ فَمَن شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُم وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ } (1). ومعنى الآية الكريمة ، أن شهر رمضان هو منبع الرحمة والغفران والتوبة النصوحة المباركة ، وهو الحد الفاصل بين عبادة الأوثان ، وعبادة الرحمن ، وفيه نزل الحق وزهق الباطل ، إن الباطل كان زهوقا بنزول القرآن الكريم الذي سمي بالفرقان الذي فرق بين ديانة الشرك ، وديانة الإسلام .

ويصور الإبراهيمي عبادة الصيام في هذا الشهر بأنها تختلف عن سواها من العبادات لبعدها عن المغريات التي تتوجه إليها النفوس والأنظار ، موضحا ذلك بقوله : " وهذا صوم رمضان ... عبادة دينية محضة ، وهي أبعد العبادات عن الماديات التي تغري بتدخل الطامعين في شؤونه ، فهو أشبه بالفقير الذي ليس معه من المال ما يغري اللصوص بالاعتداء عليه ، إذ ليس له من الأوقاف ما يقيمه كالصلاة والمساجد ، ولا يفتقر في إقامته وأدائه إلى سفينة أو طائرة تنقل إليه ، ولا إلى رخصة انتقال تشير غريزة التحكم " (2).

1- البقرة : 185.

2 - محمد البشير الإبراهيمي ، عيون البصائر ، 174/2.

إذن فعبادة الصيام تكون بين العبد وربّه ، لذلك فهي عبادة روحانية لا تحتاج إلى مساعدة أو وساطة للقيام بها .

ولذلك نجد أن العبادات في الدين الإسلامي الحنيف تختلف في الإتجاهات والمقاصد ويمكن الإطلاع عليها عن طريق النصوص ، أو بمجرد استعمال النظر العقلي ، ومنها ما يتطلب التأمل والاستنباط ، وهو ما أشار إليه الإبراهيمي في حديثه : " لكل عبادة في الإسلام حكمة أو حكم ، يظهر بعضها بالنص عليه أو بأدنى عمل عقلي ، ويخفى بعضها إلا على المتأملين المتعمقين في التفكير والتدبر ، والموفقين في الاستجلاء والاستنباط " (1) . بهذا الأسلوب المتبع تنكشف فوائد العبادات ودرجاتها من ناحية القوة والضعف .

ثم يضيف الإبراهيمي في كلامه عن العبادات بأن الهدف الأسمى والجوهري يتجه نحو تطهير النفس البشرية من الدنس العالق بها قائلاً : إن " الحكمة الجامعة في العبادات كلها هي تزكية النفس وتطهيرها من النقائص الروحية ، وتصفيتها من الكدرات ، وإعدادها للكمال الإنساني ، وتقريبها للملأ الأعلى وتلطيف كثافتها الحيوانية ، وينفرد الصوم من بين العبادات بأنه قمع للغرائز عن الاسترسال في الشهوات التي هي أصل البلاء عن الروح والبدن وفطم أمهات الجوارح عن أمهات الملذات ، ولا مؤدب للإنسان كالكبح لضرواة الغرائز والحد من سلطان الشهوات عليه " (2) . بهذا الشرح الوافي لفائدة عبادة صيام رمضان المعظم التي يقوم بتأديتها الإنسان المؤمن ليتقرب من خلالها إلى الله سبحانه وتعالى .

1 - المرجع السابق ، ص574.

2- المرجع نفسه ، ص574 .

نلاحظ في حديث الإبراهيمي هذا ، أنه جعل من عبادة الصوم الوسيلة الأولى لوضع حد فاصل للسيطرة على الغرائز الانسانية وعدم السماح لها في التماذي ، على ما يجلب على فاعلها غضب الإله ، الذي ينتج عنه اللعنة الأبدية. ولذلك يفترض غلق جميع السبل التي تغري الإنسان بعبادة الصيام التي تقوم سلوكه ، وتعوده على الصبر الذي يمدّه بقوة الإيمان الحقيقي والتي تنشئه تنشئة حسنة ، وتربيته تربية سليمة ، فيستطيع حينها تحمل نوائب الدهر التي تتعرض له أثناء ممارسته للحياة اليومية .

وبذلك يستطيع كبح جماح النفس ، واضعاً نصب عينيه نورا من قبس الذكر الحكيم الذي يقوده إلى الهداية الربانية التي جاء فيها قوله تعالى : { لَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا

أَنْ عِبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ } (1).

فمعنى الآية الكريمة التي يخبر الله فيها بإرسال الرسول لكل أمة لتبليغ الرسالة لعباده المؤمنين داعياً فيها بأن الخضوع والطاعة لا يكون إلا لله وحده ، رب العرش العظيم ، وأن يتجنبوا العصيان والمروق عن هدى الرحمن.

ومن أجل الحفاظ على الكيان البشري ، نلاحظ أنه يفترض على الإنسان التمسك بالنظام الإلهي الذي لم يترك شاردة ولا واردة إلا ووضع لها قانوناً يدعو فيه للتي هي أقوم

ولذلك فمنهم من استجاب فهداه الله ومنهم من كفر فأضلّه الله⁽¹⁾. وإضافة إلى كل ما سبق ذكره ، نرى أنه من الصعب تحديد المفهوم الإسلامي للعبادة وحصرها في خصوصية متفردة ومستقلة بذاتها ، لأن كل عبادة يقوم بها الإنسان لا بد وأن يتوجه فيها بنية خالصة إلى الله تعالى . وإذا ما حاولنا البحث عن القواعد الأساسية للعبادات نجد أنها منحصرة فيما جاء في الحديث النبوي الشريف ، الذي قال فيه صلى الله عليه وسلم : { إِنَّ الْإِسْلَامَ بُنِيَ عَلَى خَمْسٍ : شَهَادَةِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ . وَإِقَامِ الصَّلَاةِ ، وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ ، وَصِيَامِ رَمَضَانَ وَحَجِّ الْبَيْتِ }⁽²⁾ . تلك هي المنطلقات الرسمية للعبادات المفروضة ، التي لا يمكن أن تنفصل عن بعضها ، وعلى المسلم أن يقوم بها جميعا ، ليتم دينه ، الذي ارتضاه الله له .

4-5- الشورى :

لقد ورد في تعريف الشورى أو المشورة بضم الشين مفعولة لأنها مصدر ، وشاوره ومشاورة وشوارا ، وكذلك القول في " استشاره : طلب منه المشورة⁽³⁾ . وأشار الرجل يشير إشارة إذا أومأ بيديه أو ما أشار عليه بالرأي. وأشار يشير إذا ما وجه الرأي " ⁽⁴⁾ .

1- أنظر محمد علي الصابوني ، صفوة التفاسير ، 126/2.

2-- مسلم ، صحيحه ، شرح النووي ، 177/1 .

3- ابن منظور، لسان العرب ، 446/4.

4- المصدر نفسه ، 437/4 .

نفهم من هذا التعريف بأن الشورى هي البحث عن الرأي الصالح لحدث طارئ ومهم لذلك من المفروض أن يعرض على أهل الحل والعقد. وهو الأمر الذي دعيت إليه أمة الإسلام عن طريق نبي الهدى في قوله تعالى: { فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ } (1). وهذه دعوة موجهة من الله وحيًا لمعلم البشر محمد صلى الله عليه وسلم في كيفية إتخاذ القرار أثناء المواقف كالحرب وغيرها من الأمور التي لم ينزل عليه فيها وحي ، ليستظهر برأي أصحابه ولما فيه من الدعوى إلى التعاون والمشاركة في الرأي حيث ورد عن الحسن رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم :

" مَا تَشَاوَرَ قَوْمٌ قَطُّ إِلَّا هَدَوْا لِأَرْشَادِ أَمْرِهِمْ " (2).

وكذلك ما ورد في سيرة حبيب الله محمد صلى الله عليه وسلم عندما علم بخروج قريش للدفاع عن قافلته التجارية بزعامة أبي سفيان بن حرب ، " فاستشار على الناس وأخبرهم عن قريش ، فقام أبو بكر الصديق فقال وأحسن ، ثم قام المقداد بن عمر وقال : يارسول الله ، إمض لما أمرك الله فنحن معك ، والله لانقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى، وهو قوله تعالى: " قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّا لَن نَدْخُلَهَا أَبَدًا مَّا دَامُوا فِيهَا فَادْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ " (3). ولكن إذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون ، فوالذي بعثك

1- آل عمران : 159.

2- الزمخشري ، تفسير الكشاف ، تحقيق محمد مرسى عامر ، دار المصحف القاهرة ، ط : 2 ، 209/2 1977 .

3- المائدة : 24.

بالحق لو سرت بنا إلى برك الغماد⁽¹⁾. لجادلنا معك من دونه حتى تبلغه. فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم خيرا ودعا له به " ⁽²⁾.

هكذا كان معلم الخلق يستشير أصحابه في كل المهمات التي لم ينزل فيها الوحي ، وكان يأخذ برأي أصحابه ، وكانت لهم آراء سديدة وموفقة ، عادت على الرسول صلى الله عليه وسلم وصحبه بالنصر المبين ، كما هو الأمر ببدر الكبرى وغيرها من المواقع الكثيرة التي تزخر بذكرها السيرة النبوية الشريفة ، وسيرة الخلفاء الراشدين من بعده ، وغيرهم من الخلفاء والأمراء الذين جاءوا من بعدهم ، واقتفوا آثارهم في الشورى فأصلحوا أمرهم وسادوا على غيرهم بهذه السنة الحميدة . وفي مثل هؤلاء جاء حديث النبي صلى الله عليه وسلم : " إِذَا كَانَتْ أَمْرًاؤُكُمْ خَيْرُكُمْ وَأَعْنِيَاؤُكُمْ سَمْعَاءُكُمْ وَأَمْرُكُمْ شُورَى بَيْنَكُمْ فَظَهَرُ الْأَرْضِ خَيْرٌ لَكُمْ مِنْ بَطْنِهَا " ⁽³⁾.

فالحديث الشريف يخبر بأن الأقوام الذين يعملون بأمر الشورى ، فإن إستمرا بقاءهم ودوامهم في الحياة أفضل من زوالهم ؛ لأن في زوالهم خسران مبين للأمة الإسلامية .

ولكي يكون للأمة الإسلامية كيان في الوجود لا بد لها من الرجوع إلى الله ورسوله والاطلاع على السيرة الحميدة ، والتاريخ المجيد الذي أدى بالدولة الإسلامية إلى أن تكون

1- برك الغماد : موضع باليمن .

2- عز الدين بليق ، منهاج الصالحين ، ص439-440.

3- المرجع نفسه ، ص439 .

خير أمة أخرجت للناس ، لأن من ضمن تلك الطرق المتبعة في حكمهم اتباع نظام الشورى مصداقا لقوله تعالى : { وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ } ⁽¹⁾ . وبهذه الطريقة التي أشار إليها القرآن الكريم المتمثلة في الشورى التي حاول رجال الإصلاح الجزائريين أن يتمسكوا بها في التعامل فيما بينهم ، ثم بثها في نفوس أبناء أمتهم لتبقى هي المصدر الأساسي لقيام نظام الحكم السليم .

وذلك ما نلاحظه في قول ابن باديس إبان الاستعمار الفرنسي بالجزائر ، الذي سلط عليه وعلى الجمعية ما سلط من القمع ، ومحاولات الإفشال لأداء المهمة المنوطة بهم ، التي تتمثل في نشر القيم الإسلامية ، ومحاربة الجهل والذل ، لذلك فهو يقول لهم : " وسيكون لنا جميعا من إقامة سنة الشورى أعظم مرشد ، ومن نورها أهدى هاد ، وسأصدرها من رأيها الموافق للمصلحة العلمية رفضا أو قبولا " ⁽²⁾ .

من هذه المنهجية السليمة في سلوك منهج الشورى التي أشار إليها ابن باديس للاقتداء بها نزولا عند قوله تعالى : { قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنْتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّى تَشْهَدُون } ⁽³⁾ . وفي هذه الآية الكريمة دليل واضح على أن العمل بالشورى من طرف الحكام من السلوكات الإيجابية المفيدة . نلاحظ أن هذه الآية الكريمة تقدم نموذجا لحكم تلك الملكة التي تطرح مشكلة على مساعديها ليجدوا لها حلا موفقا ، وأبت أن لا تقوم بأي شيء

1- الشورى : 38.

2- محمد الطاهر فضلاء ، قال الشيخ الرئيس الإمام عبد الحميد بن باديس ، ص294 .

3- النمل : 32.

إلا إذا أشاروا عليها بالرأي الراجح والمعقول ، وهو نفس الهدف الذي نجده في حديث ابن باديس السابق ، الذي حاول فيه أن يركز على النظم المستمدة دائما من الشريعة الإسلامية الغراء ، ومن الحكم والأمثال الواردة في القرآن الكريم ، التي تنطوي على صور حية وتوجيهات ذات مستقبل لا يخلوا من الدفع نحو التقدم والازدهار بالنسبة لمن إنتهج نهج القرآن الكريم . وبهذا الأسلوب المتبع في تنشيط جمعية علماء المسلمين في نظام الشورى الذي أضفى عليها هالة من التقديس والاعتزاز من طرف أعضائها، والتفاف الشعب حولها، استطاعت في برهة من الزمن أن تقدم للأمة الجزائرية عملا جليلا ، يعيد لها مجدها التليد ، ويمحو كل ما علق بالأمة الجزائرية من التنصير ، والإندماجية المطلقة ، من أجل مسح الشخصية الجزائرية ، وتشويه الدين الإسلامي بوسائله الجهنمية ، التي تتمثل في رجال الطريقة الذين فسح لهم الاستعمار مجالا واسعا ، ودعما معتبرا خدمة لأغراضه الإستعبادية والتضليلية.

ولكن إرادة الله كانت وما تزال قائمة ، إذ بعث في نفوس رجال الإصلاح روح الإيمان الصادق بالله وحده ، فاجتمعوا في جمعيتهم الطاهرة ، وتشاوروا في أمرهم فتوحدت كلمتهم عملا بقوله تعالى : { فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ } ⁽¹⁾ . فاستعانوا بالله ، وقاموا بثورة ضد كل العادات والتقاليد البالية

ففتحوا المدارس في أنحاء القطر الجزائري لتعليم الأبناء حب الوطن ،
والدين الإسلامي النظيف الخالي من البدع و التدجيل ، فكانوا خير خلف
لخير سلف ، ومن هؤلاء الطلبة كان الإمداد لثورة نوفمبر 1954م التي تكللت
بالنصر المبين .

4 - 6 - صفات أخرى :

لقد حاول رجال الإصلاح لجمعية علماء المسلمين بالجزائر التعرض
فعلا لمجموعة من الصفات التي يجب أن يتصف بها كل من آمن بالله
واليوم الآخر ، والقضاء والقدر . ليتمكن الإيمان الصحيح من الولوج في
قلوب المؤمنين ، حسب ما تتطلبه الظروف النفسية المحيطة بحياة الشعب
الجزائري الموجه عادة حسب سياسة المستعمر .

وقد ورد الكلام عن هذه الصفات في الحقيقة والواقع ، وقيل أنها تبدو
" واحدة من حيث مصدرها وأصلها ، متنوعة من جهة موضوعاتها ، ومن
ناحية أخرى ، فإن الذين يقولون بوحدةها إنما يعنون بذلك الترابط
التام بين موضوعاتها ، بحيث لا يختلف واحد من هذه الموضوعات بناء
على أنها مؤسسة على العقل والإرادة الخيرة أو طهارة القلب . وإذن
فتنوعها يقصد به تعدد صورها وأشكالها أو إن قلت : تعددت
موضوعاتها " (1) . هذا من جهة ، ومن جهة أخرى ، نجد أن ما تمليه تلك
المناسبات ، يهدف إلى إبراز الإحساس النفسي الذي ينتاب ذلك الشخص
المصلح ، وما يحيط به من تلك الظروف التي يعيشها الشعب الجزائري
، الذي هو بأمس الحاجة إلى من يأخذ بيده ، ويوجهه التوجيه

1- محمد عبد الستار نصار ، دراسات في فلسفة الأخلاق ، ص240-241 .

السليم. لأن الحياة السائدة أصبحت تتحكم فيها سياسة الاستعمار، التي تهدف إلى مسخ التعاليم الإسلامية، أو بعض الصفات الخلقية، وإحلال بعض السلوكات غير اللائقة التي تؤدي حتماً إلى التجهيل والاستعباد⁽¹⁾.

لذلك حاول رجال الإصلاح التوضيح بأن الأمة الإسلامية كانت ولا تزال أفضل الأمم على وجه الأرض، وأن الأمر الذي جعلها ترتقي إلى أعلى المراتب، هو ذلك السلوك المنتهج في التربية والتعليم، وهو الذي نجد الإبراهيمي يدعو إلى الالتزام به، مع تلقينه لمن سيخلف الآباء والأجداد؛ لأن في تعليمهم لهذه الصفات الحسنة يؤدي حتماً إلى اكتمال رجولة ذلك النشء لذلك فهو يقول: "ربوهم على الرجولة وبعد الهمة، وعلى الشجاعة والصبر وعلى الإنصاف والإيثار، وعلى البساطة واليسر، وعلى العفة والأمانة، وعلى المروءة والوفاء، وعلى الاستقلال والاعتداد بالنفس، وعلى العزة والكرامة، وعلى التحابب والتسامح وعلى حب الدين والعلم والوطن والوالدين والمعلم"⁽²⁾.

إن في هذا الحديث العديد من الفضائل الحميدة التي إن تمكن الشعب الجزائري من فهمها وعمل بها فإن عمله ذلك يكون من الأعمال الصالحة، مصداقاً لقوله تعالى: {مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنَّىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ}⁽³⁾.

1- محمد ناصر بوحجام، أثر القرآن في الشعر الجزائري الحديث، 87/1.

2- محمد البشير الإبراهيمي، آثاره، 165/3.

3- النحل: 97.

فمعنى الآية موجه إلى الذين آمنوا بالله كافة دون التمييز بين الذكر والأنثى لأن الشرط الوحيد هو الإيمان بالله ، وكل من تتوفر فيه تلك الشروط فحياته تكون سعيدة ، ويعمه الخير العميم ، جزاء ما قام به من الأعمال الصالحة التي من ضمنها التمسك بالدين الإسلامي الذي يصفه عبد الحميد بن باديس بأنه هو " الذي يحترم الانسانية في جميع أجناسها فيقول الله تعالى : { وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا } (1) . ويقرر التساوي والأخوة بين جميع تلك الأجناس ويبين أنهم كانوا أجناسا للتمييز لا للتضليل ، وأن التفاضل بالأعمال الصالحة فقط . فيقول : { يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِّن ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاهُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ } (2) .

ويدعو تلك الأجناس كلها إلى التعاطف والتراحم بما يجمعها من وحدة الأصل ووشائج القرابة القريبة والبعيدة " (3) . مستدلا على هذه الصفات بقوله تعالى : { يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِّن نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا } (4) .

1- الاسراء : 70 .

2- الحجرات : 13 .

3- من تراثنا الإسلامي ، آثار الإمام عبد الحميد بن باديس ، دار البعث والنشر قسنطينة الجزائر ، ط : 2 ، 1985 / 111/4 .

4- النساء : 1 .

إن الدين الإسلامي عند عبد الحميد بن باديس هو الذي: "يقرر التضامن الإنساني العام بأن الإحسان إلى واحد إحسان إلى الجميع والإساءة إلى واحد أساءة⁽¹⁾ إلى الجميع"⁽²⁾ مسترشداً في ذلك بقوله تعالى: { مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا وَلَقَدْ جَاءَ تَهُمُ رُسُلُنَا بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ فِي الْأَرْضِ لُمُسْرِفُونَ }⁽³⁾.

ثم يضيف ابن باديس في حديثه عن إحترام الأديان من قبل الدين الإسلامي مذكراً بأنه: " يعترف بالأديان الأخرى ويحترمها ويسلم أمر التصرف فيها لأهلها"⁽⁴⁾. مدعماً ذلك بقوله تعالى: { لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ }⁽⁵⁾.

ففي هذه الآية الكريمة ، دعوة إلى إحترام الأديان وتقديسها بصفة عامة ، مع وجود تخصيص للمسلم الذي يفترض عليه أن يتمسك أكثر فأكثر بدينه الإسلامي القويم ، لاشتماله على كافة الأديان السماوية . فالمسلم لا يليق له أن يتخلى عن الكل ، ويتمسك بالجزء . الذي يتمثل في اتباع دين غيره ، الذي يشتمل على شذرات طفيفة من الصفات الأخلاقية وغيرها من المثاليات الإنسانية السامية التي لا تكفي لبناء الشخصية الكاملة .

1- هكذا في الأصل ، والصواب : إساءة .

2- من تراثنا الإسلامي ، آثار الإمام عبد الحميد بن باديس ، 111/4 .

3- المائدة : 32.

4- من تراثنا الإسلامي ، آثار الإمام عبد الحميد بن باديس ، 111/4 .

5- الكافرون : 6.

ويستمر ابن باديس في حديثه عما يمده الدين الاسلامي من السلوكات الخلقية لبناء التكامل الإنساني من أجل نشر الخير ونبذ الشر، إذ أنه : " يقرر شرائع الأمم ويهون عليها شأن الاختلاف ، ويدعوها كلها إلى التسابق في الخيرات "(1). معتمدا في هذا على قوله تعالى : { وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيِّمًا عَلَيْهِ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ } (2)

إن في هذه الآية توضيحا بأن هناك شرائع ومللا سبقت شريعة محمد صلى الله عليه وسلم . وإن التعدد في الشرائع ، هو الذي جر إلى التفرق والتشتت ، وعدم التمسك بالشريعة الواحدة ، وهذا بلاء ابتليت به الإنسانية ، وأن ما ينفع الإنسانية في هذه الحالة هو التوجه إلى ما يسعد الإنسانية من عمل الخير ، ونبذ الشر .

ويستمر ابن باديس في الكشف عن الصفات التي يتقدم بها الدين الإسلامي بأنه : " يأمر بالعدل العام مع العدو والصديق " (3). أثناء الأحكام الصادرة من الحكام والقضاة ، لنشر الإخاء والوئام بين الناس جميعا ، مستدلا على ذلك بقوله تعالى : { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاَنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ } (1).

1- من تراثنا الاسلامي ، آثار الإمام عبد الحميد بن باديس ، 111/4 .

2- المائدة : 48.

3- من تراثنا الاسلامي ، آثار الإمام عبد الحميد بن باديس ، 111/4 .

والأمر في هذا ، هو الحث على نزاهة إصدار الأحكام واستقامتها دون المساس بحقوق الغير أو إعتداد فكرة الإقصاء. ويتابع ابن باديس في عرضه لنبذ بعض الصفات المذمومة مذكرا بأن الدين الاسلامي هو الذي " يحرم الاعتداء تحريما عاما على البغيض والحبيب" (2). مستندا في هذا العرض على قوله تعالى : { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَحِلُّوا شَعَائِرَ اللَّهِ وَلَا الشَّهْرَ الْحَرَامَ وَلَا الْهَدْيَ وَلَا الْقَلَائِدَ وَلَا آمِينَ الْبَيْتِ الْحَرَامَ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّن رَّبِّهِمْ وَرِضْوَانًا وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَا نُ قَوْمٍ أَن صَدَّوْكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَن تَعْتَدُوا وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ } (3). فالآية الكريمة هنا تلزم المسلمين على التعامل مع الغير بالتى هي أقوم ، دون المساس بحقوقهم المشروعة.

هذا ويضيف فضيلة أخرى هي الدعوة إلى " الإحسان العام " (4). كما في قوله تعالى : { إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ } (5). ففي الآية أمر للبشرية بالتعامل فيما بينها بالإستقامة

1- المائدة : 8

2- من تراثنا الاسلامي ، آثار الإمام عبد الحميد بن باديس ، 111/4 .

3- المائدة : 2.

4- من تراثنا الاسلامي ، آثار الإمام عبد الحميد بن باديس ، 111/4 .

5- النحل : 90.

والإعتدال ، وفعل الخير بالإحسان إلى من يستحق ذلك .
وعلى غرار ما سبق ذكره من الصفات الحميدة ، نجد الإبراهيمي يجعلها من الفرائض الدينية التي لا يمكن للمسلم أن يتخلى عنها قائلا : " حثوا إخوانكم على إقامة الفرائض الدينية والاجتماعية التي أضعوها كالزكاة ، والتأمر بالمعروف والتناهي عن المنكر ، والتواصي بالحق والصبر والرحمة والتعاون على البر والتقوى والتألف والتحابب ، مستنديين في ذلك كله على كتاب الله وحديث نبيه مستدلين بنصوصها " (1) .
هكذا كانت دعوة السلف الصالح إلى الرجوع في كل شيء إلى المنبعين الأساسيين كتاب الله وسنة نبيه لا غير ، دون زيادة أو نقصان .
فإذا ما أخذ المؤمن هذه التعاليم وعمل بها حسب حديث الإبراهيمي فإنه يكون من عباد الله الصالحين الذين اقتفوا آثار الأولين ، الذي قال فيهم الله تعالى : { كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ مِنْهُمْ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ } (2) . فالآية الكريمة تخبر بأن الأمة الإسلامية في سالف عهدها كانت من أفضل الأمم ، لأنها كانت تفعل الخير ، وترشد الناس إلى الإحسان ، وتنهاهم عن الأعمال الذميمة ليكونوا مؤمنين حقا كما أراد الله أن يكونوا ، لا كما يرغب الاستعمار .

1- محمدالبشير الإبراهيمي ، آثاره ، 180/3-181 .

2- آل عمران : 110 .

4-7- بعض الصفات السلبية :

تطرقنا فيما سبق إلى عرض بعض الصفات الإيجابية التي دعى إليها رجال الإصلاح في كتاباتهم ، التي يفترض أن يتحلى بها الإنسان المثالي ، ومع ذلك لم ينس هؤلاء الإصلاحيون استعراض بعض الصفات السلبية ، التي تسبب ضررا للأفراد والمجتمعات وتتخرقواهم وتعبث بهم ، وتكون سببا في عدم اسعادهم في حياتهم اليومية ، كالظلم الذي هو " وضع الشيء في غير موضعه " (1) . وللتوضيح أكثر لهذه الصفة . " حديث الوضوء : فمن زاد أو نقص فقد أساء وظلم ، أي أساء الأدب بتركه السنة والتأدب بأدب الشرع وظلم نفسه بما نقصها من الثواب بترداد المرات في الوضوء " (2) .

فالدعوة هنا تحثنا إلى الاعتدال ، والاستقامة بإتمام السنة بكيفية سليمة لكي يكون المرء عندها من الذين قال الله تعالى فيهم : { الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ } (3) . فالآية الكريمة تعني أولئك الذين لم يلبسوا إيمانهم بالكفر ولا الشرك الذي يعتبر من المعصية العظمى لقوله تعالى : { وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ } (1)

1- ابن منظور، لسان العرب ، 373/12.

2- المرجع نفسه ، ص 373 .

3- الأنعام : 82.

فالآية هنا تنهى عن الإشراك بالله لأن في ذلك اعتداء وتجاوزا على سلطة الخالق جلت قدرته وسمى على أن يشرك به ؛ لأن في الشرك كفرا وعصيانا ونتيجة ذلك ما يؤدي إلى الخروج عن النظام المعمول به في شرعنا الإسلامية السمحاء.

وقد أوضح الإبراهيمي صفة الظلم وعقباها حسب تعليق القرآن الكريم عليها قائلا : " إن الفائدة الكبرى التي يعلقها القرآن على السير في الأرض والوقوف على آثار الأمم البائدة في الاعتبار بحال الضالين وعقبي الظالمين ليعلم المعتبر أن الظلم هو سوس المدنية فيقيم العدل ، وإذا جاء العدل جاء العمران ، وإذا جاء العمران قامت المدنية وكان العدل سياجها وهذه هي مدنية الإسلام " (2). فالحديث هنا يدعوا إلى ما يرشدنا إليه القرآن الكريم وهو الوقوف على تاريخ الأمم البائدة، وأثرها الذي أندثر، وزال نتيجة إقامتها الحكم على الظلم والطغيان ، المؤدي في الأخير إلى تخريب عروشها، وحضارتها التي أقامتها وحقت عليها لعنة الله إذ يقول في كتابه العزيز : { وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أُولَئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَى رَبِّهِمْ وَيَقُولُ الْأَشْهَادُ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى رَبِّهِمْ أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ } (3).

وعلى هذا الأساس يمكن أن يتخذ الفرد من تلك الحضارات المندثرة عبرة تجعله يستعيد رشده ، ويتعض من تلك الأحداث الحضارية ، ويحاول أن يصلح من أمره ، وذلك بإقامة العدل ونشره ؛ لأنه أساس بناء الحضارات أو المدنية التي ينشدها الإسلام ، مثل ما هو وارد في القرآن الكريم وفي قوله تعالى : { إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ } (1).

1- لقمان : 13 .

2- محمد البشير الإبراهيمي ، عيون البصائر ، 260/1.

3- هود : 18 .

ونجد في هذه الآية عدة عظات أخلاقية يحث فيها القرآن المسلمين إلى التمسك بها ولكن ما يهمنا هنا في هذه الآية هو الدعوة من القرآن الذي يعنيه الإبراهيمي لإقامة العدل من الحاكم المطلع على تقصير الحكام الذين سبقوا ، ولم يرفعوا الظلم ، فباءوا بغضب من الله وكانت عاقبة أمرهم هو الزوال ، فصاروا عبرة لمن اعتبر ، فرفع الظلم والجور كما يذكر ابن باديس عن " الذين يحترمون الإنسانية في جميع أجناسها وجميع أديانها ويرحمون الضعيف وينصرون المظلوم ويقاومون الظلم والاستعباد " (2) .
لأنهم أدركوا مغبة الظلم وفهموا قوله تعالى : { وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَمْ يَنْزَلْ بِهِ سُلْطَانًا وَمَا لَيْسَ لَهُمْ بِهِ عِلْمٌ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ } (3) .
ومعنى الآية أن الظلم منبوذ ومرفوض ، لذلك فإن الله لا يعين صاحبه على الوصول إلى أهدافه الظالة ، ولن يكون له ناصر لأنه عاث في الأرض فسادا .

وأصبح من ذلك الصنف الذي ينعته العربي التبسي من الاستبداديين المتمثل في الاستعمار الفرنسي قائلًا : " ولقد حاربت قوانين الظلم وإدارة الطغيان المدارس ، والدين واللغة

1- النحل : 90.

2- محمد الطاهر فضلاء ، قال الشيخ الرئيس بن باديس ، ص101.

3- الحج : 71.

وقصدها من ذلك ، أن تهدم منا العزم ، وأن تنفر منا الغني ، والقائد ، والباشاغا والموظف .ولقد وصلت إلى بعض غرضها في غير فل للعزيمة الصادقة . وما بقي هنا ومعنا إلا أهل الله أهل الجنة إن شاء الله " (1) . الذين يعتمدون على قوله تعالى : {وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ} (2) . ومعنى الآية أن أولئك الظالمين يعتقدون بأنهم الأعلون ، ونسوا أن هناك من هو أعلى منهم ، يعلم خائنة الأعين، وما تخفي الصدور ، وأنه سيقبض منهم طال الأمد أو قصر .

ويضيف العربي التبسي في الشرح والتوضيح عن ذلك الاستعمار الفرنسي المعتدي على أناس أبرياء همهم الوحيد هو أن يكون لهم كيان بشري في وطنهم المسلوب لذلك فهو يقول : " والحق إن هذه الدولة أقترفت في العصر الحديث ما لم يقترفه فرعون في القديم " (3) . مصداقا لقوله تعالى : { إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضَعِفُ طَائِفَةٌ مِّنْهُمْ يُدَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ } (4) .

فالحقيقة والواقع أن الدولة الفرنسية في الجزائر السليبة ، قد فعلت في الشعب الجزائري أكثر مما نسب إلى الطغمة العاتية التي فرقته ، وشتت الأهل والأقارب ، وأن تصرفها ذلك يتمثل في تصرف فرعون الذي كان من المفسدين في الأرض .

1- العربي التبسي ، مقالات في الدعوة إلى النهضة الإسلامية ، جمع وتعليق: شرفي أحمد الرفاعي ، 193/1.

2- إبراهيم : 42.

3- المرجع السابق ، 193/1.

4- القصص : 4.

ثم ينتقل بنا العربي التبسي إلى عرض قيمة الظلم في مرحلتنا الحالية قائلا : " والظلم اليوم بغيض إلى كل الشعوب والأمم ، ويكفي الظالم خذلانا وفضيحة أنه لا يستطيع أن يسمى منكراته وموبقاته بأسمائها الحقيقية . بل يضطر إلى إعطائها أسماء مستعارة قد تكون أضداد أسمائها الحقيقية " (1) . نلاحظ على المعتدين اليوم يخفون سيطرتهم على الضعفاء بمسميات فلسفية أو قل إن شئت سياسية تحت ستار نشر التقدم والحضارة الزائفة ، القائمة على الضلال والتضليل . ناسين أو متناسين قول الله تعالى : {قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ} (2) . ومعنى الآية أن كل ما بني على باطل فهو باطل . لذلك جاءت الآية تحرم كل أعمال الرذيلة البارزة منها أو المستترة ، لأنها تجر على فاعلها الويل والثبور .

ويذكر الإبراهيمي في حديث له مستغربا من ذلك الاستعمار الفرنسي بالجزائر الذي نصب نفسه هو الحاكم وهو المحكوم . في قوله " وإنه - والله - لوضع غريب ، وقبيح أن يكون الحاكم الفرنسي هو المشرع والمنفذ والمرجع في كل شيء وأن يكون المسلم الجزائري من هذا الوضع في دائرة مفرغة ، يبتدئ من حيث ينتهي وينتهي من حيث يبتدئ ، ويشتكى من الظلم إلى الظلم " (3) . هذا هو الوضع الذي عاشه الشعب الجزائري أثناء الاحتلال

1- العربي تبسي ، مقالات في الدعوة إلى النهضة الإسلامية ، جمع وتعليق: شرفي أحمد الرفاعي ، 197/1.

2- الأعراف : 33.

3- محمد البشير الإبراهيمي ، عيون البصائر ، 183/2.

الفرنسي ، ثم يضيف الإبراهيمي على الوصف السابق قائلاً : " أراد في الأول أن يظلم الناس ولا يتظلمون وأن تبسط يدها فيهم بالضر والشر ولا يتكلموا ، وأن تكون آية الحق منسوخة لأجله " (1). تلك هي الحقيقة التي ارتضاها المستعمر لنفسه ، وأن يكون السكان الأصليون عبيدا له ، يسلط عليهم كل أنواع العذاب والذل والهوان والاستبداد.

ولم يترك فرصة للين والرحمة ، كما يصفه ابن باديس في حديثه بأن : " الجانب الذي يظلم ويجد المظلوم معه متنفسا لشكواه خير وأشرف من الجانب الذي يظلم ويخنق ويبيكم الأفواه ويكسر الأقلام ولا يعرف ظلمه إلا بما يتسرب - غيضا عليه- من أفواه الباكين والمشردين والاستعمار كله شر ولكن في الشر ما يختار " (2).

ذلك هو الواقع المعاش بالجزائر ، وذاك هو الاستعمار المستبد بالشعب الجزائري ولكن الله لن يخلف وعده ، من ذلك ما جاء على لسان نبي الرحمة عليه الصلاة والسلام (3) : " إِنَّ اللَّهَ يُمْلِي لِلظَّالِمِ " (4). فَإِذَا أَخَذَهُ لَمْ يُفْلِتْ ثُمَّ قَرَأَ قَوْلَهُ تَعَالَى : { وَكَذَلِكَ أَخَذُ رَبُّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخَذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ } (5). ومعنى هذا أنه جلت قدرته لا يمهل الظالم ، والدليل على ذلك إزالته لقرى كاملة نتيجة لظلم أهلها

1- المرجع السابق ، ص 465 .

2- محمد الطاهر فضلاء ، قال الشيخ الرئيس عبد الحميد بن باديس ، ص 375 .

3- عز الدين بليق ، منهاج الصالحين ، ص 315 .

4- أي : ليمهله ، أي لم يخلصه من العذاب .

5- هود : 102 .

وذويها وجورهم ، وإن عقابه سبحانه وتعالى أقوى وأعظم ، جزاء بما فعلوا مصداقا لقوله تعالى : {وَجَزَاوًا سَيِّئَةٍ سَيِّئَةً مِّثْلَهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ} ، وَلَمَنْ انْتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مَنْ سَبِيلٌ، إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بَغِيرَ الْحَقِّ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ} ⁽¹⁾. ومعنى ذلك أن القرآن الكريم يدعو إلى الدفاع ، والاستماتة من أجل الحفاظ على الكرامة الإنسانية والحث على معاقبة الظالم بمثله ، متى وقع الاعتداء ، ومن مال إلى العفو ، فله جزاءه عند الله .

وأما من أراد دفع الظلم عن نفسه ، وانتصر بعد ذلك ، فعليه بالتوقف عند حد الانتصار ، دون مواصلة العقاب ، وأما عن الذين يستمرون في الاعتداء ويفسدون في الأرض بغير موجب شرع ، فأولئك جزاؤهم عند الله العقاب الشديد ، جزاء بما كانوا يعتدون .

الفصل الثاني

أثر القرآن الكريم في المعجم اللغوي

تمهيد:

القرآن الكريم هو الكتاب المنزل من الله سبحانه وتعالى على خاتم الأنبياء محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، " منجما في ثلاث وعشرين سنة " (1). لكي يكون من السهل استيعابه من طرف المسلمين ، ويستعدون لتقبله ، دون كلل أو ملل منه ، نتيجة لما يتضمنه من توجيهات تربوية وأخلاقية عالية ، نزولا عند قوله تعالى : { وَقَرَأْنَا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلًا } (2). حقا فالقرآن يعتبر المعجزة الكبرى الخالدة مصداقا لقوله تعالى : { إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ } (3). أي أنه باق إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها من الإنس والجن دون تحريف أو تصحيف ، فهو الحق المبين والعدل المنصف ، مصداقا لقوله تعالى : { لَّا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ } (4). إنه طريق الهدى لخير الدنيا والآخرة ، يحتوي على نظم وقوانين حكيمة ورشيدة ، تصلح الأمم وتشفئها من أمراضها النفسية والاجتماعية قال تعالى : { وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا } (5). أي أنه يحتوي على دستور رباني يفوق كل الدساتير البشرية لأنه صادر من الحق ورب العرش العظيم

1- شوقي ضيف ، تاريخ الأدب العربي ، العصر الاسلامي ، دار المعارف ، القاهرة ، ط:10 ، 1986 . 25/2 .

2- الإسراء : 106 .

3- الحجر: 9

4- فصلت : 42 .

5- الاسراء: 82 .

الذي قال : {وَكَتُبْنَا لَنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ إِنَّا هُنَا إِلَيْكَ قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ }⁽¹⁾. وقد كان للقرآن الكريم أثر عظيم وبالغ الأهمية ، إذ أنه وحد العرب على اللهجة التي يغلب طابعها على جل القبائل الشمالية في الجاهلية . ألا وهي لهجة قريش ، التي نزل القرآن الكريم على لسان حالها، ومحا الفوارق التي تقف حائلا ضدها وبذلك كملت لها السيادة على اللهجات الأخرى. نتيجة كثرة التلاوة آناء الليل وأطراف النهار . " وأخذت هذه اللهجة تعم بين القبائل الجنوبية متغلغلة في الأنحاء الداخلية التي كانت لا تزال تتكلم الحميرية . ولما فتحت الفتوح ، ومصررت الأمصار أخذت لهجته تسود في مشارق العالم الاسلامي ومغاربه . إذ كانت تلاوته فرضا مكتوبا على كل مسلم" ⁽²⁾. وهو ما يستشف من قوله تعالى: {أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا} ⁽³⁾. أي أنه يجب أن يقرأ القرآن قراءة مسترسلة وواضحة وإخراج الحروف من مخارجها الحقيقية ليسهل فهمه على السامع والمتلقي أيضا ، وجاء قوله تعالى : {وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى ، قَالَ رَبِّي لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا ، قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى} ⁽⁴⁾.

1- الأعراف : 156.

2- شوقي ضيف ، تاريخ الأدب العربي ، العصر الاسلامي ، 31/2 .

3- المزمّل : 4 .

4- طه : 124-126.

أي أن من لم يهتم بالقرآن الكريم ، وأعرض عنه ، فإنه سيكون من الخاسرين في الدنيا والآخرة بسبب هجره للقرآن الكريم وعدم الاهتمام به ، لذلك " تحول المسلمون في جمهورهم إلى حفظة القرآن ، يتلوه كبيرهم وصغيرهم ممن سكنوا منهم الصحاري البعيدة ورؤوس الجبال ، مما جعلهم ينطبعون بطوابعهم اللغوية " (1). هذا نتيجة لتلك الدعوة القرآنية التي حفزت المسلمين إلى التوجه إليه ، والتمسك به ، والإهتمام بهديه لأنه نور المتقين ، وشفاء المعتلين ، ونصرة للمظلومين ، وسبيل خير المؤمنين .

ومما لا شك فيه أن الأدب العربي لم يكن أقل حظاً من هذا التأثير بالقرآن الكريم الذي قدم له الكثير والكثير مما يفتقر إليه أولئك الكتاب والخطباء والشعراء من فصاحة وبلاغة وبيان ، التي تعضد أقوالهم ، وتجدد أفكارهم ، وتبهر أسماع غيرهم ، وتذهل عقول أعداء الإسلام والمسلمين ؛ لأن " كلام الإسلاميين من العرب أعلى طبقة في البلاغة وأدوقها من كلام الجاهلية في منثورهم ومنظومهم...ومحاوراتهم والطبع السليم والذوق الصحيح شاهدان بذلك للناقد البصير بالبلاغة والسبب في ذلك أن هؤلاء الذين أدركوا الإسلام سمعوا الطبقة العالية من الكلام في القرآن والحديث ، الذين عجز البشر عن الإتيان بمثليهما لكونهما ولجت في قلوبهم ، ونشأت على أساليبيها نفوسهم ، فنهضت طباعهم وارتقت ملكاتهم في البلاغة على ملكات من قبلهم من أهل الجاهلية ممن لم يسمع هذه الطبقة ولا نشأ عليها" (2) .

1- شوقي ضيف ، تاريخ الأدب العربي ، العصر الإسلامي ، 31/2 .
2- ابن خلدون ، المقدمة ، دار القلم بيروت لبنان ، ط : 5 ، 1984 ، ص 579-580 .

وفي خضم هذه الفترة التي يتحدث عنها بن خلدون ، والتي تعج بالبحوث اللغوية والبلاغية في القرآن الكريم ، والأساليب والمعاني القرآنية ، نلاحظ عدم وجود كتابة أو مؤلف يفرد لدراسة أثر القرآن في الأدب العربي القديم سواء تعلق الأمر بالشعر أو بالنثر .

أما بعد هذه الفترة التي تسمى بعصر النهضة الحديثة فلم يكن في وسع الأدباء والكتاب الوصول إلى إحداث شيء جديد يخص دراسة الأثر القرآني في الأدب العربي الحديث ، الذي يفتقر إلى هذه الدراسة ، التي لا شك أنها تعضده ، وتضفي عليه هالة من التقدير ، والرونق والحياة الفنية لما يشتمل عليه من الامداد الذي لا ينضب .

وإذا ما حاولنا المقارنة بين ما كتب قديما في النثر ، وما قيل في الشعر القديم نجد أن لهما علاقة التقارب في الأخذ من النبع الذي لا ينتهي ، ولا ينقص منه شيئا ، ألا وهو القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف ، الذي بهما يستقيم عمل كل أديب تمسك بمدارستهما وتفطن للضعف الذي يصيب كل من يهجرهما ، سواء تعلق الأمر بالإعجاز البياني ، أو باللغة أو الأسلوب الفني الخلاق .

مما سبق ذكره نستطيع التطرق إلى الحديث عن الأثر الفني للقرآن الكريم في النثر الجزائري الحديث ، ولكن قبل ذلك لا بد من الحديث عن اللغة لأنها هي اللبنة الأساسية لكل تشكيل.

1-1- اللغة :

إن اللغة هي أهم وسيلة اتصال بين بنى البشر ، كما أنها أداة تفكير يستطيع الإنسان بواسطتها نقل إحساسه وشعوره إلى غيره " فاللغة وظيفة عضوية في الإنسان وهي كذلك أساس طبيعي للفضائل والصلوات الاجتماعية والسياسية . ووحدة اللغة الكلمات وهي بمقاطعها نتيجة لحركة صوتية ، ولكن هذه الحركة الصوتية في الحقيقة عملية عقلية ، إذ مجرد نطق الكلمة يدل على شيء ما ، فيحدث في الفكر حركة ما . وهذه الكلمات رموز لمعاني الأشياء ، أي رموز لمفهوم الأشياء ، الحسية أولاً ، ثم التجريدية المتعلقة بمرتبة أعلى من الحس " (1).

فاللغة لها دور فعال في التواصل ، والترابط بين أفراد البشر " ومن ثم تظل اللغة دائماً أوضح وأقوى وأدل ظاهرة تتجمع فيها كل سمات الوجه الحضاري الذي تعيشه الأمة وليس مبالغة أن يقال : إذا أردت التعرف على الإطار الحضاري لشعب من الشعوب في زمن من الأزمان ، فادرس لغته ، ففي عروق اللغة – إذا صح هذا المجاز- يعيش نبض العصر" (2) وهو ما يستدعي من الباحث الاطلاع على اللغة لأنها هي التي تمدّه بالمعلومات عن الحياة النفسية للكائن الإنساني ، الذي يؤدي بعدها إلى إكتشاف جانب لا يستهان به من المدلول اللغوي لذلك قيل عنها إنها " رموز لحالات نفسية ، هي مادة الفكر ، فالصوت اللغوي وظيفة

1- غنيمي هلال ، النقد الأدبي الحديث ، دار الثقافة والعودة بيروت لبنان ، د-ط ، 1973 ، ص41 .
2- عز الدين اسماعيل ، الشعر العربي المعاصر ، دار العودة بيروت لبنان ، ط:3 ، 1981 ، ص175 .

عقلية لها دلالاتها على الكلام النفسي الداخلي . وهذه الحالات النفسية التي تثيرها اللغة ليست فردية محضة ، بل هي وضعية اصطلاح عليها ، فمعانيها المشتركة بين الناس هي التي تعطيها كل قيمتها اللغوية " (1)

ولهذا نلاحظ عدم التجانس في التعامل مع الرموز ، لأن تلك الحالات النفسية التي تنتاب الناس ، ليست منسجمة حسب المستويات التي تبعث على انتقاء الرمز المعبر عنه ويعد الكتاب والمؤلفون والشعراء من الذين كانت لهم الأولوية والسبق في استغلال الرموز للوصول إلى الغاية المنشودة لإدراج اللغة في المكانة التي تجعلها لغة التعبير التربوي الهادف الذي يؤدي إلى أسباب النجاح .

ومن هذا المنطلق "يولي الدارسون والنقاد أهمية كبيرة للغة ومكانتها في العمل الأدبي باعتبارها العنصر الأول في كل عمل فني يستخدم الكلمة أداة للتعبير ، وهي باعتبارها أول شيء يصادفنا ، وبالتالي أول شيء ينبغي علينا الوقوف عنده عندما نتحدث عن الأدب" (2)

وبذلك يكون التفكير بالكلمات التي يركز التعبير عليها، على أساس أنها عبارة لرموز ما لأنها " في الواقع رموز لتجارب أفادها الإنسان بالحس. والذاكرة تحتفظ بمجموعة التجارب الحسية. وهذه الذاكرة تتوافر في الإنسان " (3). الذي أمده الخالق بصفة تميزه عن غيره

1- غنيمي هلال ، النقد الأدبي الحديث ، ص 41 .

2- محمد ناصر ، الشعر الجزائري الحديث ، دار الغرب الاسلامي، بيروت لبنان ، ط : 1 ، 1985 ، ص 275 . نقلا عن الدكتور : عز الدين اسماعيل ، الأدب وفنونه ، ص 31 .

3- محمد غنيمي هلال ، النقد الأدبي الحديث ، ص 41 .

من باقي المخلوقات ألا وهي العقل الذي يميز به الأشياء بعضها عن بعض ، دون الوقوع في الخطأ أو الزلل " لأن المقياس الذي يرجع إليه في الحكم على اللغة وصوابها قد يرجع إلى طبيعة الأشياء في العلوم ، أو إلى المقاييس المنطقية التي يهتدي إليها المنطق . أو إلى أسس الفن كما يهدي إليها العقل السليم . وطريق الإهتداء إلى الحكم الصحيح هو تحليل اللغة بما يتضمن تحليل الكلمات وتحديد معانيها ، والبحث في الجمل وصحتها بوصفها بنية رمزية للحقائق . وكذلك تحليل الفكر كما هو مدلول عليها في اللغة " (1)

واللغة في حقيقة الأمر هي التي تهدف إلى ربط العلاقة بين الأفراد ، وتستمد حياتها عن طريق التعامل واستخدام الأدباء لها ، وبذلك يحصل لها نوع من التحديد الفكري المتميز سواء تعلق الأمر بالمفردات اللغوية أو غيرها ، لأن المجتمع الخالي من وسائل الحركة والتجديد والاقتباس والتنسيق مع المصادر الأساسية ، فإنها تصير لا محالة إلى الجمود أو الانقراض أقرب .

ولمحاولة فهم خصوصية ارتباط اللغة بالفكر نجد أن " العلاقة بين اللغة والفكر وطيدة فاللغة تقدم للفكر تعاريف جاهزة ، وتصف الأشياء بخصائصها حتى لا تتداخل مع غيرها وتساعد المفكر في عمله ، إذ تزوده بصيغ وتعابير معروفة ، وتضع تحت تصرفه أساليب مدروسة" (2)

1- المصدر السابق ، ص44 .

2- حنفي بن عيسى ، محاضرات في علم النفس اللغوي ، الشركة الوطنية للنشر الجزائر، ط : 2 ، 1980 ص78.

ومن هذا المنطلق يتبين الترابط الواضح بين اللغة والفكر وما تقدمه للمفكر من مساعدة لأداء مهمته الأدبية وما ينتابه من " رحلات نفسية متطورة مستمرة وتجارب شعورية متجددة ولهذا لا يمكن للغة أن تبقى جامدة والحياة في تطور ، ولا أن تكون دائما قوالب جاهزة إنما يقوم هو بعملية تطوير وابتكار ، يتناسب مع تطور مشاعره وتدفعها " (1) .

وهكذا نجد أن فضل اللغة يبدو في الكلمة التي كانت في البدء " الفكرة وهي الثقافة وهي المعرفة ، وهي المهارة ، بل كانت " الكلمة " هي التي ترفع عارفها إلى مكان الصدارة وتخضع جاهلها إلى الدرجات الدنيا من سلم المجتمع " (2) .

ولذلك يفترض على الكلمة لكي تقوم بالمهمة المنوطة بها ، أن تكون هي المعبرة عن الرمز اللغوي الدال على المعنى ، وأن يكون الكاتب من المطلعين على أسرار اللغة ، والكشف عن خفاياها، ليكون من السهل عليه التعبير عن مشاعره ، حسب ما تقتضيه الحاجة الملحة ؛ لأن " الذي لم تسلم إليه اللغة أسرارها لأعجز من أن تثير أي حالة شعورية " (3) .

ولكي يبلغ المرء مجدا لا بد من أن يحسن ما يقول ؛ لأن : " جمال الكلمة ذاته مفتاح للأبواب المغلقة ، يفتح الطريق إلى مناصب الدولة ، ويفتح الخزائن بالرزق الغزير. كان يكفي لصد الرجل عن قضاء غايته ألا يكون موهوبا بالنطق الجميل ،... ويقول عمر بن عبد العزيز

1- محمد ناصر بوحجام ، أثر القرآن في الشعر الجزائري الحديث ، ص 128 .

2- زكي نجيب محمود ، تجديد الفكر العربي - دار الشروق ، بيروت لبنان ، ط : 7 ، 1982 ، ص 230 .

3- محمد ناصر بوحجام ، أثر القرآن في الشعر الجزائري الحديث ، ص 128 .

في هذا " إن الرجل ليكلمني في الحاجة يستوجبها فيلحن فأرده عنها ،
وكأنني أقضم حب الرمان الحامض ، لبغضي استماع اللحن ، ويكلمني آخر
في الحاجة لأستوجبها فيعرب فأجيبه إليها إلتذاذا لما أسمع من كلامه
(1) "

لكل ذلك يستوجب من الكاتب أن يولي عنايته واهتمامه بسلامة اللغة
، ولأفكارها الهادفة ، ذات المغزى الحقيقي التي يكون مصدرها التعبير
بالكلمة التي لا تنفصل عن عملية التفكير ذاتها ، الذي قال عنها : " دي
تراسي " " إن تكوين الأفكار وثيق الصلة بتكوين الكلمات ، فكل علم يمكن
رده إلى لغة أجيدت صياغتها ، ومعنى قولنا عن علم معين إنه تطور وتقدم
، هو أن ذلك العلم قد ضبطت لغته ، لا أكثر ولا أقل ، ضبطا يتم إما بتغيير
ألفاظه ، وإما بأن يجعل الألفاظ القائمة أدق في معانيها " (2) .

إن هذا الدور الذي تقوم به الدلالة اللفظية فيما يخص الإقتباس
والتضمنين الذي لا يعتبر عيبا ، وكذا " تكرار ألفاظ وكلمات ... ، إنما المهم
هو كيفية إجادة استعمال هذه المفردات والتصرف فيها بما يكفل الأداء الجيد
والتعبير الصحيح البعيد عن مزلق التكلف والغموض وطمس معالم شخصية
(3) "

1- زكي نجيب محمود، تجديد الفكر العربي ، ص232.

2- المرجع السابق ، ص211.

3- محمد ناصر بوحجام ، أثر القرآن في الشعر الجزائري الحديث ، ص130 .

إن محاولة المقارنة بين لغة القرآن الكريم وغيرها من اللغات الأخرى ، سواء ما تعلق بقوة الدلالة المعبرة ، أو ما يتميز به القرآن من الإعجاز البياني والبلاغي ، الذي يعود مصدره إلى ما نلتمسه من الخصائص التي امتاز بها الأسلوب القرآني ، و المزايا التي تتوافر فيه حيث أصبح له طابعا معجزا في لغته ، وبلاغته ، الأمر الذي استرعى وجهة نظر العلماء فراحوا يبحثون فيها بين مقل ومكثر ، فتوصلوا في الأخير إلى الإعراف بأنهم عاجزون عن الوصول إلى الأسلوب القرآني الرفيع ، ولكنهم حاولوا قدر المستطاع أن يتقربوا من ذلك الأسلوب ولو على وجه التمثيل ، وما لا يدرك كله لا يترك أقله⁽¹⁾.

ومسحة القرآن من ناحية اللفظ التي تظهر في الإتساق والإئتلاف بأسلوب فائق لا يمكن أن يضاهيه كلام بشر مهما بلغ مبلغا يؤدي به إلى توافر عوامل الإبداع⁽²⁾، وتتجلى هذه المسحة القرآنية العجيبة في نظامه الصوتي وجماله اللغوي :

أ- ومعنى نظام القرآن الصوتي ، هو ما يشعرونا به من التآلف في حركاته وسكناته

ومداته وغناته ، الأمر الذي يستدعي الإستماع إليه ، ويجذب النفوس ، وهو ما لا يستطيع أن يبلغ إليه أي كلام آخر سواء كان منظوما أو منثورا .

1- محمد عبد العظيم الزرقاني ، مناهل العرفان في علوم القرآن ، دار الفكر مصر ، 309/2 .

2- المرجع نفسه ، ص309 ، ينظر محمد الصالح الصديق ، البيان في علوم القرآن ، المؤسسة الوطنية للكتاب ، الجزائر 1989، ص234.

ب- جمال القرآن اللغوي : هو ما يسترعي انتباه القارئ أو السامع للقرآن الكريم في وضع الحروف ، ونظام الترتيب للكلمات التي تختلف كل الاختلاف عما تألف الناس عليه في كلامهم والدليل على ذلك هو إذا تلي القرآن أمامك وسمعت لحروف الكلمات المتلوة على المسامع خارجة من مخارجها الأصلية ، فإنك تحس بنشوة وسعادة تغمرك من جراء ضم هذه الحروف إلى بعضها البعض ، ومن خلال ذلك تلاحظ على هذه الحروف أن فيها ما ينقر وما يصفر وما يخفى وما يهمس ، وهذا يجهر إلى غير ذلك مما هو وارد في علم التجويد ⁽¹⁾ . وبعض هذه الخصائص هي :

1- إرضاءه العامة والخاصة ، وذلك لأن القرآن الكريم إذا تلي على العامة شعروا بعظمته وجلاله ، وفهموا منه حسب مداركهم واستعدادهم . وكذلك الخاصة إذا قرأوه أو تلي عليهم أحسوا بالراحة والثقة التامة التي تتلج صدورهم وتنير قلوبهم بأنوار الإيمان والاستئناس بالله تعالى وأنهم بين يدي كلام ليس كمثله شيء من كلام البشر ⁽²⁾ .

فالقرآن الكريم موجه لجميع الخلق على اختلاف أصنافهم و مداركهم العقلية والثقافية ويؤثر فيهم كافة ، لأنه يخاطب العقل بأدلة واضحة لا تعقيد فيها ، مثل ما هو موجود في تلك البراهين التي يتقدم بها الفلاسفة لإقناع غيرهم ⁽³⁾ .

1- محمد عبد العظيم الزرقاني ، مناهل العرفان في علوم القرآن ، 312/2 ، ينظر : ابن الشيخ الحسن سفيان المعجزة القرآنية ، دار الشهاب باتنة الجزائر ، ط : 1 ، 1983 ، ص 121-122 .

2- المرجع نفسه : ص 113 .

3- بلقاسم بغدادي ، المعجزة القرآنية ، ديوان المطبوعات الجامعية الجزائر ، د-ط ، د-ت ، ص 584-585 .

2- إقناعه للعقل والعاطفة معا : لأن القرآن الكريم يتوجه إلى مخاطبة العقل والقلب ونجده يضم في طياته الحق والجمال التي هي غاية لا يرتقى إليها بشر مهما بلغ من العلم . ومن ذلك ما جاء في قوله تعالى : {وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِي الْمَوْتِ إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ } (1). ومعنى هذه الآية أنها تبين الاستدلال العقلي على البعث ، كيف يهز النفوس ويثير العاطفة وكذلك ما جاء في قوله تعالى : {أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ، تَبْصِرَةً وَذِكْرَى لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ ، وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبَارَكًا فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَبَاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ ، رِزْقًا لِلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلَدَةً مَيِّتًا كَذَلِكَ الْخُرُوجُ } (2). نلاحظ في هذه الآية الكريمة جمال ساحر، وإعجاز باهر يشعر به الإنسان ذو العقل السليم ، ويقتنع بتلك الأدلة الواردة فيها (3).

3 - جودة السبك في القرآن الكريم: أي أنه بلغ في هذا المجال أسمى الدرجات بالنسبة لتمامك وترابط أجزاءه وتماذك كلماته وجمله وآياته وسوره، مع طول نفسه، وتنوع مقاصده ، وتلويحه في الموضوع الواحد. والدليل على ذلك هو أنك إذا ما أخذت مصحفا وفتحته دون قصد في آية معينة وقرأت ما وقعت عليه عيناك وتأملتة تلاحظ عليه أنه

1- فصلت : 39 .

2- ق : 6- 11 .

3- محمد عبد العظيم الزرقاني ، مناهل العرفان في علوم القرآن ، 114/2 .

وحدة مترابطة الأطراف متآلفة الأوصال، ومتساندة الأعضاء، حيث قال فيه جل شأنه ⁽¹⁾: { وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ، فَرَعَانَا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ } ⁽²⁾.

4- البراعة القولية في تصريفه أو الكثرة الفنية في الكلام ، ومعنى ذلك أن القرآن الكريم يأتي بالمعنى الواحد بألفاظ وطرق متعددة ، وبقدرة عالية تتوقف عندها أنفاس بلغاء البيان وفصحائه ، والبرهان على هذا الأمر واضح لا يغيب عن الإنسان الذكي البصير، لدى تلاوته للقرآن الكريم . ويمكن الإستدلال " على أن القرآن معجزة بأسلوبه ، إن التأليف في البيان العربي ولد ونشأ وأينع وترعرع في جو القرآن " ⁽³⁾.

هذه بعض الخصائص المتعلقة بلفظ القرآن الكريم التي تبرز لنا التلاؤم الواضح بين الشكل والمضمون والجزالة اللغوية وقوة متانتها. " إن القرآن الكريم يستثمر دائماً أقل ما يمكن من اللفظ ، في توليد أكثر ما يمكن من المعاني : تلك ظاهرة بارزة فيه كله ، يستوي فيها مواضيع إجمالية التي يسميها الناس مقام الإيجاز ، ومواضع تفصيلية التي يسمونها مقام الإطناب ، ولذلك نسميه إيجازاً كله ، لأننا نراه

1- المرجع السابق ، 316-315/2 .

2- الزمر : 27-28.

3- محمد الصالح الصديق ، البيان في علوم القرآن ، ص235.

في كلا المقامين لا يجاوز سبيل القصد ، ولا يميل إلى الإسراف ميلا ما ، ونرى أن مراميه في كلا المقامين لا يمكن تأديتها كاملة العناصر والحلى بأقل من ألفاظه ولا بما يساويها ، فليس فيه كلمة إلا وهي مفتاح لفائدة جلية ، وليس فيها حرف إلا جاء لمعنى" (1).

وعلى ضوء هذا المسلك الذي توصف به اللغة القرآنية التي قيل عنها بأنها : " مختارة منتقاة بما يناسب أغراضها ، وبما يؤثر في النفس الإنسانية ، ويستميلها إلى الإستجابة والإذعان" (2). و أصبحت اللغة قد فتحت أمام الكتاب والأدباء مجالا واسعا ، في التصرف في أفانين القول المستوفية للأغراض الهادفة ، والإبتعاد عن القوالب الجاهزة والأدوات اللفظية ، التي تثقل من كاهل المتلقي ، واستعابه لها ، نظرا لما تحتوي عليه من الإبهام والإنغلاق.

وتسهيلا لمهمة البحث في مجال إكتشاف علاقة التأثير بلغة القرآن الكريم ، فضلنا أن نقوم بتجزئة هذا البحث إلى عناوين فرعية ليتسنى لنا الوقوف على التأثير ، وما هي الأسس القاعدية التي إستند عليها ؟ .

1- محمد عبد العظيم الزرقاني ، مناهل العرفان في علوم القرآن ، 2 / 326.

- محمد الصالح الصديق ، البيان في علوم القرآن ، ص 235

2- محمد عبد العظيم الزرقاني ، مناهل العرفان في علوم القرآن ، 1 / 326 .

2- أسماء القرآن في النثر

إن المتتبع لأثر القرآن في النثر الجزائري الحديث يلاحظ لفظه " القرآن " ذاته ، التي وردت في النصوص النثرية لكتاب النثر ، التي لم تكن بطبيعة الحال جديدة بالنسبة لعصر النهضة بل وردت منذ عصر صدر الإسلام واستمرت بعده مع مرور الزمن ، لذلك لم تكن غريبة على كتاب العصر الحديث ، فهم على دراية وإلمام بمشتقات تلك اللفظة ودلالاتها. وعند عودتنا إلى بعض المصادر اللغوية ، ونخص بالذكر ما جاء عن الصحاح للجوهري لكلمة " قرأت " الشيء قرأنا بمعنى جمعته وضممت بعضه إلى بعض ، ومنه قولهم : وما قرأت الناقة جنينا أي أنها لم تضم رحمها على ولد .

وفيما جاء كذلك في هذا الصدد : قرأت الكتاب قراءة وقرأنا ومنه سمي القرآن . وقال أبو عبيدة : سمي القرآن قرأنا لأنه يجمع السور فيضمها ، وجاء في قوله تعالى : { إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ }⁽¹⁾ . أي جمعه وقراءته ، وكذلك ما جاء في قوله تعالى : { فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ }⁽²⁾ . بمعنى قراءته⁽³⁾ .

فهذه اللفظة المعبر عنها بالقرآن ومجيئها بكثرة لربط الصلة بين القرآن والنثر التي لا تتوقف عند هذه المفردة بالنسبة لكتابات رجال الإصلاح في الجزائر بطبيعة الحال ، فلفظة القرآن وردت في العديد من آيات الذكر الحكيم بأسماء أخرى مغايرة وهي تهدف

1- القيامة : 17 .

2- القيامة : 18 .

3- الجوهري ، الصحاح ، دار العلم للملايين بيروت ، 1948 ، 65/1 .

إلى نفس التسمية كالفرقان ، والذكر ، والتنزيل ، والوحي ، والكتاب ، والنور ، ويذكرها كتاب رجال الإصلاح في كتاباتهم بأنها أسماء للقرآن أو صفات له ، نذكر منها على سبيل المثال ما ورد في الإشادة بتعليم اللغة العربية التي تيسر لنا فهم القرآن الكريم الذي نجد أن عبد الحميد بن باديس يتحدث عن تلك الإشكالية التي تطرح على شكل سؤال يذكر فيه لفظة القرآن قائلاً : " وبأي شيء يفهمون هذا الدين ويصلون منه إلى ما فيه من تربية وتهذيب إلا باللغة العربية لغة القرآن العظيم ؟" (1).

وفي الاتجاه نفسه الذي يتساءل عنه ابن باديس ، نلتقي مع الإبراهيمي الذي يشير بأن فهم الإسلام لا يتأتى لنا إلا عن فهم الآيات القرآنية ، مشيراً إلى ذكر لفظة القرآن ، الذي وحد بين الديانات ، واتباع نهج النبي المبعوث من الإله الواحد الأحد في قوله : " وهذا هو الإسلام الواحد متجلباً في آيات القرآن . دينا واحداً جاء به نبي واحد عن إله واحد " (2).

وإذا ما انتقلنا من لفظة القرآن إلى غيرها مما ورد عن كتاب النثر في عصر النهضة التي نجدها في خطبة الافتتاح للدروس العلمية الإسلامية لابن باديس الذي استعرض فيها بعض الصفات التي وصفت بها لفظة القرآن الكريم حيث يقول : " هو الذكر الحكيم ، هو النور المبين هو الصراط المستقيم هو حبل الله المتين ، فمن تمسك به نجا ومن تركه كان من الهالكين " (3).

1- ابن باديس ، حياته وأثاره ، جمع ودراسة : عمار الطالبي ، 563/3.

2- محمد البشير الإبراهيمي ، أثاره ، 90/1.

3- عبد الحميد بن باديس ، أثار الإمام ، من مطبوعات وزارة الشؤون الدينية، ط : 1 ، 1985 ، 171/1.

تلك هي بعض الصفات التي وصف بها القرآن الكريم مثل لفظة الذكر التي وردت في قوله تعالى : { إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ } (1). أي أنه يخاطب سبحانه وتعالى : محمد صلى الله عليه وسلم بعظمة شأنه سبحانه الحافظ لهذا القرآن ، وليس لأحد القدرة أن يزيد فيه أو ينقص أو يبدل أو يغير مهما كان شأنه (2).

وفي الانتقال من لفظة " الذكر " إلى لفظة " النور " التي وردت في قوله تعالى : { الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَاَلَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ } (3). أي أنهم اتبعوا ذلك القرآن المنير الذي شرع شريعته المجيدة فأصبحوا من الفائزين بالسعادة السرمدية (4). التي لا يمكن أن ينالها إلا أولئك الذين هداهم الله لنوره ، والاطلاع على كتابه ، واكتشاف أسرارهِ ، وعظمة شأنهِ ، وإحكامهِ ، ورصانة بلاغته ، ذلك هو الكتاب المبين الذي يعبر عنه محمد البشير الإبراهيمي بلفظة الكتاب ويعني به القرآن الكريم الذي جاء بـ : " اللسان العربي فهو لسان هذا الدين الذي نزل به كتابه وهو- يعد-ترجمانه الحاذق الذي نقل الإسلام وما فيه من عقائد سامية ، وحكم غالية

1- الحجر : 9.

2- الصابوني ، صفوة التفاسير ، 106/2

3- الاعراف : 157.

4- الصابوني ، صفوة التفاسير ، 476/1.

عالية ، وأسرار جليلة وآداب قيمة إلى أمم أجنبية عن لغة هذا الدين ، وأخذهم بها أخذة السحر بكيفية تريهم أن الدين هو اللغة ، وأن اللغة هي الدين فبينما هما دين ولغة إذ هما شيء واحد " (1).

وهذا هو الربط الذي حاول الإبراهيمي أن يقيمه بين اللغة والدين ، ويحاول من خلال ذلك الوصول إلى إستنتاج التوحيد والتماسك بين اللغة والدين ، كما ورد لفظ الكتاب في مثل قوله تعالى : {وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ } (2). ومعنى الكتاب هنا هو القرآن لأن الله يقول للرسول صلى الله عليه وسلم ، وإني أنزلت إليك يا محمد القرآن بالعدل والصدق الذي لا ريب فيه ومصدقاً للكتب السماوية التي سبقتة ، ومؤتمناً عليه وحاكماً على ما قبله من الكتب (3). كما يذكر الزمخشري بأنه الرقيب على سائر الكتب السماوية لأنه يشهد لها بالصحة والثبات (4).

وبهذه الأدلة الواضحة من القرآن الكريم نجد أنه تصح تسميته بالكتاب وأنه من

1- الإبراهيمي ، أثاره ، 35/1.

2- المائدة : 48.

3- الصابوني ، صفوة التفاسير ، 346/1.

4- الزمخشري ، تفسير الكشاف ، تحقيق مرسى عامر ، دار المصحف القاهرة ، ط : 2 ، 1977

. 30/2

الصفات التي أطلقت عليه لتعبر على أنه هو القرآن الكريم ، وهو الذكر الحكيم ، وهو الفرقان وهو النور المبين وغيرها من الصفات التي ذكرنا بعضها منها ، مما يوصف به الذكر الحكيم والذي كان له أثر كبير على أقلام الكتاب الجزائريين الإصلاحيين ، ويتضح ذلك في المحاولات التي بادروا بها فيما يخص الأسلوب القرآني وما يخص مفرداته مثل الصفة والموصوف التي ظهرت في أسلوب أولئك الكتاب الإصلاحيين التي سنتعرض لها فيما يلي :

3- الصفة والموصوف

إن الحديث عن المفردة القرآنية والطابع الذي طبعت به ، يحق لنا في عجالة الوقوف عند لفظ الصفة في القرآن العظيم ودورها في النثر الجزائري الحديث ، الذي حاول فيه الكتاب أن ينتهجوا تلك الدقة التي لاحظوها في المعنى والوصف الذي يجعل الموصوف أكثر حضوراً في ذهن والوجدان ، وهو ما يؤدي إلى أن يكون الوصف جزءاً من التلاحم العضوي فيما يخص التعبير ، ولا يمكن أن يكون وصفاً زائداً⁽¹⁾. ولو وقع الحذف بالنسبة لهذه الصفة لأصبح الموصوف دون جدوى للتأثير في الواقع ، وصار غير واضح الدلالة وهو نفس الإتجاه الذي نجد أن محمد كامل جمعة يذهب إليه في قوله : "ومن وسائل القوة استخدام الصفات التي تترك في نفس القارئ أثراً جمالياً إلى جانب قوة دلالتها ، والصور التي تثيرها في خيال القارئ " ⁽²⁾.

1- شلتاغ عبود شراد ، أثر القرآن في الشعر العربي الحديث ، ص 119 .
2- بوحجام ، أثر القرآن ، 154/1 . نقلاً عن محمد كامل جمعة ، الأسلوب ، مكتبة القاهرة الحديثة، ط: 2 ، 1963 ص 82 .

وإذا ما رغبتنا في زيادة الوضوح أكثر بالنسبة للوصف وكل ذلك نجده لا يخرج عن التعريف الذي ذهب إليه من أن الوصف هو " ذكر بعض الأشياء تخص الشيء وليست ثابتة على حده ، كما يقال في الدار إنها الواسعة أو الضيقة أو المبنية بالحصى والأجر وكما يقال في الرجل الطويل الأسمر الأقنى ، وكل هذه الأوصاف لا تأتي على الحد بل يشرك الموصوف بها غيره فيها ، ومثل ذلك التجلية التي يستعملها الحكام والكتاب فيمن لم يعرفوه باسمه وعينه ونسبه فيكون وصفهم الرجل بحليته مقنعا فيما يمكن الإحتياط إذا لم يجدوا سبيلا إلى غير ذلك "(1).

ونتيجة لذلك التأثير النفسي التي تتركها تلك الصور في خيال القارئ نجد أن الكثير من الكتاب الجزائريين الذين تأثروا بهذا الأسلوب الوارد في التراكيب القرآنية حاولوا تقليدها من ذلك مثلا : خلقا جديدا ، حسابا شديدا ، العذاب الشديد ، زبر الحديد ، سواء السبيل والصبر الجميل ، الصراط المستقيم ، صرحا سامقا وغيرها ، وهو ما نجده قد استعمل بكثرة لدى جُل الكتاب الجزائريين .

إن الوضع السائد بالنسبة للحياة الاجتماعية والسياسية ، والاستبداد القائم من طرف الاستعمار الفرنسي، هو الذي دفع الكتاب الجزائريين إلى الكتابة والإبداع ، ونشر الثقة في النفس والأمل في المستقبل ، لأن المعاناة التي تعيشها في حاجة إلى ما يذلها ، ولا يتأتى ذلك إلا بالصبر والتجدد ، وهو المجال الوحيد الذي يؤدي إلى الانتصار ، ولأجل ذلك كان من الأجدر

1- قدامة ، نقد النثر ، دار الكتب العلمية بيروت لبنان ، 1982 ، ص22 .

استعمال المفردة في المجال الذي يخفف عن النفس تلك الحالة من المعاناة فكانت لفظة " الجميل " التي تلائم كلمة " الصبر " ، لأن هذا التعبير هو الذي أمر الله رسوله صلى الله عليه وسلم أن يتمسك به عندما يصاب بالأذى من طرف كفار قريش الذين يقفون ضد دعوته بالمرصاد في قوله تعالى : { فَاصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا }⁽¹⁾. لأن جزاء الصبر الجميل هو النصر الذي وعده الله به على المعتدين.

وكذلك ما جاء على لسان يعقوب عليه السلام بعد الاحتيال الذي صدر من أبنائه عندما زعموا أن الذئب أكل أخاهم يوسف الذي ألقوا به في غياهب الجُب فالتقطه بعض السيارة ، وفي هذا ما جاء في قوله تعالى: { وَجَاوُوا عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبِرْ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ }⁽²⁾. لذلك وعد بالتعويض لمن اتصفوا بهذه الصفة الفاضلة التي لها الجزاء الأوفى من الله ، والذي عبر عنه في قوله تعالى : { قُلْ يَا عِبَادِ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمْ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ }⁽³⁾. وفي هذا دليل على الحث بالالتزام على الصبر بالنسبة لمن يعاني المضايقة من أعداء الدين والوطن من طرف المستعمرين وأعدائهم ، لذلك نجد الإبراهيمي يدعوا إلى الإلتزام بهذه الفضيلة لمن أراد تقوية الفرصة على الإدعاءات

1- المعارج : 5 .

2- يوسف : 18.

3- الزمر : 10.

الاستعمارية الكاذبة في قوله : " والصبر الجميل إذ تقولت السياسة .
والعزيمة الصادقة إذ ساور البأس " (1). وهكذا نجد أن الإبراهيمي يرغب
المواطنين باتباع المنهج الإله الذي يوفى أصحابه أجرهم بغير حساب ،
وهو عهد تعهد به للذين صادقوا الله على الإلتزام بأوامره ، وإجتنب نواهيهِ
في شتي مجالات الحياة الاجتماعية ولم يتخل كتاب النثر الجزائري عن
النعوت القرآنية واستعانتهم بصفاته في رسم معانيه ، ومحاولة تحري
الدقة ، وهذا الإبراهيمي يوضح للأفراد من رجال الدين أن يكونوا
متحررين من القيود المفروضة عليهم وأن على " الحكومات الإسلامية
وجماعة المسلمين لا تكيد لدينها بل تنصح وتسدد وتقارب ولا تختار
للوطناء الدينية إلا أصحاب المؤهلات العلمية المستكملين للشروط الدينية
؛ لأن وراء الجميع رقبيا عتيذا من الدين وأمام الكل حسابا شديدا يوم
الدين " (2). بخلاف ما هو واقع في الجزائر في اختيار رجال الدين من
طرف حكومة متسلطة ، وأن هؤلاء الرجال ليسوا من الأصناف
المرغوب فيهم ، لعدم توفر الشروط المطلوبة ، و اللازمة فيهم .
والإبراهيمي استعمل في نصه هذا كلمة الوصف (الشديد)
المقتبسة من القرآن التي جاءت في قوله تعالى: { وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ
عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِ فَحَاسَبْنَاهَا حِسَابًا شَدِيدًا
وَعَذَبْنَاهَا عَذَابًا ثُكْرًا } (3). ومعنى الآية الكريمة أن هناك
عقابا من الله سبحانه وتعالى للطالين بأنواع من العذاب
الساحق من مثل

1- الإبراهيمي ، عيون البصائر ، 169/1.

2- المصدر نفسه ، 75/2.

3- الطلاق : 8 .

الجوع والقحط وغيره ⁽¹⁾. وهذا الذي جيئ به ليكسب موصوفه وضوحا ودقة وتأثيرا .

وكذلك ما جاء على لسان ابن باديس في مقال له بعنوان " ما هكذا عهدنا أدب صروف " الذي جاء فيه الرد على صروف موضحا له بأن مدينة عاد هي قصة وردت في القرآن الكريم ، وهي قصة واقعية فعلا ، وليست قصة خرافية كما يعتقد صروف وأن الله " كان يخوف العرب أن يحل بهم ما حل بالأمم قبلهم ، ولقد خلت قبلهم أمم كثيرة جاءتهم رسلهم بالبينات فكذبوا فأخذهم الله بالعذاب الشديد " ⁽²⁾.

وصفة هذه الجملة أي العذاب الشديد جاءت في قوله تعالى : { الَّذِي جَعَلَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِي الْعَذَابِ الشَّدِيدِ } ⁽³⁾. وهذه الصياغة لها أصول قرآنية تكررت في عدة أوصاف قرآنية مثل : (شديد العقاب) و(شديد العذاب) عدة مرات ⁽⁴⁾.

وهكذا ترد صفات أخرى من مثل : زبر الحديد ، خلقا جديدا ، الصراط المستقيم وهي مما استوحى من القرآن الكريم ، وساعد الكتاب على تضمين مقالاتهم ، وخطبهم مادة لغوية ثرية تتميز بالدقة ، والوضوح في التعبير.

وعن صفة الإنكار والجحود ، والإحباط الذي وقع لأمة الإسلام والمسلمين الذين بلغتهم صور عكسية كما يذكر ابن باديس أن الإسلام صور لهم " تصويرا عكسيا مخالفا لحقيقته

1- أنظر الصابوني ، صفوة التفاسير ، 402/3.

2- ابن باديس ، حياته وأثاره ، جمع ودراسة : عمار الطالبي ، 495/3.

3- ق : 26.

4- البقرة : 165 ، المائدة : 2.

فابتعدوا عنه وأصبحوا عالة عليه. فلا بد من مواصلة السعي لرفع مستوى هؤلاء المسلمين العقلي والروحي على النمط الذي يرضيه روح الإسلام وبهذا يخلق الله الأمة خلقا جديدا يمكنها من إستعادة مجدها بين الأمم (1) "

ولقدوردت لفظة الصفة والموصوف من طرف صاحب النص التي استمدتها من الأسلوب القرآني في عبارة " الخلق الجديد" التي اقتبست من قول الكفار الذين لم يؤمنوا بأنهم مبعوثون خلقا جديدا بعد موتهم ، وضلوا على ضلالهم يهزؤون بهذا الخبر الوارد عليهم لأن تصورهم بهذا الأمر كان قاصرا ، وأصبح في نظرهم من المستحيل ، قال الله تعالى : { انْظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ، وَقَالُوا أَبَدًا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا إِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا } (2). وفي هذا الآية ما يشير بأن المشركين المكذبين لا يجدون مسلكا إلى الهدى لأنهم لم يؤمنوا بالبعث ، وخاصة إذا ما أصبحوا ذرات مفتتة كالتراب ، ويتساءلون هل سيبعثون إذا ما صاروا إل تلك الحالة من الفناء ، وكان الجواب أن الأمر حاصل ولو كنتم من الأجسام الصلبة كالحديد أو الحجارة في آية أخرى (3).

ويرد الإبراهيمي العبارة نفسها في مقال له بعنوان : "من مشاكلنا الاجتماعية "، وفي فقرة يتحدث فيها عن الشباب الجزائري المثقف بثقافة غيره من أبناء الأمة الإسلامية الذين " قد يزيغ بعضهم الزيفة الكبرى فيتزوج بأجنبية ، ينفق عليها ما ينشئ ابنة عمه

1- ابن باديس ، حياته وأثاره ، جمع ودراسة : عمار الطالبي ، 495/3 .

2- الإسراء : 48-49 .

3- أنظر الصابوني ، صفوة التفاسير ، 163/2 .

خلقا جديدا متعلما مهذبا مدبرا منظما ، ولا نلوم أولئك ولا هؤلاء ،
لأن الحضارة الغربية

فسدت أذواقهم ⁽¹⁾. والتساؤل المطروح هنا بالنسبة لهذين المصلحين
بهذه الطريقة التي لا تمت بصله للإنكار الذي تعمده كفار قريش ، بل
نجدعكس ذلك تماما ، إذ كان هدفهم هو البعث الجديد الذي من سماته
التفاؤل للمستقبل المنتظر من عودة الشباب الجزائري إلى ثقافته الإسلامية
التي تربطه بالشخصية الوطنية ، وتحرره من التبعية الثقافية التي أراد
المستعمر نشرها في أذهان شباب الجزائر ، الذي حاد أو أوشك أن يحيد.
وإذا ما تمعنا النظر في كيفية الأسلوب المتبع في العصر السابق للعصر
الحديث ، المتصف بكثرة ألوان البديع الذي أصبح رائجا لدى المثقفين
والكتاب ، وأعجبوا به أيما إعجاب من مثل الجناس والطباق والتقابل
والتورية وغيرها من الموضوعات البديعية إلا أن ما يلاحظ على كتاب
النهضة هو ما إستولى على نفوسهم من تلك الهموم التي حلت بهم
وبمجتمعاتهم ، التي جعلتهم يحاولون التخلي عن ذلك الأسلوب المتبع من
طرف سابقهم ، وهو محاولة تجنب الارتباط بالتنميق والتعلق بالشكل
والزخرف اللفظي . لأن هذه العناصر البديعية ، التي جاءت في القرآن
الكريم إنما كان ذلك من أجل توضيح البيان القرآني .

وهو ما نجده في الوقت نفسه بعيدا كل البعد عن الزخرف والتنميق
اللفظي ، مثل ما هو الأمر في التعبيرات التي وردت في القرآن الكريم التي
تحتوي على أشكال بديعية عالية ، انجر عنها
وقوع بعض الكتاب الجزائريين تحت تأثيرها ، كالطباق والتقابل
وغيرها مما سنتحدث عنه فيما يلي :

1- محمد البشير الإبراهيمي ، عيون البصائر ، 324/2.

1-4- الطباق :

إن أصل الطباق هو الجمع في الكلام بين الشيء وضده ، لتوضيح الغاية من جهة وتعميق الفكرة و التأثير في المتلقى من ناحية أخرى . وهو من قبل تجاور المفردتين أو تباعدهما .

ولا نقصد بذلك ما ذهب إليه فقهاء اللغة من إطلاق اللفظ على المعنى وضده ، مثل ما هو الأمر في لفظ " الجون " الذي يطلق على الأبيض والأسود ، و " أسر " المتمثل في الإخفاء وضده وغيرها من الألفاظ الواردة في هذا الشأن⁽¹⁾.

وما نحاول إستعراضه هنا هو المقابلة بين اللفظ وضده من لفظ آخر ومجيئهما معا في سياق واحد . ومن ذلك ما ورد في كلمة ألقاها الإمام عبد الحميد ابن باديس بعنوان : " ما جمعتة يد الله لا تفرقه يد الشيطان " إذ يذكر أن ما جمع بين الجزائريين هو الدين الإسلامي الذي وحد بين هذا الشعب الأبدي منذ عشرات القرون ، وربط بينهم في كل الملمات وجعلهم أمة جزائرية واحدة قائلا :

" إن أبناء يعرب وأبناء مازيغ قد جمع بينهم الإسلام منذ بضعة عشرة قرنا ، ثم دأبت تلك القرون تمزج ما بينهم في الشدة والرضا ، وتؤلف بينهم في العسر واليسر ، وتوحدهم في السراء والضراء حتى كونت منهم منذ أحقاب بعيدة عنصرا مسلما جزائريا أمه الجزائر وأبوه الإسلام ، وقد كتب أبناء يعرب وأبناء مازيغ آيات اتحادهم على صفحات هذه القرون

1- علي عبد الواحد وافي ، فقه اللغة ، دار نهضة مصر للطباعة والنشر ، ط:7 ، 192/7.

بما أراقوا من دمائهم في ميادين الشرف لإعلاء كلمة الله ، وما أسالوا من محابرههم في مجالس الدرس لخدمة العلم" (1).

نلاحظ في هذا النص محاولة عبد الحميد بن باديس الرد بالأدلة والحجج المقنعة على من يحاول زرع الفتنة بين أبناء الأمة الواحدة ، حتى يتسنى لهم الاستمرار والبقاء في هذا الوطن الذي لا ينبغي أن يدنس من طرف العملاء وأتباعهم .

أما عن الناحية البلاغية فإننا نجد الكاتب إلّترم بنقل المعاناة التي يعانيها الشعب الجزائري من الفرنسيين ، كما جاء في قوله تعالى : {شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ فَمَن شَهِدَ مِّنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُم وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ} (2). ومعنى ذلك أن الله يريد التخفيف بهذه الرخصة ورفع المشقة ، وفي قوله { يُرِيدُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ } (3). فيه من المحسنات البديعية ما يسمى بطباق السلب الوارد في الآية الكريمة التي تقيد بها الكاتب في إستعماله لكلمة التضاد أو التقابل بين كلمتا " العسر واليسر " ، وإن كان الكاتب في نصه قدم العسر قبل اليسر تماشياً مع ما ورد في قوله تعالى : { إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ، إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا } (1).

1- ابن باديس ، حياته وأثاره ، جمع ودراسة : عمار الطالبي ، 483/3 .

2- البقرة : 185.

3- البقرة : 185.

ومعناه أن بعد الإحراج والضييق لا بد وأن يأتي الفرج وبعد الشدة لا بد وأن يكون بعده مخرج⁽²⁾.

كما نجد طباقاً آخر في جملة : " وتوحدهم في السراء والضراء " ، الذي إقتبسه الكاتب من قوله تعالى : {الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَافِئِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ} ⁽³⁾ . ومعنى "السراء والضراء " في حالة كثرة الخير واليسر وفي حالة الشدة والضييق والعسر ، وفي كلتا الحالتين يجب أن ينفقوا ما استطاعوا عليه سواء كان ذلك كثيراً أو قليلاً ⁽⁴⁾.

ونجد التعبير نفسه ينص على الطباق الذي هو من المحسنات البديعية ، وفيما يخص الاقتباس من القرآن الكريم الذي تتضمنه النصيحة التي قام بتوجيهها الإبراهيمي لمجلس الجمعية الجديدة في التقرير الأدبي الذي قدمه أمام الوفود القادمة من أنحاء الوطن الجزائري من أجل التعاون والتلاحم ، لإستكمال المسيرة المقدسة ، ومطالبة الحقوق المشروعة لرفع الظلم وذلك في دعوته : " وأوصيكم بالتضامن في السراء والضراء ، والتعاضد في الآراء والأعمال فإن التخاذل أول مراتب الخيبة " ⁽⁵⁾ . تلك هي الوصية التي أوصى بها الإبراهيمي من ضمن

1- الشرح : 5- 6.

2- أنظر الصابوني ، صفوة التفاسير ، 576/3 .

3- آل عمران : 134.

4- الزمخشري ، تفسير الكشاف ، 200/1.

5- محمد البشير الإبراهيمي ، آثاره ، 355/3.

عدة وصايا تدور حول الأهداف السامية ، ومن جملتها الالتفاف حول التضامن الذي يرسخ القواعد الأساسية لبناء الشخصية الوطنية ، والذود عنها بكل ما أوتوا من حنكة وتدبير وسلامة الذوق لرفع المهمة.

وجاء في نص آخر لابن باديس بعنوان : " الجنسية القومية والجنسية السياسية " وفي الفقرة التي يتحدث فيها عن البرلمان الفرنسي الذي استحوذ على نفوذ الشعب وتسلط على رقابهم ، يدعو فيه الأمة الجزائرية إلى الاستيقاظ من السبات العميق ، والتفطن إلى المكائد التي تحاك ضدهم ، وأن يتوكلوا على ما دعاهم إليه رب الخلق ، وأن يستعملوا عقولهم في كل ما يواجههم ، وما يحاك ضدهم ، من جراء تلك التصرفات السلبية من طرف البرلمان الفرنسي ، حيث يقول لابد " وأن نتحقق أن الموقف الذي يقفه البرلمان الفرنسي ، يوم تعرض عليه المسألة هو الذي يوجه الأمة الجزائرية إحدى الوجهتين فالمستقبل بيده والأمر لله من قبل ومن بعد " (1).

والعبارة الواردة في النص " والأمر لله من قبل ومن بعد " هنا طباق مقتبس من قوله تعالى: { فِي بَضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ } (2).

ومعنى ذلك أن الأمر يعود في كل شيء لله في الأول وفي الآخر ، من قبل الغلبة (2) ومن بعد الغلبة ، وتلك الأيام نداولها بين الناس ، وليس الأمر إلا بقضاء الله وقدره .

1- ابن باديس ، حياته وآثاره ، جمع ودراسة : عمار الطالبي ، 354/3 .

2- الروم : 4 .

3- أنظر الصابوني ، صفوة التفاسير ، 471/2 .

وهو ما يدعو الشعب الجزائري أن لا يقنط من رحمة الله جراء تصرفات البرلمان الفرنسي الذي ذكره ابن باديس في نصه ، بل عليه بالسعي بشتى الأساليب والوسائل لإزاحة ذلك التسلط والإستبداد الذي حل بهم وبأهاليهم .

2-4- المقابلة :

والمقابلة هي : " المواجهة والتقابل مثله . ومقابلة الكتاب معارضته "(1). وهي نوع من الطباق خصص بهذا الاسم لأنه " يؤتى فيه بمعنيين متوافقين أو أكثر ثم يؤتى بالمقابل ذلك على سبيل الترتيب "(2). والتجاوز الذي ينسق الألفاظ فيما بينها؛ لأن : " للعادات اللفظية أثراً... لا يقل عن ... أهمية ، وهو أنها أحيانا تضع للفكر قوالب وصيغا جاهزة. فلقد يخطر ببالنا فكرة وعندما ننتقل بها من حيز التصور إلى مرحلة التعبير نهىئ لها الكلمة المناسبة . إلا أن تلك الكلمة قد تكون ملازمة لغيرها ، بحيث لا تكاد تفارقها في أكثر ما نسمعه من الأحاديث ، أو نقرأه من المقالات ، فلا نجد مناصا من إستعمالها معا ، حتى ولو أن الفكرة لا تقتضي منها إلا الكلمة الأولى "(3).

ويبدو من هذا الطرح إلتزام الكتاب من الأعضاء البارزين في جمعية علماء المسلمين الجزائريين تضمين نصوصهم عبارات متجاوزة على غرار ما ورد في النصوص القرآنية مثل :

1- الجوهري ، الصحاح ، 1797/5.

2- أحمد مصطفى المراعي ، علوم البلاغة ، دار القلم بيروت لبنان ، ط : 2 ، 1984 ، ص 299 .

3- حنفي بن عيسى ، محاضرات في علم النفس اللغوي ، ص 179.

الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر، والضعف والقوة ،والحي والميت،
والحياة والآخرة والسراء والضراء ، والعسر واليسر... إلخ. واعتمادهم
للأسلوب المقتبس من القرآن الكريم الواضح في النثر الجزائري الحديث
لدى أولئك الذين ساقهم الله لنصرة المظلومين ، وإحقاق الحق وإبطال الباطل
، والدعوة إلى المساواة والعدل مثل ابن باديس ، والإبراهيمي ، والعربي
التبسي ومحمد السعيد الزاهري وغيرهم ممن أنار الله عقولهم بالعلم النافع
الذي يعتبر من السلاح المهم لكل أمة.

فابن باديس في خطابه الذي ألقاه في الاجتماع العام لجمعية العلماء
المسلمين الجزائريين بنادي الترقى بالجزائر العاصمة ، نجده يتعرض إلى
الحديث عن أهداف الجمعية ، بما فيه فريضتي الأمر بالمعروف ، وإحياء ما
كان عليه السلف الصالح ، والارتباط بالمنهج الذي جاء به الإسلام الواضح
المستمد من القرآن ، وذلك في قوله : " إن جمعيتكم تفخر بأنها قامت بإحياء
فريضتي الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في وقت قل القائمون فيه
بهاتين الفريضتين وأن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر هما مرجع
الفضائل الإسلامية ومنبعها وقامت بإحياء هدى سلفنا الصالح في وقت
طغت فيه البدع والأهواء على ذلك الهدى حتى خيف عليه الإندثار . وأن
أول من رفع صوته بكلمة الحق في هذا الوطن وبلزوم الرجوع من بنيات
الطريق إلى نهج الإسلام الواضح ، وبوجوب إلتماس الهداية من كتاب الله
وما صح عن سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وما أثر عن سلف هذه
الأمة...، ولهم الفضل يوم مدوا أيديهم إلى بعضهم فأصبحوا أقوياء متعاونين
(1)"

1- ابن باديس ، أثار الإمام ، مطبوعات وزارة الشؤون الدينية ، 164/4 .

وإن ما جد في هذا النص اقتباس واضح مستمد من ثقافة الكاتب المستمدة من الثقافة الإسلامية المرتبطة بالقرآن الكريم ومن ضمنها الآية التي يقول فيها الحق تعالى : { الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْنُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَاَلَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ } (1).

ومعنى الآية أنها تبين صفة النبي محمد صلى الله عليه وسلم في كتب الأنبياء ومعرفته لدى علمائهم وأحبارهم ، وهو الذي يدعو إلى الخير والعمل به ، وتجنب مالا ينفعهم ويضرهم من الخبائث والحيل تخفيفاً عنهم من المشقة والأهوال (2).

والمؤكد لدينا في هذا كله أن هناك تقابلاً تجاورياً ثنائياً ينتمي إلى المحسنات البديعية المرتبط بالإتيان بالمعنيين ، ثم يؤتى بما يقابله على الترتيب ، وذلك في الاقتباس الحرفي لابن باديس في نصه السابق ، وبالتحديد في جملة : " الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر " .

وإذا ما انتقلنا إلى كاتب آخر وهو الإبراهيمي نجده يتجه إلى الغرض نفسه الذي يدعو إليه زميله ، وهو المحافظة على الإسلام وإقامة الشعائر الدينية ، والدعوة إلى الحق ، والصبر

1- الأعراف : 157.

2- أنظر الصابوني ، صفوة التفسير ، 476/1 .

- الزمخشري ، الكشاف ، 139/2 .

على المظالم ، والتعاون في كل الحالات الطارئة ، من أجل نصرة القضية العادلة ودفع الظلم على أبناء الأمة الجزائرية ، داعيا في حديثه الذي وجهه إلى أبناء الجزائر الأحرار " حثوا إخوانكم على إقامة الفرائض الدينية والاجتماعية التي أضاعوها كالزكاة والتأمر بالمعروف والتناهي عن المنكر والتواصي بالحق والصبر والرحمة والتعاون على البر والتقوى والتآلف والتحابب مستندين في ذلك على كتاب الله وحديث نبيه مستدلين بنصوصها على النهج السلفي لجمعيتكم "(1).

وإذا ما تمعنا جيدا في هذا النص لا نستغرب من أن صاحبه يقتبس من المصدر الأول والأساسي ، الذي هو القرآن الكريم ، لأنه كان من الرجال القلائل الذين أنجبتهم أرض الجزائر الملهمين برجاحة العقل وحسن التدبير للذود عنها بالكلمة والقلم ، مثله مثل الرواد الذين عايشوه وعاش معهم في عضوية الجمعية الإصلاحية .

والجملة التقابلية المقتبسة من الذكر الحكيم في هذا النص السالف الذكر ، وله علاقة فيما ورد في نص ابن باديس وهي جملة " الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر " . فالهدف واحد لكلا الكاتبين ، وهو الالتزام بتوجه الإرشاد والنصح ، لكي يستفيق أولئك المغيبون عن الحياة الواقعية بالنسبة لبعض الشباب الجزائري .

1- محمد البشير الإبراهيمي ، آثاره ، 180/3.

6 - الجمل

والجملة أو الجمل في اللغة معناه كما ورد في الصحاح و اللسان أن : " الجملة واحدة الجمل "(1). والجملة جماعة الشيء ، جمعه عن تفرقة ، وأجمل له الحساب كذلك . والجملة جماعة كل شيء بكماله من الحساب وغيره (2). قال تعالى : { وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا } (3). ومعنى ذلك أن هذا قول كفار مكة الذين تساءلوا قائلين هل نزل هذا القرآن على محمد دفعة واحدة كما هو الأمر في نزول التوراة والإنجيل فجاء الرد من الله على شبهة الكفار التافهة في قوله تعالى : { كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ } (4). أي أنزله الله على الرسول صلى الله عليه وسلم مفرقا ليستطيع قلبك يا محمد على تحمله فتحفظه وتعمل بمقتضى ما فيه (5).

والجملة هي الوحدة المركبة من كلمات منتقاة من أجل أداء مهمة الافصاح والتعبير عما يختلج في النفس من إحساس ، وفي هذا الصدد نجد أن الرافعي يقول أن : " الجملة هي مظهر الكلام وهي الصورة النفسية للتأليف الطبيعي ، إذ يحيل بها الإنسان هذه المادة المخلوقة في الطبيعة إلى معان تصورها في نفيه أو تصفها، ترى النفس هذه المادة المصورة

1- الجوهري ، الصحاح ، 1663/4.

2- ابن منظور ، لسان العرب ، دار صادر بيروت ، 1992 ، م 611/11.

3- الفرقان : 32.

4- الفرقان : 32.

5- أنظر الصابوني ، صفوة التفاسير ، 362/2.

وتحسها ، على حين قد يراها المتكلم الذي أهدفها لكلامه غرضا ، ولكنه بالكلام كأنه يراها "(1).

ونتيجة لما تتركه الجملة من بصمات لها دلالات الوقع في نفسية المتحدث والمتلقى على السواء وجدنا كتاب جمعية الإصلاح الجزائريين يلجأون إلى الأخذ من القرآن الكريم جملة كاملة لكونها تفيء بالغرض النفسي المرغوب في الكشف عنه ، وفي بعض الأحيان يكون ذلك الاقتباس بسبب الإعجاب بذلك النسيج القرآني ، ومحاولة محاكاته في أسلوبه ، لعل ذلك يكون عاملا مساعدا للإفضاء ، بما يكمن في صدورهم ، ونلاحظ كثرة الاقتباس لمثل الجمل التالية :

والراسخون في العلم ، تعاونوا على البر والتقوى ، الرحمن الرحيم ، جنات عدن عيشة راضية ، رجس من عمل الشيطان ، خذ الكتاب بقوة ، أفاك أثيم ، بأسهم بينهم شديد رجما بالغيب ، العسر يسرا ، وغير ذلك الكثير .

ومن تلك الأمثلة ما نجده بكثرة في نصوص كتابات رجال الإصلاح ، فابن باديس يتحدث في موضوع له عن غلو الصوفية ، في جعلهم الكمال عدم طلب الدنيا والآخرة بعنوان : " طلب الآخرة وحدها مذموم في الإسلام "(2). فيقول : " والمؤمن الكامل من يعرف حق ربه على عباده ، وما شرعه من حقوق بعضهم على بعض ، والقيام في كل ذلك بذكره

1- مصطفى صادق الرافعي ، إعجاز القرآن والبلاغة النبوية ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، ط:8 ، دت ص236.

2- ابن باديس ، حياته وأثاره ، جمع ودراسة : عمار الطالبلي ، 52/3.

وشكره وحبه والتوكل عليه والإخلاص له ، وأعلى مراتب معرفته في الآخرة هو مقام الرؤية بتجلية الأعلى في جنات عدن ، والاشتغال بذكر الجزاء عن العمل الموصل إليه جهل لا علم ولا معرفة " (1).

ففي هذا النص توجه للمؤمن الراغب في التقرب من خالقه ، وأن يعرف ما عليه من حقوق ، وما عليه من واجبات ، وأن يعمل بها بإخلاص متوكلا على الله دون سواه ، وهو ما يؤدي به إلى أعلى مراتب السعادة في الآخرة ، ونلمس في هذا النص تعلق ابن باديس بالثقافة الإسلامية والإعتماد على القرآن الكريم ، ويتجلى ذلك واضحا في اقتباسه من قوله تعالى : { جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ } (2).

وهدف الكاتب هنا هو إثبات مقام جنات عدن ، وفي هذه الجنات موضع إقامة خالدة يجتمع شملهم فيها مع الصالحين من دونهم من آبائهم ونسائهم وأولادهم ، ليفرحوا بلقائهم ويتم بذلك سرورهم ، وإن لم يكونوا يستحقون هذه المنازل العالية بأعمالهم ويكرمون بجمع شتاتهم وتلاقي أحبابهم ، وهي سعادة ثانية تضاعف سعادة الشعور بالجنان وذلك فضل الله (3).

1-المرجع السابق ، ص54.

2-الرعد: 23.

3-سيد قطب ، في ظلال القرآن ، 2058/4.

- انظر الصابوني ، صفوة التفاسير ، 81/2.

وفي جو هذا التجمع واللقاء يكون اشتراك الملائكة التي تدخل عليهم من كل باب من أبواب الجنة ، يقولون لهم : {سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ} ⁽¹⁾ . أي سلمتم من الآفات والمحن بصبركم في الدنيا، وتلك بشارة بدوام السلامة لهم.

وكل ما في الأمر أن الكاتب يسعى الى تثبيت العقيدة بالإيمان الصحيح الواضح الخالي من الزلل و الأخطاء، التي يحاول أولئك الذين لا يعلمون علم اليقين ما جزاء العمل الصالح الذي يتحصل عليه كل من جد واجتهد ليبلغ عن طريقه المجد العظيم وهو جنات عدن التي وعد بها المتقون ، ويستمر ابن باديس في الذود عن حياض الإسلام والعروبة في الجزائر ضد الفرنسيين الذين حلوا بالوطن ومن حذا حذوهم لطمس تلك المعالم التي تنحصر في بناء قواعد الإسلام وعدم فهمها وتطبيقها كما وصلت إلينا من مصادرها الأساسية ، وهو مآدى بالإمام ابن باديس أن يتصدى لهذه المحاولات الاستبدادية بكشفها ، وفضحها أمام أعين الجميع ليحتاطوا من ممارسة الإستعمار الراغب في تغيير الشخصية الجزائرية الإسلامية ، وذلك في موضوع له بعنوان : "يا لله للإسلام والعروبة في الجزائر" ⁽²⁾ . يقول فيه : " سيرى الذين دبروا المكيدة ، والذين لم يتفطنوا لها فشاركوا في تنفيذها أنهم ما أصابوا بهذه المكيدة إلا سمعة فرنسا في العالم الإسلامي والعربي، في الوقت الذي تنفق فيه الملايين على تحسين سمعتها فيها ومكانتها عند الجزائريين في أخرج أوقاتها، وأشدها حاجة إلى الأمم المرتبطة بها ولا يحيق

1- الرعد: 24.

2- ابن باديس ، حياته وأثاره ، جمع ودراسة : عمار الطالبي ، 243/3.

المكر السيء إلا بأهله ، فهل ينظرون إلى سنة الأولين فلن تجد لسنة الله تبديلاً ولن تجد لسنة الله تحويلاً " (1).

يقتبس الكاتب في نصه هذا جملة تأثر فيها بالقرآن الكريم الذي جاء في سياق الآية قوله تعالى : {وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّءُ إِلَّا بِأَهْلِهِ فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا} (2). ويقصد الكاتب هنا في هذه الآية التي لم يجد في قاموسه ما يكفي ليعبر به عن الواقع ، وما يفي بالغرض الذي ينشده إلا بأسلوب هذه الآية ، التي يقصد من خلالها أن من يرغب في التنكيل بغيره ، وتسليط المكاره عليه فإنه لامحالة عائد عليه بالوبال ، لأن من حفر حفرة لأخيه وقع فيها كما يقال في الأمثلة العامية ، نتيجة عدم إيمانهم بسنن الله التي يجب الإلتزام بها ، والخروج عن ذلك يؤدي إلى ما لا تحمد عقباه مثل ما هو واقع للأمم السابقة عليهم ، والتي سلب الله عليها العذاب والهلاك بسبب كفرها وتكذيبها للرسول كعاد وثمود ، لأن أحكام الله في هذا الوجود لا يحدث لها تحول ولا تبدل ، وليس بإمكان أيّا كان أن يغير ما أقره الله على عباده .

وعندما نطلع على ما كتبه الإبراهيمي فيما يخص معالجته للواقع الذي أحدثه الاستعمار الأجنبي من تمزق وتفرق في المجتمعات العربية والإسلامية عامة والجزائر بخاصة ، نجده يقول في مقال عنوانه بـ : " فلسفة الإصلاح الديني " . قائلاً : " وقد انقرضت تلك الفرق

1- ابن باديس ، حياته وأثاره ، جمع ودراسة : عمار الطالبي ، 245/3.

2- فاطر : 43.

وانقرض بانقراضها سبب جوهرى من أسباب التفرق بل مات بموتها شاغل طالما شغل طائفة من خيرة علماء المسلمين ببعضهم وجعل بأسهم بينهم شديدا ، وألهاهم بما يضر عما ينفع"⁽¹⁾ .

ومن الجمل التي وردت في هذا النص التي أقتبسها الإبراهيمي من القرآن الكريم " بأسهم بينهم شديد" ، أخذها جاهزة كما وردت في قوله تعالى : { لَا يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِي قَرَى مُحَصَّنَةٍ أَوْ مِنْ وَرَاءِ جُرٍ بِأَسْهُمٍ بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسِبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ }⁽²⁾ . وعلى ضوء ما جاء في هذه الجملة من معنى العداوة الشديدة فيما بين أولئك العلماء وغيرهم الذين يذهبون إلى التفكير فيما يضر ، ولا يهتدون إلى ما ينفعهم وينفع الناس جميعا. يتحدث الإبراهيمي في موضوع آخر عنوانه: " فصل الحكومة عن الدين " ⁽³⁾ . ليدافع فيه عن الدين الذي كان ملاحقا من طرف الاستعمار الفرنسي الذي حل بالبلاد لكي يطمس الهوية العربية الإسلامية ، وتبديله بالدعائم التي تثبته وتقوي كيانه في الجزائر من مثل الفرنسية والتنصير ، وفي ذلك يدعو القضاة إلى الإنصاف في الحقوق وأن لا يتعاونوا مع الاستعمار فيما يخص نصرته الحق الذي ينشدونه ، وأن لا ينساقوا وراء أهداف الاستعمار الذي يؤدي بهم إلى الخزي والعار ساعة لا ينفع الندم ، قائلا :

1- الإبراهيمي ، أثاره ، 97/1 .

2- الحشر : 14 .

3- الإبراهيمي ، عيون البصائر ، 125/2 .

"إننا نريد لقضائنا حرمة ومكانة ، ونريد لرجالنا سمعة ومنزلة ، ونغار عليها، وندافع عنهما بحمية وحماسة ، ونطالب بإصلاح القضاء ثم باستقلاله ، ونرى أنه لا عزة لأمة إلا بعزة قضائها وقضاتها ، ولكن بعض القضاة كانوا بأقوالهم وأعمالهم عوناً علينا ، وكانواع الاستعمار إلماً على مطالبنا ، وكأنهم ضمنوا لأنفسهم الخلود في هذه الوظائف المهنية ، فاطمأنوا لهذه (الخبزة) الذليلة ، وذاقوا وبال أمرهم حين يسموا الخسف بالأمس ، وحملوا على خطة الهوان فلم يجدوا ولماً ولا نصيراً" (1).

يقتبس الكاتب في هذا النص جملتين هما " فذاقوا وبال أمرهم " ، ومعناه أن هؤلاء القضاة المساندين للأفكار الاستبدادية سيجازون بالعقوبة الوخيمة على خروجهم على الاستقامة في الأحكام القضائية التي أمرت بها الشريعة الإسلامية (2). والجملة وردت في قوله تعالى : { أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ فُذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ } (3). والجملة في هذا السياق تفي بالعرض الذي يهدف إليه الكاتب . أما الجملة الثانية التي جاء بها في هذه الفقرة مقتبسة إياها من القرآن الكريم هي قوله تعالى : { لَا يَجِدُونَ وَلِياً وَلَا نَصِيراً } . التي وردت في سياق معناه قوله تعالى : { وَلَوْ قَاتَلَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلُوا الدُّبَارَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِياً وَلَا نَصِيراً } (4). فالجملة تكشف عما يهدف إليه الإبراهيمي

1- المرجع السابق ، 129/2 .
2- الصابوني ، صفوة التفاسير ، 392/3 .
3- التغابن : 5 .
4- الفتح : 22 .

من أن هؤلاء القضاة فى تصرفهم السيء مع الأهالى ، سيأتى يوما يندمون فيه حين لا يجدون من يتولى أمرهم بالحفظ والرعاية ، ولا من ينصرهم من عذاب الله (1).

وفى توجه لرائد آخر من رواد الإصلاح فى الجزائر ، وهو العربي التبسى الذى يتحدث فى موضوع له بعنوان ملائم للفترة التى يعيش فيها المسلمون عامة ، والمواطن الجزائرى خاصة الراضخ لما يحاك ضده وضد بلاده من إذلال وإحباط نفسى عميق ، وتشويه صورته أمام الأجناس البشرية حيث يقول فيه : " ألا أيها النوام ويحكم هبوا " الذى يوضح فيه الأبعاد الإسلامية التى تحت على العمل الصالح للبلوغ إلى الإيمان الحقيقى ، الهادف إلى تنبيه العباد للمطالبة بالحرية ، ونبذ إستغلال الإنسان لأخيه الإنسان ، موضحا بأن الرجل الحق هو ذلك الشخص الذى لا يجوز له أن يسير منحنيا أو منكسا رأسه ، حيث لا يرى طريقه كالإنسان المنتصب القائمة فى مشيته ، فىرى طريقه ولا يتعثر فى خطواته ، لأنه يسير على طريق واضح المعالم يقول : " وسيان عندى لصحة المثل أكانوا فيما قطعوا فيه الأعمار على ظل من الصواب- وما أبعدهم عنهم- أم كانوا كمن يمشي مكبا على وجهه وسوف يتردى ، وإنما نغبطهم على صحة العزيمة ، وشدة التمسك بما تهيأ لهم أنه حق فكأنما أصل هاته الأمم مسك ، وأصل أمتنا طين " (2).

1- محمد علي الصابونى ، صفوة التفاسير ، 224/3.

2- العربي التبسى ، مقالات فى الدعوة الإسلامية ، جمع وتعليق : شرفي أحمد الرفاعي ، 50/2.

ونلاحظ في إقتباسه لجملة : "يمشي مكبا على وجهه" الواردة في قوله تعالى : { أَفَمَنْ يَمْشِي مُكَبًّا عَلَى وَجْهِهِ أَهْدَى أَمَّنْ يَمْشِي سَوِيًّا عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ } (1). فالعربي التبسي يذهب في هذا الشأن إلى نقل روح العبارة ، التي حركت مشاعره وتصرف فيها بالمناسبة التي تشير إليها الآية حرفا ومعنى .

ويتحدث العربي التبسي في موضوع آخر بعنوان : " لقد ضل من كان مثل هذا يهديه " يقصد فيه ابن عليوة وجماعته التي اتصلت عن سنة النبي صلى الله عليه وسلم ورغبت في إضافة أشياء على الدين نتيجة لغلوهم دون الإطلاع عما جاء فيه ، وبالتالي العمل بما فهموه من هذا الدين ، ولكن جحودهم ، ونكرانهم لكل ما يهدف إلى تنوير بصائرهم ، وإرشادهم إلى الحق ، ذلك أدى بهم إلى الكشف عن سرائرهم ، وفضحهم أمام الخاص والعام ، ويوضح الكاتب ذلك بقوله : " ففي مجامعهم و مجالسهم لاعالما ولا متعلما لسنة ، وإنما تجد غوغاء تهرف بكلام لا تعرف له وجهها ، وتتقلب في بدع لوخرج عليهم أحد أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم لأيقن أنهم من ملة أخرى ، وربك يعلم ما تكن صدورهم وما يعلنون " (2).

يقتبس الكاتب في نصه هذا جملة من آية في قوله تعالى : { وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ } (3). ليدعم بها نصه التي أبت نفسه إلا أن يدعمه بهذه الجوهرة

1- الملك : 22.

2- العربي التبسي ، مقالات في الدعوة الإسلامية ، جمع وتعليق : شرفي أحمد الرفاعي ، 114/2.

3- القصص : 69.

من الذكر الحكيم ، لا اعتقاده بأنه لا يفي بإحساسه وشعوره إلا إذا عبر بهذه الآية لأنها تعبر عن صنف من مثل هذه الأصناف ، لأن الله هو العالم بما تضرره قلوبهم من العداوة للرسول صلى الله عليه وسلم والمؤمنون ، وما يتفوهون به بالسنتهم من الطعن في شخص الرسول الأكرم صلى الله عليه وسلم⁽¹⁾.

وبهذا الأسلوب المتشبع بالثقافة الإسلامية ، استطاع هؤلاء الكتاب الإصلاحيون أن ييثوا أفكارهم التحررية ، في وسط الشعب الجزائري الذي تلقاها بشغف ، وأمعن النظر فيها ، بروح العقل فزودته بنوع من الإحساس الذي جعله يعيد حساباته فيما مر به ، وما هو فيه من الاستبداد والإذلال والقهر ، فتفطن بعدها إلى كل ما يحاك ضده ، فما كان عليه إلا أن هب للصمود في الميدان للتصدي لكل المحاولات مهما كان نوعها ، وهو الأمر الذي أدى إلى إفشال الاستبداديين والمستكبرين في الأرض ، وبعدها ينال حريته التي هي بيت القصيد بالنسبة لرجال الإصلاح.

1- الصابوني ، صفوة التفاسير ، 424/2.

الفصل الثالث

أثر القرآن الكريم في بناء الرمز الفني

أثر القرآن في بناء الرمز الفني

تمهيد :

قبل الخوض في الحديث عن كلمة الرمز الفني لا بد من التعرف على معنى الرمز اللغوي الذي ورد عنه في المعاجم اللغوية ومنها "الصاح" على أنه عبارة عن "الإشارة والایماء بالشفقتين أو الحاجب" (1). أو كل أسلوب أو طريقة تؤدي إلى الفهم أو الكشف عن الشيء المرموز إليه ، وقد وردت هذه اللفظة في قوله تعالى: {قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِّي آيَةً قَالَ آيُكَ إِلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمَزًا وَادَّكُرَ رَبُّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ} (2). أي أن علامتك على قدر الكلام بالنسبة للناس الإشارة مدة ثلاثة أيام بلياليها مع أنك سَوَى الصَّحَّة (3).

ومعنى ذلك أنه : " الصوت الخفي الذي لا يكاد يفهم " (4). والغرض من هذا يبدو أن المتكلم ينصرف باستعمال " الرمز في كلامه فيما يريد طيه عن كافة الناس والإفضاء لهم إلى بعضهم ؛ فيجعل للكلمة أو الحرف اسما من أسماء الطير أو الوحش أو سائر الأجناس أو حرفا من حروف المعجم ، ويطلع على ذلك الموضع من يريد إفهامه ، فيكون ذلك قولاً مفهوماً بينهما مرموزاً من غيرهما" (5).

1- الجواهري ، الصاح ، 880/3.

2- آل عمران : 41.

3- محمد علي الصابوني ، صفوة التفسير ، 200/1.

4- قدامة بن جعفر ، نقد النثر ، ص 61.

5- المصدر نفسه ، ص 61-62 .

والرمز حالات مختلفة من حيث كونه مصطلحا أدبيا يستخدم " كمصطلح في المنطق وفي الرياضيات ، وفي نظرية المعرفة ، وفي علم الدلالات ، الإشارات ، ... غير أن فعل الرمز ، ... يوحي بأن فكرة التشابه بين الإشارة والمشار إليه كانت موجودة في الأصل ، وما تزال تعيش في بعض الاستعمالات العصرية كمصطلح . فالرموز الحميرية والمنطقية رموز تقليدية متفق عليها ، غير أن الرموز الدينية تقوم على بعض الصلات الداخلية بين : "الإشارة" والشيء "المشار إليه" ، استعارة أو مجازا " (1).

وهكذا نلاحظ أن الرمز قد أصبح عبارة عن الأداة للتعبير ؛ لأن اللغة العادية قاصرة عن القيام بالمهمة المنوطة بها لاحتواء التجربة الشعورية ، وإبراز ما في اللاشعور ، دون إعاقة توافد الأفكار في ذهن القارئ وتوكيدها ، وبالرمز تتمكن اللغة من نقل التجربة واختراق عالم اللاوعي ، فتتكاثر ولادتها ، وإحياءاتها ، في معان تتوافد على ذهن القارئ كالمطر (2). وفي هذا الإطار الذي يدعم هذه الفكرة ، ويزيد في الكشف عنها أكثر ما ذهب إليه "مرسيا إلياد" الذي يعتقد أن التفكير الرمزي ملازم للإنسان ، ولا ينحصر في تلك الألفاظ التعبيرية للطفل والشاعر والمجنون ، بل إنه : "سابق على اللغة والعقل الاستدلالي . يكشف الرمز عن بعض مظاهر الواقع الأكثر عمقا ، والتي تتعدى أي وسيلة أخرى للمعرفة

-
- 1- رينيه ويليك أوستن وارين ، نظرية الأدب ، ترجمة محي الدين صبحي ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر بيروت د-ط ، 1987 ، ص196.
 - 2- نسيب النشاوي ، مدخل إلى دراسة المدارس الأدبية ، ديوان المطبوعات الجامعية الجزائر ، د-ت ، 1984 ص471 ، نقلا عن خليل موسى ، اللغة في ميزان الشعر ، ملحق الثورة الثقافي ، العدد : 2 ، 1978 . ص471.

ليست الصور والرموز والأساطير إبداعات لا مسؤولية من طرف الناس ؛ إنها تستجيب لضرورة تقوم بوظيفة تعرية صيغ الكائن الأكثر سرية "(1). وللتوضيح أكثر نجد أن الرمز يكمن " في التشبيهات والاستعارات والقصص الأسطوري والملحمي والغنائي وفي المأساة والقصة ، وفي أبطالها اتخذها الناس قديما ليبرزوا قيمة الفكرة بواسطة الاستعارة الحسية أو ليخفوها كما هو الشأن عند الصوفيين في الديانات ... ومن غايته كذلك تزيين الفكرة وتجنب الاعتراف الشخصي "(2).

وإذا ما عدنا إلى دور الرمز في القرآن الكريم والهدف منه نلاحظ أن : " في القرآن من الرموز أشياء عظيمة القدر جليلة الخطر ، وقد تضمنت علم ما يكون في هذا الدين من الملوك والممالك والفتن والجماعات ومُدد كل صنف منها ، والقضائية ، والعصر ، والشمس واطلع على علمها الأئمة المستودعون علم القرآن ... وروي عن ابن عباس رضي الله عنه أنه سئل عن الم ، وحم ، وطسم ، وغير ذلك مما في القرآن من هذه الحروف فقال : ما أنزل الله كتابا إلا وفيه سر ، وهذه أسرار القرآن "(3).

1- العربي الذهبي ، شعريات المتخيل ، شركة النشر والتوزيع - المدارس- الدار البيضاء ، ط:1 ، 2000 ص204 .
- أنظر 13-14 . images et symboles .gallimard. paris . 1952 . Mercia eliad .
2- موهوب مصطفى ، الرمزية عند البحري ، ص139 .
3- قدامة بن جعفر ، نقد النثر ، ص62 .

وعلى غرار ما تقدم ذكره ، نلاحظ أن هناك محاولة من طرف النقاد للفصل بين نوعين من الرموز هما : الرمز الموضوعي واللغوي ، والقصد من الرمز الموضوعي : هو إحلال صورة الرمزية على الشخصيات والأعلام من منظور السلوكيات الصادرة عنهم ، أو ما اشتهروا به من الفضائل والقيم الرفيعة التي تؤثر إيجاباً في فكر الكتاب ، وينعكس ذلك في كتاباتهم ، ونخص بالذكر الإعلام والشخصيات الواردة في القرآن الكريم⁽¹⁾ ، والرمز اللغوي هو الذي يتنوع أسماء وأفعالا وصفات إلخ ... ويقابلها المدلولات وهي كل ما تشتمل عليه الحياة المادية والذهنية والوظيفة الدلالية لتلك الرموز هي إثارة صور المدلولات لدى السامع أو القارئ .

والرمز اللغوي هو الذي نجده يتميز بسمتين هامتين هما : الإيجاز أو الاختصار من جهة والتجريد من جهة أخرى⁽²⁾ .

وهكذا نرى أن هناك محاولة من طرف الكتاب لإبراز بعض الصفات الرمزية مستمدين ذلك من ألفاظ القرآن الكريم ، الذي هو النبع الذي تشعب منه هؤلاء الكتاب والإصلاحيون .

1- محمد ناصر بوحجام ، أثر القرآن ، 270/2.

2- فائز الداية ، جمليات الأسلوب ، دار الفكر دمشق سورية ، ط: 2 ، 1990 ، ص174.

1- الرمز الموضوعي:

لقد حاول كتاب الفترة الحديثة من الإصلاحيين الجزائريين ، استلهم بعض السير لأعلام قرآنية ، للتنفيس عن أحاسيسهم ومشاعرهم الفكرية ، والأخذ منها ببعض التعابير التي تقدم أشكالا ورموزا تحمل معان ، وبعدا عميقا ، يتصف به هؤلاء المرموز إليهم ، وسواء تعلق الأمر في هذا الشأن برموز الأنبياء أو الرسل أو بعض الصالحين ، لإتخاذ العبر والإسترشاد بها إلى الأهداف السامية ، ونبذ كل ما من شأنه أن يؤدي إلى الإنحطاط ، والتدهور والتفكك الاجتماعي ، وفي صدد ترسيخ الإيمان ، وإثبات الشخصية، سنحاول التعرض إلى بعض من الشخصيات التي تناولها الكتاب في كتاباتهم ابتداء بشخصية إبراهيم عليه السلام.

أ- إبراهيم عليه السلام :

ومن تلك الرموز الدلالية ، والأعلام الخالدة ، والعظماء الأجلاء ، الذين وقف عندهم رجال الإصلاح ، وأخذوا من قصصهم كثيرا من الرموز لشتى المواضيع التي اعترضت إحساساتهم ، ومشاعرهم ، لغرض الكشف عنها ، والإدلاء بأفكارهم البناءة للوصول بأمتهم إلى إدراك المجالات الحقيقية لسبل التحرر والإنعتاق ، والسؤدد . من ذلك إبراهيم عليه السلام. إن لقصة حيات إبراهيم عليه السلام المميّزة بالعديد من العبر المفيدة ، والعضات الأخلاقية السامية ، وكان من المفروض على الإنسان الوفي لدينه ، والقوي بإيمانه أن يتخذ من سيرته الحميدة سبيلا للارتقاء نحو العلى مصداقا لقوله تعالى : { إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ }⁽¹⁾.

هكذا يثبت الله قوة وعظمة إبراهيم عليه السلام ، وهو أبو الأنبياء الذي إمتدحه الله بهذا المدح ؛ لأنه : " كان نموذجاً للهداية والطاعة والشكر والإنابة لله . ويقول عنه هنا : إنه كان أمة . واللفظ يحتمل أنه يعدل أمة كاملة بما فيها من خير وطاعة وبركة . ويحتمل أنه كان إماماً يقتدى به في الخير " (2). وهذان المعنيان " قريبان ، فالإمام الذي يهدي إلى الخير هو قائد أمة وله أجره وأجر من عمل بهدأيته فكأنه أمة من الناس في خيره وثوابه لا فرد واحد " (3).

إن إتصاف إبراهيم عليه السلام بتلك الشمائل والكمالات التي لا نستطيع العثور عليها إلا في شخصية تستمد قوتها من إرادة الله ، هو ما استدعى رجال الإصلاح أن يستلهموا من شخصيته وسيرته الفذه . كل ما يتعلق بالترميز الذي يحتمل الإحياءات التي تستنهض الهمم وتذكى النفوس بالأفكار التي تميز بين الغث والسمين وتنير السبيل المبين ، وتمد الجرائريين بالأضواء التي يستطيعون من خلالها معرفة كل ما هو مبيت لهم من طرف المعتدين من الإغراءات لتبعدهم عن تاريخ أجدادهم وماضيهم التليد ، وسماحة دينهم الإسلامى السليم وأنبياء الله المرسلين.

ولإرساء هذه الصفات الحميدة المميزة لهؤلاء الأعلام ، التي ما انفك هؤلاء الإصلاحيون يشيدون بها ، ويسعون إلى غرسها في نفوس المواطنين الذين خيم على صدورهم نوع

1- النحل : 120.

2- سيد قطب ، فى ظلال القرآن ، م 4/12-18/2201.

3- المرجع نفسه ، ص 2201.

من الضبابية والنسيان للحضارات ، والمعجزات التي جاءت بها الأديان السماوية ، لذلك نجد ابن باديس يشير في وضوح إلى سر التضحية التي سنها الله للمسلمين على يد إبراهيم عليه السلام قائلا : " فهذا يوم الحج الأكبر ، والموسم الأشهر جعله الله عيداً للمسلمين وشرع فيه ما شرع من شعائر الدين ، تزكية للنفوس وتبصرة للعقول ، وتحسيناً للأعمال ، وتذكيراً بعهد إمام الموحدين وشيخ الأنبياء والمرسلين إبراهيم الخليل عليه وعليهم الصلاة والسلام أجمعين "(1).

ففي هذا النص الذي أشار الكاتب فيه إلى هذا العلم الرمزي الجليل الذي استلهمه من قوله تعالى : { وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا } (2). ومعنى الخلّة وحيثياتها هو " أن يتبع أفضل دين ، وأن يسلم وجهه لله ، وأن يكون محسناً ويتبع الملة وأن يكون حنيفاً..." (3). وهذه الصفات كانت مشتملة في إبراهيم عليه الصلاة والسلام ، والتي أهلتها أن يكون شيخ الأنبياء والمرسلين ، وهو ما استدعى أننباه ابن باديس ليشر إليه في هذه الخطبة ليتعض ويتذكر أولو الألباب ، وينصاعوا إلى ما أمر به الله ، وما أتى به الأنبياء والمرسلون ، ليكون السامعون لهذه الخطبة قوة متلاحمة تدفع عن نفسها الظلم والطغيان مثل ما فعل إبراهيم عليه السلام ، على الرغم من العداوة والبغضاء التي لاقاها من قومه الذين تنكروا لدعوته وعبدوا الأصنام دون عبادة الله الواحد القهار .

1- ابن باديس ، حياته وآثاره ، جمع ودراسة : عمار الطالبي ، 530/3.

2- النساء : 125.

3- محمد متولي الشعراوي ، قصص الأنبياء ، ص99.

وعلى الرغم من كل تلك المعاناة والمحن التي لاقاها إبراهيم عليه السلام من أهله لكي يتوقف عن تبليغ الدعوة التي أمره الله بنشرها على أوسع نطاق ، إلا أنه إستمر في تأكيد أن ما جاء به هو الحق ، وأن ما يتبعونه هو الباطل ، ولذلك جاء في قوله تعالى : { وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا } (1) من باب الترغيب في اتباعه ، لأنه إمام يقتدى به حيث وصل إلى غاية ما يتقرب إليه العباد حيث إنتهى إلى درجة الخلّة التي هي أرفع مقامات المحبة فذلك راجع لكثرة طاعته لربه كما وصفه به في قوله تعالى : { وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى } (2) ومعنى ذلك أنه : " قام بجمع ما أمر به ووفى كل مقام من مقامات العبادة ، فكان لا يشغله أمر جليل عن حقير ، ولا كبير عن صغير " (3) . وهذا ما كان ابن باديس يود الإشارة إليه ليطلع عليه المؤمنون من أبناء الأمة الجزائرية ، ويعملوا به ليرفعوا الغبن عن أنفسهم والمعاناة التي يلاقونها من طرف المتسلطين ، ولا يتأتى لهم ذلك إلا بانتهاج سبيل هذا الرمز الديني وغيره من الأنبياء والمرسلين .

وفي هذا السياق الذي يشيد فيه رجال الإصلاح ، ويحاولون كلما سنحت لهم الفرصة الترميز إليه ، محاولة منهم لإحياء ذلك التراث التاريخي الناصع البياض لدحض تلك التهم والدعايات المغرضة ، التي يحاول أعداء الله إلصاقها بأمة التوحيد ، وبشمس الإسلام المشرقة على الخلق أجمعين.

1- النساء : 125.

2- النجم : 37.

3- ابن كثير ، تفسير القرآن العظيم ، 826/1-827.

فهذا الإبراهيمي في حديث له عن فلسطين السليبية ، يحاول أن يستعرض الخضوع والتقاعس المسلط على الأمة الإسلامية والعربية ، التي لا بد لها من أن تستقرئ ماضيها الحافل بالأمجاد والبطولات ، منذ أن سطع نور الله في أرضه المبلغ عن طريق الأنبياء والمرسلين نجده يتساءل قائلاً : " فكيف لا ينتخى بخيله التي وردت المشارف من هو في السر من فهر وفي الذوائب من قريش . وما وردت إلا لإنقاذ تراث الخليل ، من يد الدخيل " (1) . وفي هذا النص نلمس دعوة الإبراهيمي إلى المحافظة على الإرث العظيم الذي تركه لنا إبراهيم الخليل أي حبيب الله عليه الصلاة والسلام ، في فلسطين التي يقع بها بيت المقدس التي استولى عليها المعتدون من اليهود وعملاؤهم الذين يعيشون في الأرض فساداً .

وأن الإبراهيمي في هذه العبارة الأخيرة استعمل فيها أداة الحصر " إلا " التي خصصت قدوم تلك الكتائب العربية الإسلامية لفتح بيت المقدس القبلة الأولى للأنبياء والمرسلين ومسرى الرسول محمد صلى الله عليه وسلم ، وهو ما يوجب على الخلف الصالح من أبناء الأمة الإسلامية ، الذود عن هذه الديار التي دنست من طرف هؤلاء الدخلاء ، لتعود إلى أهلها الأصليين ، وبذلك يصبح تراث الخليل محفوظاً ، وبهذا يكون الكاتب قد وظف هذا التركيب في عبارة الموصوف للفظـة "الخليل" ويتخلي عن الصفة التي هي " إبراهيم " عليه الصلاة والسلام الذي ورد في قوله تعالى : { وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا } (1) .

دون أن يحدث هذا الأسلوب خلا في المعنى ، بل أضاف إحساسا وشعورا ، وإبداعا بيانيا متنوع الدلالة في التبليغ ، والموصوف المعبر عنه بلفظ "الخليل" الذي يعني بها الشخص المحبوب والمقرب إلى الله . والتلفظ بهذا السياق اللفظي البلاغي يعد مدحا ، وإشادة بعظمة وقدر إبراهيم الخليل عليه السلام.

ب- قصة يوسف عليه السلام :

إن لقصة يوسف عليه السلام مكانة سامية في الوجود الإنساني ، وذات أهمية كبرى تجعلها من أحسن القصص الواردة في القرآن الكريم لتمييزها عن غيرها من القصص ، واشتمالها على العديد من العبر المتعددة ، الحاصلة من تلك المعاناة المرافقة لمراحل حياة يوسف عليه السلام من ذلك صفة الحسد التي اتصف بها إخوانه وتمردهم على أبيهم ، وتمسكه بالرفض بالنسبة للحادث الذي انجر عنه إدخاله السجن ، وعملية الصفع عند المقدرة لإخوانه الظالمين والمبغدين له عن أهله ، وهو ما يزال صيبا لا يقدر على اجتياز الصعاب والمحن ، مما جلب عليه الكثير من الويل والأتعاب والعقبات ، في مراحل حياته الأولى وكل ذلك لم يترك في نفس يوسف عليه السلام صورة الانتقام .

والقصة كما جاءت في القرآن الكريم تتعرض للنفس الإنسانية الزكية في شتى الأطوار والمراحل المختلفة من العمر الزمني ، والعقلي ، والعاطفي ، مما أضفى عليها ثراء هي الطريقة التي جاء بها القرآن وما أسدله عليها من الإعجاز البلاغي الذي أعجز أسلوب البشر ⁽¹⁾ .

وبهذه المواقف التي تزخر بها قصة يوسف عليه السلام المتمثلة في رموز تحمل في طياتها فضائل أخلاقية عالية كفضيله الوفاء ، والطهر ، والأمانة ، والعفة ، وغيرها مما استأثر بها رجال الإصلاح الجزائري ، وكانت نموذجاً للتفكير الجيد ، والحكمة والتدبر فيما يحيط بواقع الأمة من صور الحياة ، وما يجب أن يتحلى به المؤمنون بالقضية الجزائرية من الفضائل التي تحلى بها غيرهم ، وتستلزم الإحتذاء بها.

وهو ما أدى برجال الإصلاح أن يلجأوا إليه في كتاباتهم كرمز للإقتداء به ، وخاصة عندما تعترض لهم العديد من القضايا المطروحة ، ولا يمكن إيجاد الحلول لها إلا بالاستناد على الرموز التاريخية المميزة بأفكار سامية وتوجيهات سديدة خلاقة ناجحة ، وليس أدل على ذلك إلا ما جاء في قصة يوسف عليه السلام ، وما يذكر أنه رأى رؤيا فيما يرويه يوسف عليه السلام عن أبيه في قوله : "يا أبت إنني رأيت ليلة أمس رؤيا جميلة ضاءت لها جوانب نفسي ، وانشرح لها صدري"⁽²⁾، مصداقا لقوله تعالى: { إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ }⁽³⁾ ومعنى ذلك " أن الأحد عشر كوكبا عبارة عن إخوته ، وكانوا أحد عشر رجلا سواه وذلك حين رفع أبويه على العرش ، وهو سريره ، وإخوته بين يديه "⁽¹⁾ ، والشمس والقمر أبوه وأمه .

1- محمد متولي الشعراوي ، قصص الأنبياء والمرسلين ، ص15.

2- محمد أحمد جاد المولى ومن معه ، قصص القرآن ، ص 58.

3- يوسف : 4.

لذلك ورد عنه تعالى أن يعقوب عليه السلام أجاب ابنه يوسف بعدما قص عليه ما رآه في رؤياه من خضوع إخوته وتقديرهم المعتبر له في ظاهره السجود تعظما له ، فخاف يعقوب عليه السلام أن يذكر يوسف ذلك أمام إخوته ، فيزداد حسدهم على ذلك فيكيدون له مكيدة تضره لذلك جاء عنه في قوله تعالى : { قَالَ يَا بُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُبِينٌ } (2).

أي أن يعقوب عليه السلام يقوم في هذه الآية بتوجيه النصح إلى يوسف عليه السلام بأن إخوته إذا علموا بهذه الرؤيا سيحاولون الإحتيال عليه بما يضره لأن الشيطان يوسوسهم ويحاول التوغل في صدورهم ليبيت فيها السموم ، والوساوس ، والحيل ، والمكر والدهاء لأن الشيطان هو العدو الأكبر للإنسان ، فهو يحاول دائما البحث عن الحيل التي لا تسمح له ببلوغ تلك المنزلة الرفيعة .

هذا هو الأسلوب المتبع لدى بعض من الأصناف البشرية الموجه إلى سبل الجهل والظلال والهاوية التي استولى عليها الشيطان ، وبث في قلبها صفة من الصفات الذميمة المتمثلة في ظاهرة الحسد التي لا تنفع ولا تغني من الأمر في شيء ، بل ضررها أكثر من نفعها ، بناء على ماورد في الحديث النبوي الشريف في قوله صلى الله عليه وسلم : " إِيَّاكُمْ وَالْحَسَدَ فَإِنَّ الْحَسَدَ يَأْكُلُ الْحَسَنَاتِ كَمَا تَأْكُلُ النَّارُ الْحَطَبَ " (1).

1- ابن كثير ، تفسير القرآن الكريم ، 149/2.

2- يوسف : 5 .

وفي هذا ما أشار إليه عبد الحميد ابن باديس في خطاب ألقاه في الاجتماع العام لجمعية علماء المسلمين مشيراً فيه إلى دورها في القيام بنهضة الأمة قائلاً : "وكذلك عرفت الأمم في تاريخها ألا تنهض إلا على صوت علمائها فهو الذي يحل الأفكار من عقالها . ويزيل عن الأبصار غشاوتها . ويبث الهمم من مراقدها ، ويدفع بالأمم إلى التقدم في جميع نواحي الحياة . ولهذا نرى أعداء النهوض في كل عصر ومصر يبذلون لإخفاء هذا الصوت كل جهودهم ، ويكيدون له كل كيدهم " (2)، أي أن صاحب هذا القول يعلم علم اليقين أن من وسائل قيام النهضة في البلاد هو رفع صوت علمائها . لذلك عمل المستعمر على إسكات هذه الأصوات ، وإبعاد أصحابها وذلك بالتشريد ، والنفي ، والقتل ، وغيرها من وسائل الهدم والإحباط النفسي .

وفي النص علاقة بما نصح به يعقوب عليه السلام يوسف في عدم ذكر ما رآه في منامه أمام إخوته لكي لا يحسدونه ويكيدون له ، وهو ما رمز به الكاتب ابن باديس إشارة منه إلى واقعية قصة يوسف ، التي وردت على لسان أبيه يعقوب عليه السلام ، الذي خبر الدنيا وما يقوم به الأشرار من الأعمال الهدامة لإزالة نعمة السعادة عن غيرهم بشتى سبل الكيد وهو ما اقتبسه ابن باديس من قوله تعالى : { قَالَ يَا بُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُبِينٌ } (1)، وهو الأمر الذي لاقاه أعضاء رجال الإصلاح من جمعية علماء المسلمين الجزائريين من سجن ، وتعذيب ، وتشريد ، وغيره من أعمال التنكيل ، لإخماد أصواتهم التي تنبذ القمع والاستبداد ، وتطالب بالعدل والمساواة والحرية .

1- عز الدين بليق ، منهاج الصالحين ، ص289.

2- من تراثنا ، آثار عبد الحميد ابن باديس ، 204/4-205 .

ومع ذلك فكل التصرفات اللاإنسانية ، تطالعنا بمواقف رجال الإصلاح
المنادية بالعودة إلى القرآن والإشادة به ، والتمسك بآثاره ، والعودة إلى
الرموز الدينية التاريخية الخالدة الممكن إستنباطها من قصص القرآن
الكريم كما جاء في قصة يوسف عليه السلام ، وخاصة موقف أبيه يعقوب
التمثل في الصبر والتجلد عند سماعه أن ابنه يوسف أكله الذئب . ليكون لهم
النصر كما كان للذين صبروا ونالوا رضى الله وخلصهم القرآن الكريم بذكره
في قصة يوسف عليه السلام ، بالتصرف الصادر من طرف إخوة يوسف ،
في محاولة تغطية فعلتهم الشنعاء المفضوحة عند إستظهار قميص يوسف
وعليه بقع من الدم ، دون أن يصاب القميص بأي مظهر يكشف بأن الذئب هو
الذي أكل يوسف عليه السلام ، فعلم يعقوب عليه السلام من خلال ذلك أن ابنه
لم يؤكل من طرف الذئب ، بل ما يزال على قيد الحياة.

فمن خلال الخبر المساق إليه ، وعدم يقينه المستخلص من القرائن في
الدم الموجود على القميص ثبت عدم صدق الخبر ، وبالتالي لا يجوز
البحث عن الإثبات المادي فكان الرد على أبنائه " في جمال الأسلوب
المعتمد ، فقد كان بإمكانه أن يقول لهم : بل كذبتهم ، إلا أنه تنزه عن
إتهامهم المباشر بالكذب ، واستعمل أسلوباً راقياً جداً في الرد عليهم بقوله
سولت لكم أنفسكم أمراً. وفي هذا تعليم لنا في كيفية إدارة حواراتنا فيما بيننا
(1) "

ثم يقول لهم ما جاء في قوله تعالى : { وَجَآؤُوا عَلَىٰ قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ }⁽²⁾ ، فالصبر من الصفات الأخلاقية الحسنة ، وهو مطلوب في مثل هذه المواقف لقوله تعالى : { فَصَبْرٌ جَمِيلٌ } ، لأن هناك معنيين لهذه العبارة ، منها ما هو خالي من الشكوى والجزع ، ومنها ما فيه جزع وشكوى ونواح ، والمسلمون مدعوون إلى ما دعي إليه نبيهم محمد صلى الله عليه وسلم في قوله تعالى : { فَاصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا }⁽³⁾ . وهو ما تفتن إليه محمد البشير الإبراهيمي ، وحاول أن يرمز إلى تلك الواقعة ويشيد

بمثل ذلك الموقف الهام الصادر من شخص عظيم ، المتمثل في يعقوب عليه السلام . كما أخبرنا به الله ، وقصد الإبراهيمي من ذلك هو تبليغ الرسالة الملقاة على عاتقه ، وكذلك ممن هم على منهجه ، ليبلغوها إلى الأمة الجزائرية لتتولى الدفاع على القضية الوطنية . وهو ما جاء في موضوع له بعنوان : "يوم الجزائر" الذي ورد عنه فيه "والصبر الجميل إذ تقولت السياسة والعزيمة الصادقة إذ ساور اليأس"⁽¹⁾ .

1- فؤاد العريس ، لطائف التفسير من سورة يوسف ، دار المعرفة بيروت ، لبنان ، ط: 1 ، 2005 ، ص72.

2- يوسف : 18.

3- المعارج : 5.

نلاحظ في هذا النص إقتباس الكاتب عبارة " الصبر الجميل " من القرآن الكريم وخاصة ما جاء في قصة يوسف عليه السلام ، التي بينت موقف يعقوب عليه السلام من صبره الجميل عند الفزع الأكبر ، وهو السلوك الذي دعى إليه الإبراهيمي الجزائريين ، من أجل البلوغ إلى الأهداف المطلوبة والمرجوة وهي تحرير البلاد والعباد مما يسلط عليهم من الدخلاء، وأن لا يقنطوا ولا ييأسوا من رحمة الله وأن يثبتوا على الإيمان الصادق وعلى الصبر الجميل ، بالتوكل على الله.

أما إذا انتقلنا إلى لفظة أخرى منتقاة من قصة يوسف عليه السلام في تصوير أبيهم بأنه كما جاء في قوله تعالى : { إِذْ قَالُوا لْيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَيْنَا مِنْ أَبِينَا وَمَنْ وَحْنُ عَصَبَةٍ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ }⁽²⁾، أي أن أباهم يتصرف تصرفا فيه خطأ ، وخروج عن الصواب ، لإيثاره يوسف عليه السلام وأخاه بالمحبة دونهم مع العلم أن الضلال المقصود لديهم ليس ضلال الدين لأنه لو كان القصد هو ذلك لكفروا ، وإنما هو إيثار إثنين عن الباقيين من أبنائه⁽³⁾.

بخلاف ما جاء على لسان ابن باديس في موضوع بعنوان " الإصلاح أمس واليوم " الذي توجه فيه بالدعوة إلى الإصلاح الديني علما وعملا في قوله : " كيف يكون حال العالم الإسلامي ومراكزه العلمية الدينية في ذلك الضلال المبين "⁽⁴⁾، أي أن هذا السلوك المنتهج من المؤسسات العلمية الدينية لا يبشر بالخير ، ولا يميز بالاعتدال ، والاستقامة ، علما بأن اللفظ "في الضلال المبين" استلهمه ابن باديس من قصة يوسف عليه السلام ، الرامزة إلى ملاقاه من الإبتلاءات والمحن ، واتهام إخوته لأبيهم يعقوب عليه السلام . إلا أن العلاقة بين المعنيين لفظ "الضلال المبين " عند ابن باديس هو الكفر، والإبتعاد عن الدين الإسلامي الحنيف أما ما يعنيه أبناء يعقوب ليس الخروج عن الدين إنما هو حبه ليوسف وأخيه دونهم .

1- محمد البشير الإبراهيمي ، آثاره ، 169/1.

2- يوسف : 8.

3- محمد علي الصابوني ، صفوة التفاسير ، 42/2.

4- عبد الحميد ابن باديس ، حياته آثاره ، جمع ودراسة : عمار الطالبي ، 66/3.

ومن هذا المنطلق نلاحظ أن رجال الإصلاح حاولوا الاستمداد من هذه الرموز القرآنية ليدعموا أفكارهم بما هو وارد في القصص القرآني خدمة لإبراز الشخصية الوطنية والمحافضة على الدين الإسلامي النابع من سيرة المصطفى عليه الصلاة والسلام ، الخالي من البدع ومن الضلال المبين .

ج - قصة موسى عليه السلام :

لقد شاء القدر أن ترتبط حياة النبي موسى عليه السلام بالعديد من الأحداث والمواقف المميزة بالصفات الخصوصية ، المؤثرة في كل ذي لب وعقل راجح، عالم بسيرته المنيرة لسبل الهدى .

و ذلك ما نجده في قصة موسى عليه السلام من توجيهات وأحكام وعبر لا يمكن الإستغناء عنها لأن ذلك ينجر عنه كل ما يؤدي إلى: "إصلاح الأمم بعد فسادها ، عاقبة الكفر والظلم ، صمود العقيدة، انتصار الحق على الباطل ، حرية الشعوب ، تفويض الطغيان نجاة المؤمنين ، التحرر من سلطان التقاليد ، التحلي بالقول اللين ، الإيمان عن طريق العقل

دحض معتقدات المصريين القدماء ، تنزيه الله وتقديره حق قدره⁽¹⁾. ولأجل كل هذا أخذ الكتاب يستقون من هذا النبع ، ومن هذا الرمز الشخصي تلك التعابير الفكرية المختصرة والهادفة لإصلاح ما أفسده الدهر ، وما انجر عنه من الحالات والمواقف الخلاقية التي لا تصدر إلا من العظماء أصحاب الهمم والشرف.

فهذا ابن باديس أحد المصلحين الجزائريين الذين ساهموا مساهمة فعالة في بناء وإرساء قواعد التربية المستمدة من القرآن الكريم ، وما ورد فيه من القصص الرمزية الذي حاول من خلاله تبليغ الرسالة الإصلاحية للذين ضلوا طريق الصواب ، وانساقوا وراء أهوائهم الهدامة . وعلى كل فإن ابن باديس مرب ووجه لكل من يرغب في طلب العلم والمعرفة ويستعين بذلك في توضيح القصد الهادف بالرمز القصصي الذي ورد في القرآن عن الأنبياء والمرسلين مثل ما هو الأمر في استرشاده لإشكالية معنى الإستغاثة ، في موضوع له بعنوان : " الدعاء منه عادة ومنه عبادة " . والذي جاء عنه الرد على ما نشر بجريدة البلاغ عدد : 282 ، عن بيان معنى الإغاثة ومناقشتها ، " فالاستغاثة هي طلب الغوث وهو تخلص من شدة أو إعانة على دفع مشقة فهي من أقسام النداء والدعاء ، وتكون من مخلوق لخالقه عبادة وتكون من مخلوق لمثله عادة ، فيدعو المخلوق ويستغيث به فيما هو مقدوره " ⁽²⁾.

1- محمد ناصر بوحجام ، أثر القرآن ، 272/2 ، نقلا عن عفيف عبد الفتاح طيارة ، مع الأنبياء في القرآن ص 250.

2- ابن باديس ، آثاره ، جمع ودراسة : عمار الطالبي ، 33/3.

وهو يشير هنا إلى ما ورد في القرآن الكريم عن الحادثة التي صادفت موسى عليه السلام لما أتاه الله الحكم ، ودخل المدينة على حين غفلة من سكانها ، وهو وقت نصف النهار كما يذكر ابن عباس ، فالتقى برجلين يتنازعان ، هذا من المستضعفين من بني إسرائيل وهو من موالي موسى عليه السلام والآخر قبطي موال لعدوه فرعون فاستنجد الإسرائيلي بموسى عليه السلام ، فوجد موسى لنفسه فرصة سانحة ، وهي غفلة الناس عنه فالتفت إلى القبطي ، فوكزه فلقى حتفه فمات (1) . مصداقا لقوله تعالى : { وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَى حِينٍ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِنْ شِيعَتِهِ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِ فَاسْتَنَّاخَهُ الَّذِي مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَزَهُ مُوسَى فَقَضَىٰ عَلَيْهِ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ } (2) ، ويبدو من سياق نهاية الآية أن موسى عليه السلام لم يكن يقصد قتل القبطي ، والقضاء عليه ولكن لما رأى جثة هامة أمامه ندم على فعلته تلك وساق كل ذلك التصرف إلى عمل الشيطان وغوايته ، التي صدرت من الغضب فأعترف بظلمه لنفسه فتوجه إلى الله بطلب الصفح والمغفرة وكانت رحمة الله واسعة ، فاستجاب لتضرع موسى عليه السلام فغفر له (3) .

هكذا كان ابن باديس وغيره من رجال الإصلاح يستمدون براهينهم واستدلالاتهم مما هو وارد في القرآن الكريم من الأحداث والوقائع التي تكشف عن السبل والطرق الواجب اتخاذها عند الحاجة ، لتجنب الوقوع فيما لا يحمد عقباه .

1- ابن كثير ، تفسير القرآن العظيم ، 2161/3 .

2- القصص : 15 .

3- سيد قطب ، في ظلال القرآن ، م : 5 ، 19 ، 2682/25 .

وليس ببعيد عن هذا الذي ذكرناه ما ذهب إليه مصلح آخر من أصحاب ابن باديس وهو مبارك بن محمد الميلي في كتاب له بعنوان : " رسالة الشرك ومظاهره " . وفي نص من هذا الكتاب بعنوان " الدعاء " الذي تعرض فيه إلى معنى الدعاء ، وتفسيراته التي منها الدعاء والسؤال والطلب والرغبة ، وذكر كذلك أن للدعاء أخوات في المادة ومعان في الاستعمال تعود إلى السؤال في تضرُّع ، والرغبة في الاستكانة ، وذلك في شرح وجيز مستدلاً ببعض الآراء ، من ضمنها ما جاء في تفسير المنار من أن الدعاء هو عبارة عن الشعور بالقلب والتوجه بالدعوة إلى عناية الخالق ، فيما يتوجه إليه سبحانه وتعالى ويرغب فيه . ثم ينتقل إلى توضيح الدعاء العادي ، وصفات المدعو في توجيهه في طلب العوذ أو العون أو شيء آخر من الفرد القادر عليه مدعماً ذلك بما جاء في الدعاء العادي مركزاً على قول القائل : " فتقول استغثت بالحاكم من الظالم واستغثت بالجيران على اللصوص واستصرخت ذا الغيرة على الغير " (1) . وفي هذا النص نلاحظ الدلالة الكبيرة الواضحة على أن المنهج الذي إعتمده رجال الإصلاح متقارب ، وأن مصدرهم الذي يتزودون منه هو القرآن الكريم ، وما جاء فيه من القصص القرآني ونخص بالذكر هنا التاريخي منه كلفظة الاستغاثة التي مرت معنا في قوله تعالى : { وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَى حِينٍ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَذَا مِنْ شِيعَةِ مُوسَى وَهَذَا مِنْ عَدُوِّهِ فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ فُوكَزَهُ مُوسَى فَقَضَى عَلَيْهِ قَالَ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ } (1) .

1- مبارك بن محمد الميلي ، رسالة الشرك ومظاهره ، شركة الشهاب الجزائر ، دت ، د-ط ، ص186.

عَدُوّه ومعنى ذلك أن تلك الحادثة التي تعرض لها موسى عليه السلام في حادثة نصرة الرجل المظلوم المعتدى عليه من طرف الرجل الظالم المعتدي ، ولكن ما كادت تمتد يده إليه حتى وكزه وسقط ميتا وهو ما أشاد به ابن باديس في نصه السابق ، والتي كانت بداية مرحلة الدعوة لموسى عليه السلام وخروجه من قصر فرعون .

وفي هذا إشارة من ابن باديس إلى دعوة الشعب الجزائري لكي يدفع الظلم والطغيان تماما مثل ما فعل موسى عليه السلام في الفتك بالأشرار الطاغين في الأرض ، والفاستدين فيها .

ولا ينفك رجال الإصلاح يشيدون بالرمز القصصي القرآني للسير وأحداث من قبلنا

من الأنبياء والمرسلين وغيرهم ، من أجل أخذ العبرة والإعتبار كالنبي موسى عليه السلام الذي أرسله الله لنصرة الحق ، ودفع الظلم ونبتذ الشرك ، والعبودية لغير الخالق ، وهي الرسالة التي انتدب من أجلها ، للذين " يتخذون من نفوسهم أربابا مصورين من طبيعتهم البشرية الناقصة آلهة يفرضون على السوقة عبادتهم من دون الله وأطفأوا أمامهم سروج الأمل ، فكانوا معهم من سقط المتاع . وأوغلوا في شهواتهم ، وانصرفوا عن نور الإيمان ووضح اليقين وانحسرت نواضرهم عن سبل الهداية فحادوا عن الطريق المستقيم "(2). وهذا الذي دعا إليه موسى عليه السلام قوم فرعون إلى التخلي عنه ، وحاول الدفاع عنه بكل قوة من الله وبشتى

1- القصص : 15.

2- محمد أحمد جاد المولى ، على محمد البجاوي ، محمد أبو الفضل إبراهيم ، قصص القرآن ، ص92.

الوسائل المتاحة له. وهو المنهج الذي حاول رجال الإصلاح الإشادة بتلك الأفعال والأحداث لمحاولة نشرها وبثها في نفوس الأفراد من الشعب الجزائري الذي تكالبت عليه نوائب الدهر المفروضة عليه من طرف أعداء الوطن والدين. لينهض بنفسه ويستدرج وعيه ، وأن كل ما يحاول الاستعمار وأعوانه زرعه في أبناء الأمة من الفساد والتضليل والاشراك بالله معتمدا في ذلك على المجموعات المتشعبة بهذه الأفكار الهدامة ، ووظفت في الأماكن الحساسة والمناصب الدينية كالطرقيون الذين تشبعوا بأفكار الشعوذة والسحر وغيرها من البدع التي ما أنزل الله بها من سلطان ، والتي تصدى لها رجال الإصلاح ، من ضمنهم ذلك الرجل المخلص لوطنه ودينه ، وهو مبارك الملي في كتابه "رسالة الشرك ومظاهره" الذي شرح فيه كل ما ليس له صلة بالدين الإسلامي الحنيف من بدع وغيرها من المظاهر الفاسدة المستمدة غالبا من الديانة المسيحية واليهودية ، وتحدث عن ذلك في عناوين عدة من ضمنها عنوان باسم : " السحر" الذي عبر عنه بأن : "السحر بكسر فسكون مما يلتبس بالكرامات ، ويظن صاحبه قادرا على التصرف في الكائنات ، نافذا عمله في حجب المغيبات " (1)

وهو من المظاهر التي كانت منتشرة بكثرة في الأوساط الاجتماعية ، لذلك أراد أن يبلغ إلى كل ذي بصيرة بأن القيام بهذا العمل فيه شرك بالله ، وعلى المرء اجتنابه ، لأنه مجلبة للدناءة،وهو من أعمال الشيطان،ثم تطرق إلى أنواعها، ومن ضمن تلك الأنواع:"سحر أصحاب التخيل بالصنعة " الذي ورد فيه السحر القبطي : و"من هذا النوع الذي عمدوا فيه إلى الحبل والعصي فحشوها زئبقا فصارت تتلوى ، فخيل للناظرين أنها تسعى باختيارها " (1).

1- مبارك الملي ، رسالة الشرك ومظاهره ، ص155.

فالميلّي في هذا يوضح بأن السحرة بخداعهم واحتيالهم على الكثير من الناس لا محالة سينكشف أمرهم عندما يحق الحق ، ويتفطن كل ذوي البصيرة والعقول النيرة ويذكر الذكي الفطن منهم الغافل ، لأن الكثير من السحرة السابقين أمتهنوا هذه الحرفة المصطنعة عند الأقباط ، وذلك في زمن الطاغية فرعون ، الذي أرسل الله إليهم سيدنا موسى عليه السلام ففي عبارة : "فخيل للناضرين أنها تسعى" ، الواردة في النص رمز إلى قصة سيدنا موسى عليه السلام التي وردت في القرآن الكريم في قوله تعالى : { قَالَ بَلْ أَلْقُوا فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى }⁽²⁾. ومعنى ذلك الموقف الذي خیر فيه موسى عليه السلام من أن يكون هو البادئ ، أم يترك الفرصة لسحرة فرعون الذين جمعوا من أجل الإنتصار والتغلب عليه وهزمه أمام الملأ ، ولكن موسى عليه السلام أسلوبه كان أفضل من أسلوب سحرة فرعون ، حيث أجابهم قائلاً ابدؤوا أنتم لإظهاره عدم الإهتمام بسحرهم ليبدلوا أقصى جهدهم ، وليسحقهم الله بالحق ، ويبطل سحرهم. فalcوا ما عندهم من الحبال والعصي ، فخيل إلى موسى عليه السلام من قوة سحرهم أنها حيات تسعى على بطونها ولعظمة سحرهم فزع منها واضطرب"⁽³⁾.

1- مبارك الميلّي ، رسالة الشرك ومظاهره ، ص 155.

2- طه : 66.

3- محمد علي الصابوني ، صفوة التفاسير ، 239/2.

وفي هذا الإمتحان العسير تدخلت إرادة الله ، للكشف عن موقف موسى عليه السلام وكيف أن عمل السحرة وحيلهم أفرغت موسى عليه السلام نفسه ، وهنا تتجلى قدرة الخالق في فضح هؤلاء القوم ، وإبطال مفعول سحرهم ، ويتضح عجزهم أمام الملأ وعندها تصبح كلمة الله هي العليا ، وكلمة الذين كفروا هي السفلى ، فأوحى الله إلى موسى عليه السلام بالثبات أمام أعداء الله ، وإن نصر الله لقريب ، وذلك بسحق أهل الكفر وتدميرهم وفضحهم أمام الملأ بأنهم ليسوا على حق .

وفعلا هذا ما أراد الملي أن يشير إليه بالنسبة للشعب الجزائري وأبنائه الذين لا بد لهم من الثبات على الإيمان الصادق ، وأن لا ينجروا وراء هذه الإدعاءات والتضليلات المرغوب بثها في وسط الجزائريين من قبل المستعمرين وأعوانهم ، وعليهم بأخذ العبرة من القصص الرمزي الذي ورد في القرآن الكريم ، كالأحداث التي مرت بموسى عليه السلام.

وهذا النمط السائد في التاريخ لا يجب هجرانه أو الابتعاد عنه ، بل لا بد من التمسك به ، لأن المحافظة على إحياء تاريخ أمتنا المجيدة ، الناصع البياض ، هي التي تزود المجتمع ، وتمده بالقوة التي تدفعه إلى المحافظة على كيانه دون الإنزلاق في المهادي التي تؤدي به إلى الاضمحلال والخنوع ، ويصبح فاقدًا للشخصية التي هي أساس إثبات الوجود لأنهم كما يقول الإبراهيمي : "يعلمون أننا نعيش بلا حاضر . ويوجسون خيفة من أن يلم بنا طيف من ذلك الماضي الزاهر فنبنى عليه حاضرا من جنسه أكمل منه"⁽¹⁾.

1- محمد البشير الإبراهيمي ، عيون البصائر ، 118/2.

وإذا كان الإبراهيمي يقتبس في هذا التعبير من القرآن الكريم عبارة "ويوجسون خيفة" الرامزة إلى قصة موسى عليه السلام التي رأيناها عند الملي ، وتوضيح كيف أنه كان خائفا من سحر السحرة ، لما قاموا بإلقاء كل ما ثبت لهم من جدارة تعلم السحر لقهر موسى عليه السلام ، وفعلا بعد شروعه في إبراز مهارتهم في كيفية التصرف في هاته الحيل المعروفة عندهم بالسحر ، وهو ما يتبين من القرآن الكريم أنه وقع في نفس موسى عليه السلام نوع من الهلع والخوف ، وذلك فيما أنبأنا به القرآن الكريم في قوله تعالى : { فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَى ، قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَى ، وَأَلْقَ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدٌ سَاحِرٌ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى }⁽¹⁾.

ومعنى ذلك أن موسى عليه السلام شعر بهول وعظمة الحيل السحرية ، فأحس بالخوف من هول ما رأى ولكن إرادة الله كانت دائما حاضرة ، فأنبأته بأن النصر حليف المؤمنين بالله ، وما عليه إلا إلقاء ما في يده اليمنى فإنها ستزيل كل ما صنعوه من السحر لأن كل ما ابتدعوه وافتعلوه ما هو إلا من باب الشعوذة والسحر ، لأن الساحر كيفما كان ومهما بلغ من المهارة لن ينتصر ولن يفوز بما ينشده ويسعى إليه ، بل إنه مجرد كاذب ومضلل لغيره "⁽²⁾.

إلا أن الإبراهيمي في استعراضه لهذه العبارة : "ويوجسون خيفة" المقتبسة من قوله تعالى : { فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَى }⁽¹⁾.

1- طه : 67-69.

2- محمد علي الصابوني ، صفوة التفاسير ، 239/2.

الرامزة لقصة موسى عليه السلام عند لقائه بفرعون وسحرته ، وهله مما شاهده بأمر عينيه ، يختلف عما يشير إليه الإبراهيمي من ناحية الموضوعية ، لأن ما ورد في تعبير الإبراهيمي هو العكس بالنسبة للحقيقة والواقع لما رمز إليه بهذه العبارة بين موسى عليه السلام وما يهدف إليه هؤلاء التضليلون ، الراغبون في قهر الإرادة التنويرية والمحافظة على ماضيها بكل ما في المقومات الإصلاحية والحضارية.

وفي خضم هذه التداعيات الفكرية الرامزة للحدث القصصي للقرآن الذي ما انفك رجال الإصلاح الجزائريون ينهلون منه ، ومن سيرة حبيبه محمد صلى الله عليه وسلم ، من ذلك ما نلاحظه في موضوع للإبراهيمي بعنوان : "ونعود إلى فصل الحكومة عن الدين" وفي فقرة منه ، يتعرض فيها إلى ما تقوم به هذه الحكومة الفرنسية من التجارب في أبناء الوطن الجزائري ، قبل إنتقالها إلى تشييتهم ، والعبث بهم ، وعندما اكتشفت سرائرهم واطلعت على قرارات أنفسهم ، وعلمت أن أفكار البعض منهم عبارة عن أفكار ساذجة ليست مبنية على أسس علمية ذات منطق سليم واع يدرك أبعاد الأحداث والمؤامرات . لذلك استطاعت أن تتسلل وتتوغل في أوساطهم ، وأن تسمح لنفسها أن تفعل ما يحلو لها من أعمال الطيش والتخريب ، لأنها ليست من الحكومات الصالحة ، ذات البعد التاريخي التي ترى بعين الحنكة والتدبير الراشد كصاحب موسى عليه السلام ، الذي بعثه الله لتعليمه طرق الهداية والإصلاح المتعددة في هذا الوجود ، وهو ما يشير إليه الإبراهيمي لكشف عدم التجانس والتوافق قائلا : "وإن هذه الحكومة تقدم التخريب ، على التخريب وقد جربتكم فوجدت منكم جدارا متداعيا للسقوط ، فما أقامته بل خربته ، لأنه لم يكن لغلامين يتيمين في المدينة ، ولا كان تحته كنز لهما ولا كانت هي تنظر بعين صاحب موسى ... " (2) .

وفي هذا الطرح للمشكل القائم في وسط المجتمع الجزائري المحتل من طرف فرنسا وهي جنس لا يعرف قيمة الإنسانية ، ولا قيمة التحرر التي قامت عليه ثورتهم لتحرير شعبها من عبودية الديكتاتورية المتسلطة ، والعبودية الاستغلالية من طرف الإقطاعيين ورجال الدين المفروضة عليهم في القرون الوسطى ، وحاولت أن تنقل تلك المظاهر اللاإنسانية إلى البلدان الإسلامية ومن ضمنها الجزائر التي حطت الرحال بها ، وحاولت أن تجعلها حقلا لتجاربها الدنيئة التي تنكرها كل الديانات والأعراف الدولية .

ويبدو أن الإبراهيمي يدعو الفرد الجزائري إلى التمعن لما يحاك ضده ، وينتبه له ويتخذ الموقف المناسب للحفاظ على كيانه كإنسان ، مثله مثل من أراد تبديله من إنسان حر مثقف إلى إنسان جاهل مستعبد ومستغل موجه إلى بناء مجد وحضارة غيره ، وذلك في إشارته إلى الرموز الدينية المستقاة من القصص القرآني الذي له علاقة بقصة موسى عليه السلام مع الرجل الصالح وهو الخضر ، تلك القصة المملوءة بالعجائب الغيبية الغريبة ، التي يعجز الفكر البشري عن إدراكها وفهم كنهها ، ويعلم أنه لا يعلم إلا ما علمه العالم الخلاق. فهذه القصة لرسول أوحى إليه ، وله منهج خاص مستمد من التوراة ، صدر منه إفعل ولا تفعل وكذلك قصة عبدصالح الذي من الله عليه من عنده ، ومكنه علما له خصوصية خاصة به .

جاء في التاريخ أن موسى عليه السلام ألقى خطابا في بني اسرائيل ، فلما أشرف على الإنتهاء من خطابه ، سئل من طرف رجل عما إذا كان يعرف من هو أعلم منه فأجاب بالنفي ، فأوحى الله إليه أن لي عبدا بمجمع البحرين هو أعلم منك ، فقال موسى لربه : فكيف أتصل به ⁽¹⁾.

ومع العلم أن موسى عليه السلام في هذه القصة لم يرفض أو يتكبر أن يعلمه عبد من عباد الله "والخضر عليه السلام له تحقيق المعلوم لله الذي قد تغيب نتائجه على سلم العقل فإذا ظهرت حكمة الغيب فيه ، آمن به العقل ، وهذه الاصطفائية للخضر ليس معناها أن يفهم البعض أنه فوق موسى عليه السلام ، لا إنما لكل وجهة الله هو مولياها" ⁽²⁾.

هكذا إنطلق موسى عليه السلام مع صاحبه الرجل الصالح ليعلمه من علمه كما جاء في قوله تعالى : { قَالَ لَهُ مُوسَى هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَنْ تُعَلِّمَ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا } ⁽³⁾. وفي هذا تنبيه للمخلوقات البشرية من الله سبحانه ، أنه مهما تعلم الإنسان وبلغ درجة عالية من العلم يجب عليه ألا يغتر بنفسه ويتكبر ، لأن الكبرياء لله وحده . لذلك على الإنسان أن يتخذ العبرة من موسى عليه السلام ، وأن يتعظ به.

والإبراهيمي أشار إلى هذه القصة في عبارة : "فوجدت منكم جدارا متداعيا للسقوط ..."

1- محمد متولي الشعراوي ، قصص الأنبياء والمرسلين ، ص322-323.

2- المرجع السابق ، ص323.

3- الكهف : 66.

التي اقتبسها من قوله تعالى : { وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا } (1).

ومعنى ذلك أن الخضر عليه السلام استمر في رحلته مصاحباً لموسى عليه السلام ليزيده اطلاعا ومعرفة على ما لم يكن مطلعاً عليه من العلوم الغيبية ، ونتيجة لاستعجال موسى عليه السلام على ما يقع أمام عينه ، وعدم صبره على ما اتفق عليه مع الخضر عليه السلام من أن يكون صابراً ، ولا يطلب الاستفسار عما يحدث في رحلتها تلك حتى نهاية المطاف .
لكن تلك الأحداث كانت كلها بالنسبة لنبي الله موسى ظلماً واعتداءً سافراً ، وفي كل واقعة يحاول الاستفسار عنها ، وفي الأخير أي في حادثة الجدار التي كانت آخر المطاف لرحلة موسى عليه السلام مع الرجل الصالح الذي أجابه على استفساراته قائلاً : سأنبئك بتأويل الفائدة والحكمة من تلك الأعمال التي قمت بها، ومن ضمنها في الأخير بناء الجدار الذي أوشك على الإنهيار ، وكيف أن الله أرسله إلى إصلاحه للحفاظ على كنز الغلامين اليتيمين في هذه المدينة ، والمال الصالح لرجل صالح يبتغيه الله لذرية صالحة ، لذلك أراد الله أن يحفظه للغلامين إلى حين بلوغهما وحاجتهما إلى ذلك الكنز فيرشدتهما إليه ، هذا بإيجاز بالنسبة لما تشير إليه الآية .

أما ما يهدف إليه الإبراهيمي فهو يختلف عن عمل الرجل الصالح ، لأن الاستعمار

الفرنسي وغيره من الاستغلايين في هذا الوجود ، لم يتعظوا بهذه العظة الأخلاقية والحكمة الإلهية ، ويفعلون ما فعله الرجل الصالح ، مع جدار الغلامين ، يصلحون من أمر الشعوب التي تعيش تحت سلطتهم ، سواء تعلق الأمر بالمساواة أو العدل أو الحرية ، وهو الأمر الذي ينكره الإبراهيمي عن هؤلاء الإستبدايين ، لأنهم مجردون من الإنسانية وغيرها من الفضائل الأخلاقية ، لذلك فهم لا ينظرون إلى غيرهم ، بمنظار الرجل الصالح صاحب موسى عليه السلام ، وإنما هم عكسه تماما .

ونجد الإبراهيمي في هذا المجال لا ينفك يدعو إلى اليقظة ، والتمعن في مجريات الأحداث والبحث في المقارنة بين عمل الرجل الصالح ، وأولئك الذين لا يرغبون في بناء العقول والأفكار العلمية الخلاقة بل همهم الوحيد هو الهدم والتضليل ، وفعلا تلك هي دعوة الإبراهيمي إلى هذه الأمة الإسلامية للعودة إلى جادة الصواب ، ووقوفها جماعيا استعدادا للدفاع ضد كل ما من شأنه أن يكون عقبة من أجل تحرير البلاد والعباد .

وإذا ما انتقلنا في مجال مضرب الأمثال ، والتأثر بالرمز الموضوعي الذي جاء في القرآن عن موسى عليه السلام كذلك ، نجد مصلحا آخر من مصلحي الجزائر الذي ما انفك يزود عن الأمة الإسلامية عامة والجزائر خاصة ، وهو أبو اليقضان الذي ورد عنه في حديثه عن الجمود الفكري قوله : " تعتقد أن العقل آلة صماء لا تتصرف ، وآلة عاطلة لا يجوز استعمالها

في شأن من الشؤون ، ونقد زائف يجب أن يحكم صره في صرة ، ويوضع في رف عتيق

بجدار متداع للسقوط" (1). هكذا نلاحظ الإشارة الواضحة في هذا النص والاقتراس من الذكر الحكيم ، الذي يبدو أنه سيطر على ثقافة الكاتب في عبارة : "بجدار متداع للسقوط" وهي نفس العبارة السابقة التي أشار إليها زميله الإبراهيمي ، مما يدل دلالة واضحة أن هناك علاقة الإشتراك الثقافي المستمد من القرآن الكريم في قصة موسى عليه السلام . تلك الأحداث التي رسخت إمتياز شخصية موسى عليه السلام ، عند الهيئة الإصلاحية وغذت أفكارهم بشتى القنوات والدلائل القاطعة ، لذلك كان لزاما عليهم بتوجيه الدعوة للقضاء على الأوهام ، والوقوف ضد الاستبداد ، وكل مخلفات الاستعمار كالمسخ والتشويه ، ونسيان الذات ، ومحاولة العودة بهم إلى الماضي التليد ، وانطلاقا منه إلى الأفاق المستقبلية ذات البعد الجوهري والحقيقي ، حفاظا على الكرامة الإنسانية .

د- عيسى عليه السلام :

إن هذه الشخصية تعد من معجزات خلق الله سواء تعلق الأمر في ولادته من مريم البتول أو في كلامه وهو في المهد ، وإحياء الموتى ، وشفاء المرضى ، وإبراء الأكمه والأبرص واقتران ذكره بالرفق والرحمة ، والطهر والنقاء ، والعلم بما يعانيه ويحسه ، كل ذلك أدى إلى لفت أنظار الأدباء ، والتعبير عنها بالدلالات الرمزية ، وفسح المجال واسعا لاستحضار هذه الشخصية العظيمة ، والتعاليم التي جاءت بها من أجل إحترام الإنسانية وإسعافها حتى يسود الحب ، والرحمة والشفقة ، والهداية إلى وحدانية الله ، وهو ما يحاول الإبراهيمي أن يكشفه ، ويشير إليه ، بأن الذين يدعون بأنهم مكلفون بالمحافظة على تلك التعاليم التي جاء بها المسيح عليه السلام تخلوا عنها وتحولوا إلى وحوش الفلاة .

1- محمد ناصر ، أبو اليقظان وجهاد الكلمة ، المؤسسة الوطنية للكتاب ، ط:2 ، 1983 ، ص87.

وفي تصويره لهؤلاء الذين نصبوا أنفسهم محافظين على تعاليم المسيح عليه السلام والذين يدعون تقمص تلك الفكرة يقول : "الراهب المبشر ذئب الفلاة ، يتربص اليتيم لينصر الأبناء والمجاعات ليفتن الآباء ، فكان من وصايا المسيح عنده أن لا يطعم البطن إلا إذا أخذ القلب وأن لا يكسو الظهر إلا بالتجريد من الدين ، ولا ينشر تعاليم المسيح إلا باستغلال أزمات الضعفاء والبائسين ! ... حَاشَ لدين المسيح عليه السلام وكلمته التي ألقاها إلى مريم أن يكون هذا طريقه إلى النفوس ، وهذه طريقته في الإنتشار. إن المسيح كان عدوا للظلم والباطل"⁽¹⁾.

وهكذا نلاحظ أن هناك عدم انسجام الأعمال مع الأقوال ويتضح ذلك في تصريح أحد المسؤولين الفرنسيين بعين صالح⁽²⁾ قائلا : أن فرنسا جاءت إلى الجزائر وفي نيتها إصلاح المجتمع الجزائري لأنها أتت بالمعلم ، والطبيب ، والراهب ، هذا "بعد أن أجرت لهم عملية التلقيح بمادة "الاستعمار" ، وهي مادة من خصائصها تعقيم الخصائص ، فلم يبق المعلم معلما علميا ، ولا الطبيب طبيبا إنسانيا ، ولا الراهب أبا روحيا ، وإنما جاؤوا في ركاب الاستعمار ليخدموه ويثبتوا أركانه"⁽³⁾.

1- محمدالبشير الإبراهيمي ، عيون البصائر ، 85/2.

2- المرجع نفسه ، 83/2.

3- المرجع نفسه ، 84-85.

وهو عكس ما كان يدعو عيسى عليه السلام إلى نبذه ، وإحلال الخير محله ونشر العدل والمساواة ، والإخاء بين بني الانسانية جميعا مهما كان إختلافهم في الشكل أو اللون أو اللغة ، خلافا لما يقوم به الراهب المنتدب إلى بلاد الجزائر لتضليل الشباب عن دينه الإسلامي القويم مستندا على حقيقة التوحيد الذي لا شبهة فيه ، ونبذ كل ما يؤدي إلى الشرك عملا بقوله تعالى : { وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ وَلِأَحْلِ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَجِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ، إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ } (1) .

ومعنى ذلك أن السيد المسيح يعلن حقيقة التصور الإعتقادي الذي يجب أن يكون عليه دين الله كله ، لأن المعجزات الصادرة منه ، لم تكن من تلقاء نفسه ، وليس له قدرة عليها وهو بشر ، إنما كان ذلك من عند الله ، وأن دعوته تلك تنبئ على تقوى الله والطاعة لرسوله . وأن التوجه في العبادة لا يكون إلا لله دون سواه ، وما دون ذلك فهو إعوجاج وإنحراف ، وليس بالدين السوي (2) .

ويحاول الإبراهيمي أن يكشف تصرف اليهود المجردين من الإنسانية والذين نصبوا من طرف الأقوياء في فلسطين بلاد العرب والمسلمين بعد تسليمها لهم من طرف الانجليز وإحلالهم محلهم ، حيث قام السكان بمحاولة الدفاع على أرض فلسطين أرض الإسلام والعروبة ولكن لم يسعفهم الحض على الإنتصار ، لعدم وجود مساعدة قوية تمكنهم من دحض

1- آل عمران : 50-51.

2- سيد قطب ، في ظلال القرآن ، ، م : 1 ، 1-401/4.

اليهود المستقدمين من أنحاء العالم من طرف تلك الدول القوية ، وبترخيص من قبل تلك الدول القوية ، المنتصرة في الحرب العالمية الثانية ، والذين لا يعلمون بأن هؤلاء اليهود من الذين ينقضون العهود والمواثيق ، وهو ما يرمز إليه الإبراهيمي في تصويره في قصة زعمهم أنهم قاموا بصلب عيسى عليه السلام وأن "اليهود الذين كذبوا الأنبياء وقتلوهم ، وصلبوا- بزعمهم- المسيح الصادق ، وشردوا حواريه من فلسطين ، وكفروا بمحمد صلى الله عليه وسلم بعدما جاءهم بالبينات"(1).

و في هذا إشارة رمزية للسيد المسيح عليه السلام الواردة في الذكر الحكيم ، فيما تصور الآية الكريمة في قوله تعالى : {وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا}(2).

ولقد جاء في صفوة التفاسير للصابوني أن المراد من قوله تعالى : { وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ } (3). نجاة "عيسى من شر اليهود الخبيثاء فلم يقتل ولم يصلب وإنما صلبوا شخصا غيره ظنوه عيسى وهو الذي ألقى الله الشبه عليه فقتلوه وهم يحسبونهم عيسى ، وهذا هو الاعتقاد الحق الذي يتفق مع العقل والنقل ، وأما النصارى فيعتقدون أنه صلب وأن اليهود أهانوه ووضعوا الشوك على رأسه وأنه تضرع وبكى مع زعمهم أنه هو "الله" أو "ابن الله" وأنه جاء ليخلص البشرية من أوزارها إلى غير ما هنالك من التناقض العجيب الغريب"(1).

وهذا-كما نرى- أمرٌ مناقضٌ للتفكير الإنساني السليم المبني على التزييف والتضليل الموجه لشخص نبي الله عيسى عليه السلام الذي لا يسمح ولا يجوز لأي كائن موحد لله أن يطعن فيه ، ويتهمه بالإخلال فيما أرسل إليه من لدن خالقه ، لأنه المسيح الصادق المتصف بالعديد من الصفات ، وهي الصفة الحميدة التي لا يمكن أصلا أن تخلو من نبي مرسل من الله مهما كان الأمر.

1- المرجع السابق ، 401/1.

2- النساء : 157.

3- النساء : 157.

2- الرمز اللغوي :

بعد استعراضنا للرمز الموضوعي ، نلاحظ أن هناك نوعاً آخر من الرموز ، وهو اللغوي الذي يجب بنا أن نتعرض إليه ، لما له من أهمية في البحث لارتباطه باللغة ، واعتماده كل الاعتماد على اللفظ الذي " يحمل دلالة لغوية معينة ثم يأتي القرآن فيجعله رمزا إلى نكرة أو مشهد أو سلوك ، فالنور والظلام مثلا لهما دلالتهم اللغوية المعروفة ، ولكن القرآن حين يذكرهما في مواضع خاصة يقصد إلى دلالة الأولى على العلم والهدى والرشاد ، ودلالة

1- محمد علي الصابوني ، صفوة التفاسير ، 319/1.

الثانية على الجهل والكفر والظلال " (1) ، كما جاء في قوله تعالى : {الرَّ كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ } (2).

أي أن هذا القرآن العظيم كتاب أنزلناه عليك يا محمد ، وهو أشرف ما أنزله الله من السماء ، على أشرف رسول بعثه الله في الأرض إلى جميع مخلوقات البشر عربهم وعجمهم ليخرجهم من ظلمات الجهل والظلال والغبي إلى الهدى والرشاد ، ونور العلم والإيمان (3). والاستقامة والاعتدال . وإذا ما أمعنا النظر في التراث الذي خلفه لنا رجال جمعية الإصلاح في النثر الجزائري الحديث ، نلاحظ عليهم السعي الحثيث نحو التمسك بتراث الأجداد الذي استمدَّ أصالته من الثقافة الإسلامية ، ويبدو ذلك جليا لدي أقطاب الدعاة الإصلاحيين كمحمد السعيد الزاهري الذي كتب موضوعا بعنوان : " طلبة إفريقيا الشمالية " ، تعرض فيه إلى تلك الفئة من الشباب التي حملت لواء الإصلاح الديني واصفا إياها في قوله : " وقد وفقت إلى أن تحطم بالقرآن العظيم كثيرا مما لصق بالإسلام من خرافات وأضاليل ، وهي ترجو أن يهيء الله لها من أمرها رشدا ، فيرجع المسلمون إلى الدين الخالص ، والإسلام الصحيح ويخرجهم من الظلمات إلى النور " (1).

1- شلتاغ عبود شراد ، أثر القرآن في الشعر العربي الحديث ، ص228.

2- إبراهيم : 1.

3- ابن كثير ، تفسير القرآن العظيم ، 1568/2.

- أنظر محمد علي الصابوني ، صفوة التفاسير ، 90/2.

وهكذا كان تعبير هذا الكاتب رامزا بهذا اللفظ المستقى من القرآن الكريم ، وفى الإطار نفسه نجد الشيخ العربي التبسي يتعرض لنفس اللفظ الذى تعرض له الزاهري " الظلمات والنور " فى حديثه عند فتح دار التلميذ الجزائرى ، التى كانت نتيجة ثمرة الجهد المبذول من طرف جمعية العلماء المسلمين الجزائريين ، المجاهدين الصابرين، حتى يتحقق لهم ذلك الحلم والخيال المنتظر الذى يقول فيه : " وقدمتها باسم الله إلى شبابنا العامل المناضل فى سبيل الدين ، والعروبة والقومية ، والوطنية لتكون له مأوى الراحة والاستقرار ، يركن إليها فيجد فيها الهناء والسعادة ، ويصفو له طلب العلم والتفرغ له والبقاء فيه ويغدق على الأمة بعد حين من فيض علومه ، ونور قلبه وخالص نصيحته ما يخرجها من الظلمات إلى النور ، ويهديها الطريق السوي الذى يبوئها مقعد صدق لدى الأمم الحية الراقية " (2)

واضحٌ من هذا النص أن صاحبه يتمتع بروح عالية ، ورصيد ثقافي عميق الجذور مستمد من القرآن العظيم ، لذلك فهو يغرف منه كل ما يناسبه ، ويجوز له توظيفه عند الحاجة ، ليدعم به نصوصه لتكون حجة دامغة ، ودليلا قاطعا وذلك مثل عبارة "الظلمات والنور" المستمدة من الآية الكريمة السابقة . التى تعني الانتقال من حالة اليأس والقنوط ، إلى حالة الإشراقة النورانية ، والأمل فى الحياة السعيدة والمستقبل الزاهر .

1- محمد السعيد الزاهري ، الإسلام فى حاجة إلى دعاية وتبشير ، ص 38.

2- العربي التبسي ، مقالات فى الدعوة ، جمع وتعليق: 222/1.

وفي خضم محاولة إبراز هذه الصحوة ، وطمس كل ما يقوم به أولئك التضليليون من المستعمرين وأذئابهم المقربين إليهم ، الذين وقف لهم رجال الإصلاح بالمرصاد ، ومن ضمنهم عبد الحميد ابن باديس الذي كتب في موضوع له بعنوان : "عداويون" ثم "وهاييون" قائلا : " رأينا واجبا علينا أن نقوم بالدعوة العامة إلى الإسلام الخالص والعلم الصحيح إلى الكتاب والسنة ، وهدى صالح سلف الأمة ، وطرح البدع والضلالات ، ومفاسد العادات فكان لزاما أن نؤسس لدعوتنا صحافة تبلغها للناس فكان المنتقد وكان الشهاب ونهض كتاب القطر ومفكروه في تلك الصحف بالدعوة خير قيام ، وفتحوا بكتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وآله وسلم أعينا عميا وأذانا صما وقلوبا غلفا " (1).

فالكاتب في هذا النص استوحى من القرآن الكريم لفظة "غلف" التي وردت في الآية الكريمة قال تعالى : {وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ ، فَقلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ} (2). ومعنى هذه الآية أن قلوب اليهود في أكنة ، أي مغطاة ، لذلك فهم لا يعلمون ولا يفقهون ما يقوله النبي صلى الله عليه وسلم ، ولا يسمعون إلى داعية جديد تتييسا لمحمد – صلى الله عليه وسلم – وللمسلمين - من دعوتهم إلى هذا الدين ، أو تعليلا لعدم إستجابتهم لدعوة محمد صلى الله عليه وسلم ، وأنهم مطرودين ومبغدين من رحمته بسبب كفرهم وظلالهم ، والقليل ممن يؤمن منهم ببعض الكتاب ويكفر بالبعض الآخر (3).

1- ابن باديس ، حياته وأثاره ، جمع ودراسة : عمار الطالبي ، 28/3.

2- البقرة : 88.

3- ابن كثير ، تفسير القرآن العظيم ، ص240. - أنظر محمد علي الصابوني ، صفوة التفاسير ، ص77.

فالصورة التي وردت في لفظة "غلف" (*). ترمز إلى الحالة التي تسود الوسط الشعبي الجزائري ، والصراع السائد بين رجال الإصلاح ومنوئيههم ، الحاصل بين فئة ذات عقلية متتورة وأخرى تنتمي إلى مجموعة الظلاميين الذين أعماهم ظلام الجهل والتخلف المؤدي بهم إلى الإنحطاط السافل .

وهكذا نجد هذه الرموز الدلالية المقتبسة من القرآن الكريم ، التي لا تخلو منها كتابات رجال الإصلاح ويبدو ذلك في الموروث الثقافي البارز في نص آخر بعنوان : "رحلتنا إلى العمالة الوهرانية باسم الجمعية" (1). لابن باديس أيضا ، الذي حاول فيه وصف الرحلة ، بدأ نصه بتمهيد وضح فيه ما القصد من تلك الرحلة ؟ وما هو هدف الجمعية ؟ وهو محاربة الآفات الإجتماعية عن طريق الوعظ، والإرشاد بالهداية القرآنية ، وهي أنجع دواء لدى المسلمين ، ثم انتقل إلى وصف الرحلة ، وذكر ما قام به من إلقاء المحاضرات والدروس، وفي نص له بعنوان جانبي: "الإشاعات الباطلة" (2)، يتحدث عن الفئة الضالة التي تحاول دحض وتسفيل كل ما يصدر عن أعضاء الجمعية الاصلاحية مبرزاً ذلك في قوله : " قد منيت هذه الجمعية بمن يحاربها بالباطل ، ويعرقلها بالإفك ويستحيل في إذايتها العظامم فأشاعوا عنها كل إشاعة شنيعة ، ورموها بكل نقيصة ورذيلة حتى قالوا إنها جمعية تنكر البعث والنشور دع ما هو دون ذلك . ولكننا كنا - والحمد لله - لا نفرغ من الدرس العام حتى تنحل عقد الشيطان كلها ويقول الناس بلسان ... حالهم" (1). { وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا } (2).

*- غلف الشيء : غطاه وجعله في غلاف ، والقلوب الغلف : المغشاة بأغشية .
- أنظر محمد اسماعيل ابراهيم ، معجم الألفاظ والأعلام القرآنية ، دار الفكر العربي ، ط : 2 ، دت : 93/2 .

1- أثار عبد الحميد بن باديس ، من مطبوعات وزارة الشؤون الدينية ، 24/4 .

2- المرجع نفسه ، ص 261.

يصور ابن باديس في هذا النص تلك الطائفة الضالة الفاقدة لنور الحقيقة والرشاد والراغبة في دحض كل الجهود المبذولة من طرف رجال الإصلاح . ولقد وردت لفظة : "النشور"(*) . المستقاة من القرآن الكريم في قوله تعالى : {وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَّاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فُسُقْتَاهُ إِلَى بَلَدٍ مَيِّتٍ فَأُحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَلِكَ النُّشُورُ }⁽³⁾ .

وفي ذلك ما يدل على أن " هذا المشهد يتكرر في معرض دلائل الإيمان الكونية في القرآن لأنه دليل واقعي ملموس ، لا سبيل إلى المكابرة فيه ولأنه من جانب آخر يهز القلوب حقا حين تتملأه وحين يقضى ؛ ويلمس المشاعر لمسا موحيا حين تتجه إلى تأمله وهو مشهد جميل مثير . وبخاصة في الصحراء حيث يمر عليها الإنسان اليوم وهي محل جذب جرداء . ثم يمر عليها غدا وهي ممرعة خضراء من أثار الماء ، والقرآن يتخذ موحياته من مألوف البشر المتاح لهم ، مما يمرون عليه غافلين عنه . وهو معجز معجب حين تتملأه البصائر والعيون"⁽¹⁾ .

1- المرجع السابق ، ص 261.

2- الإسراء : 81.

*- النشور : بعث الموتى يوم القيامة ، محمد اسماعيل ابراهيم ، معجم الألفاظ للقرآن الكريم ،

291/2.

3- فاطر : 9

ولقد وردت كلمة "النشور" عند العربي التبسي بنفس المعنى تقريبا ،
وذلك في موضوع له بعنوان : "نداء" ⁽²⁾. وجهه إلى الشعب الجزائري ،
مفتتحا إياه بهذه العبارة المعبرة :

" أيها الشعب العظيم ! إستعد لليوم العظيم !" ⁽³⁾. هكذا وبمثل هذه
النداءات الموجهة إلى الأمة الجزائرية من أجل المحافظة على كيائها
الذاتي والشخصي ، الذي يتطلب منها الإتحاد والتعاون ، فيما يخص بناء
المؤسسات الثقافية لنشر العلم الذي يحيي القلوب التي أماتها الجهل،
وتحديد يوم يحتفل به ، يدعى يوم العلم .

وكل ما تهدف إليه في هذا هو ما أقتبسه الكاتب من القرآن في نصه
الذي وردت فيه لفظة "النشور" في محاولة وصفه لمشهد يستذكر بأنه :
"هو يوم الثامن من شهر نوفمبر 1953. هو اليوم المشهود الذي يؤمه
القاصي والداني من رجال الأمة الجزائرية ، وتشد إليه الرحال من الوهاد
والجبال فيجتمع الشعب في صعيد واحد ، حول المؤسسة ذات العماد التي
لم يخلق مثلها في البلاد . ويحتفل بيوم العيد يوم النور يوم البعث
والنشور. ذلك هو اليوم الموعود" ⁽⁴⁾.

1- سيد قطب ، في ظلال القرآن ، 2929/5.

2- العربي التبسي ، مقالات في الدعوة ، جمع وتعليق : شرفي أحمد الرفاعي ، 121/1.

3- المرجع نفسه ، ص221.

4- المرجع نفسه ، 221/1 .

هكذا نجد هذه اللفظة : "النشور" التي يقصد بها النماء والإنبات وعودة الحياة في النفوس التي حاول المستعمر إماتها وإزالتها والقضاء على هويتها من الوجود. تلك هي الصورة اللفظية الرامزة إلى روح الانبعاث والتجديد المستلهمة من القرآن الكريم المصدر الحقيقي والأساسي الذي يسعى حثيثا إلى دفع الإنسان للمطالبة بالحرية والإنعتاق ، والذود عنها بكل ما أوتي من قوة.

وبهذا الأسلوب المستمد من القرآن الذي تشبع به رجال الإصلاح كابن باديس وغيره من الذينهم ما انفكوا يقتبسون هذه الألفاظ القرآنية .و يستعملونها بنفس الدلالات القرآنية حيناً ، وحيناً آخر في تصوير تلك الحالة تصويراً غير واقعي ، كما هو الشأن في لفظة : " القيامة " التي أتى بها ابن باديس في نص عبر فيه عن الصعوبات التي تعترض له أثناء قيامه تبليغ المهمة المسندة إليه ، والمكلف بأدائها كما يجب بكل ثبات على النهج القويم ، والصراط المستقيم إذ يقول: إن " اتباع السنة هو النجاة ، وأن الناس لن يغنوا عني من الله شيئاً فأخذت في ذلك على حكم التدرج في بعض الأمور ، فقامت علي القيامة وتواترت علي الملامة وفوق إلي العتاب سهامه ، ونسبت إلي البدعة والضلالة وأنزلت منزلة أهل الغباوة والجهالة وإني لولا التمسك لتلك المحدثات مخرجا لوجدت غير أن ضيق الطعن والبعء عن أهل الفطن"⁽¹⁾.

بهذا التوجيه إلى السلوك السوي في أقتفاء أثار السنة لكل من أراد النجاة ، والخروج من المأزق والمحن ؛ لأن ذلك هو السبيل الأمثل لمن يعاني ما عانتة الأمة الجزائرية في تلك الفترة الاستعمارية.

1- ابن باديس ، حياته وأثاره ، جمع ودراسة : عمار الطالب ، 30/3.

كما حاول الكاتب أن يقدم صورة مما يعانيه من طرف الاحتلال وأعوانهم من الاتهامات الباطلة كالغباوة والجهل ، والظلال وغيره من صفات الذم والسخرية ، ومع ذلك تمسك بمنهجه في التوجيه والإصلاح ، رغم كيد الكائدين ، وعجرفة المتعجرفين المرتدين الذين أقاموا عليه الدنيا وأقعدوها لعله يتوقف عند ذلك القدر من التبليغ، دون مواصلة مهمته الإصلاحية ، ولكن ابن باديس كان موقفه غير ذلك ، وأبى إلا أن يواصل مشواره في تبليغ رسالته كاملة ، وكان النصر حليفه بقوة إيمانه بالله عز وجل عملاً بقوله تعالى { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ }⁽¹⁾ .

الفصل الرابع

أثر القرآن الكريم في الصورة والتصور والتصوير

تمهيد :

قد تكون الصورة عبارة عن ظاهرة من ظواهر الطبيعة ، وهي إما أن تكون حقيقية أو خيالية ، وجاء عن الجواهري أن : "الصور بكسر الصاد ، لغة في الصور جمع صورة" (1) . والصور وردت في أسماء الله تعالى : المصور وهو الذي صور جميع الموجودات ورتبها وأعطى كل شيء منها صورة خاصة ، ومفردة يتميز على إختلافها وكثرتها " (2) .

وفي هذا نجد الصورة في الأدب هي الكلمة المستعملة في التعبير " للدلالة على كل ما له صلة بالتعبير الحسن ، وتطلق أحيانا للاستعمال الاستعاري للكلمات " (3) . ونلاحظ أنه عند رؤية صورة من الصور ، فإن ذلك يؤدي فعلا إلى الانفعال الذي تصحبه من الإدراك الحسي الناتج عنه "الأثر النفسي الذي ينشأ مباشرة من انفعال حاسة أو عضو حاس ... وهو يعني الفهم أو التعقل بواسطة الحواس ، وذلك كإدراك ألوان الأشياء وأشكالها وأحجامها وأبعادها بواسطة البصر" (4) .

من خلال هذه التعريفات يتضح لنا أن التصور هو عبارة عن العلاقة التي تربط بين الصورة والتصوير الذي تعد أدواته الفكر لا غير ، خلافا للتصوير المتعلق بالنسبة لأداته التي هي الفكر واللسان واللغة (1) .

1- الجواهري ، الصحاح ، 716/2 .

2- ابن منظور ، اللسان ، 473/4 .

3- عبد الفتاح صالح نافع ، الصورة في شعر بشار بن برد ، دار الفكر ، عمان ، 1983 ، ص51 .

- وانظر صلاح عبد الفتاح الخالدي ، نظرية التصوير الفني ، ص75 .

4- المرجع نفسه ، ص74 .

وقد ورد أن " الأديب الفنان يستخدم التعبير لتصوير التجربة الشعورية التي مرت به للتأثير في شعور الآخرين بنقل هذه التجربة إلى نفوسهم في صورة موحية ، مثيرة لانفعالهم . ومن هنا يستمد التعبير قيمته من عالم النقد ، فالتعبير ليس ألفاظا وعبارات فقط . ولكنه هو العمل الأدبي الكامل باعتبار ما يصوره من التجارب الشعورية"⁽²⁾.

ولكي تكون الرؤية أكثر واقعية في هذا الصدد يجب معرفة : " عملية التحقيق الإدراكي"⁽³⁾ التي نجدها " تتكون من مرحلتين متميزتين : الأولى هي إتصال الحواس بالعالم الخارجي ، ونقل معطياته إلى العقل.والثانية : التجريد ، حيث تتكون في الذهن بناء على الإدراك لأفكار شديدة التجريد ، لا يمكن نقلها إلى الآخرين إلا بعد تحويلها إلى صور"⁽⁴⁾.

وللإدراك في رأي " برتراند راسل " ينقسم إلى نوعين : " الإدراك الحسي ، والإدراك

العقلي. فأما الإدراك الحسي فهو الشعور بوجود الأشياء التي يقع عليها الحس ، كرؤيتنا للمنضدة أو سماعنا لأصوات البيانو . والإدراك العقلي فهو ما يحدث عندما نفهم معنى كلمة مجردة .

1- المرجع نفسه ، ص74.

2- المرجع نفسه ، ص75.

3- نبيل رشاد نوفل ، العلاقات التصويرية، منشأة المعارف بالإسكندرية ، د-ت ، د-ط ، ص28-29.

4- المرجع نفسه ، ص 28-29.

فليس من الإدراك العقلي أن نرى قطعة من الثلج الأبيض ، أو نستعيد صور
قطعة منه ، كان قد وقع عليها بصرنا في لحظة ماضية ، لكن إذا جعلنا
موضوع تفكيرنا هو "البياض" ، فذلك هو الإدراك العقلي"⁽¹⁾.

1- المصدر السابق ، ص29.

1- التصوير الفني في القرآن الكريم

أما إذا حاولنا البحث في الإعجاز القرآني وعلاقته الفنية ، بالأسلوب التصويري المتبع في القرآن ، من أجل تبليغ الدعوة إلى من وجهت إليهم من الشعوب ، حيث نجد سيد قطب في هذا الصدد يقول : " لا يرمي إلى مجرد أداء المعنى الذهني ، إنما يريد الصورة كذلك والصورة تقتضي التنويع ، ليتم التناسق مع الأجزاء الأخرى في اللوحة ، أو المشهد المعروض"(1).

وفي ذلك اعتقاد بأن في الصورة ما يدل على أن التصوير من الركائز المهمة والأساسية في أسلوب القرآن ، لذلك فهو " لا ينتهي إلى أداء المعنى الذهني مجردا ، إنما ينبض بطبيعته بصورة حية للمعاني"(2). وهنا يحاول سيد قطب من خلال رؤيته أن يضبط ما يهدف إليه من الصورة الفنية في القرآن . ويعرف التصوير على أنه : "الأداة المفضلة في أسلوب القرآن ، فهو يعبر بالصورة الحسية المتخيلة عن المعنى الذهني ، والحالة النفسية وعن الحادث المحسوس ، والمشهد المنظور ، وعن النموذج الإنساني والطبيعة البشرية"(3).

تلك هي الطريقة المثلى والفعالة ، لإدراك معنى الخطاب القرآني لتشخيص وتجسيم معانيه . بوسائل مختلفة ويتصورها المتلقي بخياله ، كأنه واقع أمامه(4).

1- سيد قطب ، التصوير الفني في القرآن ، دار الشروق ، القاهرة، ط:7، 1982، ص119.

2- المصدر نفسه ، ص119.

3- المصدر نفسه ، ص36 .

4- العربي لخضر ، الدراسة الفنية للقصة القرآنية ، دار الغرب للنشر والتوزيع وهران الجزائر ، د-ط ، د-ت ص105.

1-1- خصائص التصوير الفني في القرآن :

إن المتمعن في القرآن ، والمهتم بدراسته ، يلاحظ عليه أنه كتاب ديني محض لا غبار عليه، وهذا لا ينكشف أمامنا بديهيا ، بل بالعكس من ذلك ، لأنه يتخذ نمط إسقاط الصورة الفنية على السلوك ، المعتمد على التصوير الحقيقي المتحرر في تعبيره ، ولا ينحصر ضمن ما هو معروف عن الأنماط البلاغية ⁽¹⁾ . وحسب ما ذهب إليه النقد الحديث ، أن الصورة ليست منحصرة في التشبيه ، أو الاستعارة أو المجاز لا غير ، بل هي في تعريف "راي لويس" تشكيل مرتبط بالألفاظ ، وقد ينبثق من الاستعارة أو التشبيه صورة ، ومع ذلك يمكن للصورة الخلاقة أن تخلق من العبارة الوصفية خالصة شيئا أفضل من الإنعكاس الحرفي للحقيقة الخارجية ⁽²⁾ . ونستشف ذلك مما جاء في قوله تعالى : {وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا كَذَلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَافِرٍ} ⁽³⁾ .

هكذا تكشف لنا هذه الآية الكريمة ، عن حال الأشقياء الفجار الجاحدين الذين لا يؤمنون بالقرآن وكذبوا بالأنبياء والرسل ، فجزاؤهم عن كفرهم نار جهنم ، والعذاب الدائم المستمر دون إنقطاع ، وهذه صورة الجزاء لكل متمادٍ في العصيان والنكران للحق ⁽⁴⁾ . وهو ما يوضحه لنا التعبير القرآني الهادف إلى بناء وتشكيل صور جمالية خلابة متميزة

1- أنظر شلتاغ عبود شراد ، أثر القرآن في الشعر العربي الحديث ، ص 164.

2- محمد لطفي الصباغ ، التصوير الفني في الحديث النبوي ، المكتب الإسلامي ، بيروت ، ط: 1 ، 1983 ص 489.

3- فاطر: 36.

4- أنظر محمد علي الصابوني ، صفوة التفاسير ، 578/2.

نستطيع ملاحظته في التوضيح الذي أدلى به سيد قطب عن التصوير الفني الذي يقول عنه هو " الأداة المفضلة في أسلوب القرآن ، والقاعدة الأولى للبيان "(1). مضيفا : " أنه يعبر بالصورة المحسنة المتخيلة عن المعنى الذهني والحالة النفسية ، وعن النموذج الإنساني والطبيعة البشرية ، كما يعبر عن الحادث المحسوس ، والمشهد المنظور ، ثم يرتقي بالصورة التي يرسمها ، فيمنحها الحياة الشاخصة ، أو الحركة المتجددة ، فإذا المعنى الذهني هيئة أو حركة وإذا الحالة النفسية لوحة أو مشهد ، وإذا النموذج الإنساني شاخص حي . فأما الحوادث والمشاهد ، والقصص والمناظر ، فيردها شاخصة حاضرة فيها الحياة ، وفيها الحركة ، فإذا أضاف إليها الحوار ، فقد استوت لها كل عناصر التخيل"(2).

1- سيد قطب ، التصوير الفني في القرآن ، ص71.

2- المرجع نفسه ، ص71.

1-2-2- خصائص الصورة :

يمكننا محاولة التعرف على خصائص الصورة بشيء من الإيجاز وبالقدر الممكن.

1-2-1- التخيل الحسي :

إن هذا النوع من الخصائص يعتبر القاعدة الأولى والسمة البارزة ، التي يعتمد عليها التصوير الفني في القرآن . علما بأن " الخيال هو الميدان الذي تظهر فيه الصورة الفنية . إن هذه الصور تعمل عملها في الخيال ، وتدخل إليه عن طريق الحس والوجدان ، وتثير في النفس شتى الانفعالات والأحاسيس والتأثيرات ، وعندما يكون اكتشافه للصور الفنية أدق وتذوقه لها أتم وبيانه لها أوضح ⁽¹⁾ .

والتخيل الحسي الوارد في الآيات القرآنية التي تتدرج ضمن التصوير الفني للقرآن الكريم في قوله تعالى : { قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا } ⁽²⁾ . وإن هذا لون من ألوان التخيل ، الذي يتمثل في الحركة السريعة المنحصرة في الآية السابقة في قوله تعالى : { وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا } ، وهي الصورة المثيرة للخيال في حركة الاشتعال التي تدب في الرأس ، كحركة اشتعال النار في الهشيم ⁽³⁾ . وفي هذا التصوير ما نلمسه من إحساس ندركه عن طريق الخيال الذي يضيف عليه هالة

1- صلاح عبد الفتاح الخالدي ، نظرية التصوير الفني ، ص131.

2- مريم : 4.

3- سيد قطب ، التصوير الفني في القرآن ، ص78.

من الجمال الفني الوارد عن طريق التشبيه للشيب بشواظ من النار في نضاعة بياضه وانتشاره في الشعر ، وأخذه منه مأخذ الاشتعال بالنار⁽¹⁾.

ومن ضمن هذا القبيل من التخيل الحسي في التصوير الفني في القرآن كذلك قوله تعالى : { إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تُفْتُحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ وَكَذَلِكَ نَجْزِي }⁽²⁾. أي أن الذين لا يؤمنون بالآيات القرآنية المنزلة على الرسول صلى الله عليه وسلم ، وكذبوا برسائله مستكبرين جاحدين فإنهم لا ينتفعون ولا يتحصلون على أي شيء من عمل طيب ، ولا يمكن لأرواحهم أن تصعد إلى السماء كما تصعد أرواح المؤمنين⁽³⁾. ولا يدخلون الجنة حتى يدخل الجمل في ثقب الإبرة وفي هذا تمثيل الإستحالة في ولوج الكفار الجنة ، كما يستحيل على الجمل وهو بتلك الضخامة أن يدخل ثقب الإبرة . وفي هذا مبالغة في التصوير مع ما فيه من الدقة الفنية التخيلية⁽⁴⁾.

ويبدو التخيل الحسي أنه الخاصية التي تشتمل على الوضوح ، والبنية الأولى التي تبنى عليها الصورة ، والممكنة الوجود في كافة الصور الفنية ، إلى أن أصبح من القواعد العامة للتصوير ، وللتخيل الحسي لدى سيد قطب ألوان حصرها في خمسة ألوان⁽¹⁾. نحاول التعرض لها فيما يلي :

1- الزمخشري ، تفسير الكشاف ، 2/4.

2- الأعراف : 40.

3 - الزمخشري ، تفسير الكشاف ، 107/2.

4- أنظر محمد علي الصابوني ، صفوة التفاسير ، 446/1.

1-2-2-1- ألوان التخيل الحسي

1- **التشخيص** : يذهب سيد قطب في تعريفه للتشخيص بأنه " يتمثل في خلع الحياة على المواد الجامدة ، والظواهر الطبيعية والانفعالات الوجدانية . هذه الحياة التي قد ترتقي فتصبح حياة إنسانية ، وتشمل المواد والظواهر والانفعالات ، وتهب لهذه الأشياء كلها عواطف آدمية وخلجات إنسانية ، تشارك بها الأدميين ... " (2). عن طريق الأخذ والعطاء ويشعرون بالحياة في شتى المجالات التي تقع عليها العين ، أو تشتمل على إحساس مرهف . والتشخيص يبدو في كثير من السور القرآنية ، وهو المعروف عند البلاغيين بـ : " المجاز " وهو اللفظ المستعمل في غير ما وضع له لعلاقة المشابهة . وهذا النوع من التصوير يبعث في النفس معاني الجمال والانسراح ، حسب ما ذهب إليه " البلاغيون فإن النفس تأنس بالشيء الحسي أكثر مما تأنس بالمدر ك المعنوي " (3).

ومن الأمثلة على وجود التشخيص في الصور القرآنية ما نلاحظه في الآية التي تشخص جهنم : { إِذَا أُلْقُوا فِيهَا سَمِعُوا لَهَا شَهِيقًا وَهِيَ تَفُورُ ، تَكَادُ تَمَيِّزُ مِنَ الْغَيْظِ كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ } (1).

1- العرابي لخضر ، الدراسة الفنية المعاصرة للقصة القرآنية ، ص125.

2- سيد قطب ، التصوير الفني في القرآن ، ص73.

3- العرابي لخضر ، الدراسة الفنية المعاصرة للقصة القرآنية ، ص126 ، نقلا عن : سمير أبو

حمدان ، الإبلالية في البلاغة العربية ، ص 146.

ففي هاتين الآيتين رسم لمشهد من مشاهد جهنم في حالة غيظ شديد، لأن جهنم مخلوق حي من مخلوقات الله ، وعند استقبالها للذين كفروا ، تحاول أن تخفي قلقها الشديد فتتصاعد زفرات أنفاسها في شهيق وتفور ؛ فتمتلئ جوانحها غيظا ، لما تحمله من بغض وكره للكافرين .
والمتمعن في هذا التعبير الذي ورد في الآيتين ، يكتشف أنه في ظاهره تصوير مجازي لحالة جهنم . ومع ذلك فهناك إحساس يقر بالحقيقة .
لأن لكل خليفة من خلق الله حياة تتميز بروح من نوعها الخاص بها ، وتسبح بحمد ربها ، وتقف مندهشة عندما ترى الإنسان يكفر بخالقها .
وتتميز غيظا من الجحود المنكر وتنفر منها روحها ، وتلك حقيقة جاءت في القرآن في مواضع كثيرة ومنه قوله تعالى : { تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا }⁽²⁾ . وكذلك قوله تعالى : { وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ مِنَّا فَضْلًا يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ وَالنَّارُ لَهُ الْحَدِيدُ }⁽³⁾ . هذه تعبيرات لا مجال فيها للتأويل⁽⁴⁾ .

1- الملك : 7- 8.

2- الإسراء : 44.

3- سبأ : 10.

4- سيد قطب ، في ظلال القرآن ، 6/ 3634- 3635.

وفي وجود التشخيص التخيلي في الصور القرآنية . في المثال الوارد سابقا عن تشخيص جهنم { سَمِعُوا لَهَا شَهيقًا وَهِيَ تَفُورُ ، تَكَادُ تَمَيِّزُ مِنَ الْغَيْظِ } ⁽¹⁾ . أي أن جهنم من المخلوقات الحية من البشر التي تتصف بكظم الغيظ ، الذي يؤدي إلى إرتفاع أنفاسها ، فتفور وينطلق منها شهيقا يحدث هلعًا شديدًا مخيفًا .

2- التخیل بتوقع الحركة : فالصور الفنية للقرآن الكريم تبرز لنا الكثير من الرسوم لصور متحركة تعبر عن معنى من المعاني ، أو حالة من الحالات ، "ويذهب الحس والخيال مع هذه الحركات المصورة ، ولكن الريشة المصورة المعجزة لا ترسم هذه الحركات كلها دائما وإنما تبقى الحركة الأخيرة حيث يقف التعبير على الحركة التي قبلها" ⁽²⁾ . والأمثلة على هذا اللون كثيرة في القرآن الكريم . وخير مثال على ذلك ، ما جاء في قوله تعالى : { وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ } ⁽³⁾ . أي أن هناك من الناس من يعبد الله على حافة وطرف من الدين ، مذبذبين بالنسبة للذين لا يعبدون الله عن ثقة ويقين بل عن قلق واضطراب ⁽⁴⁾ . حيث تصور الآية هذا النوع من الأشخاص كأنهم في حركة جسدية متأرجحة موشكة على السقوط عند الدفعة الأولى . وبذلك ينقلب على وجهه ⁽¹⁾ إذا ما أصيب بمكروه وبلاء فيرتد ويعود إلى ما كان عليه من الكفر.

1- الملك : 7-8.

2- صلاح عبد الفتاح الخالدي ، نظرية التصوير الفني عند سيد قطب ، ص140.

3- الحج : 11.

4- أنظر محمد علي الصابوني ، صفوة التفاسير ، 282/2.

ومنها صورة النجاة من الوقوع في الخطر المتمثل في قوله تعالى : {وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُم مِّنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ} (2). أي النص القرآني يشير إلى عمق المشاعر ، ويحاول الغوص في عمق ، ليصور القلوب على أنها عبارة عن حزمة مؤلفة متناسقة بيد الله ، كما يرسم لنا النص صورة لما هم فيه ، ومشهدا حيا متحركا ، يتمثل في حركة السقوط في حفرة النار متماثلة أمام الأعين ، إذا بإرادة الله تمد لتعصم تلك المخلوقات من الخطر المحقق ، وتلك هي صورة النجاة والخلاص بعد الخطر المرتقب (3).

3- اللون الثالث : يتمثل في الحركة المتخيلة التي تبعث في النفس بعض التعبيرات ، لأن الصورة القرآنية تتكون في بعض الأحيان "من ألفاظ تبنى عليها هذه الصورة أو جزء من أجزائها ، وبعض هذه الألفاظ يلقي في نفس القارئ وحسه وخياله حركة متخيلة ، وهذه الحركة لا ترد على الخيال لولاه . إذ يكون في تركيب هذا اللفظ ودلالاته ما يستدعيها" (4).

1- أنظر سيد قطب ، في ظلال القرآن ، 2412/4.

2- آل عمران :103.

3- أنظر سيد قطب ، في ظلال القرآن ، 443/1.

4- صلاح عبد الفتاح الخالدي ، نظرية التصوير الفني عند سيد قطب ، ص142.

وهو ما يمثله قوله تعالى: { وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنْثُورًا }⁽¹⁾. وإذا أمعنا النظر في هذا النص القرآني نلاحظ فيه "لفظة "فقدمنا" ذلك أنها تخيل للحس حركة القدوم التي سبقت نثر العمل كالهباء . وهذا التخيل يتواري بكل تأكيد لو قيل : وجعلنا عملهم هباء منثورا . حيث كانت تنفرد حركة النثر وصورة الهباء دون الحركة التي تسبقها : حركة القدوم"⁽²⁾.

وبالمثل ما ورد في قوله تعالى : { وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَاتَّبِعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الضَّالِّينَ }⁽³⁾.

ففي كلمة "فاتبعه الشيطان" تشعر الخيال بحركة متخيلة لإنسان خرج عن طاعة الله ، ينسلخ إنسلاخ الحي من أديمه اللاصق بكيانه ، ويتجرد من الغطاء الواقعي ، والغطاء الحامي ، وينحرف عن الهدى ليلتبع الهوى ، فيصبح غرضا للشيطان ، يتبعه ويستحوذ عليه لكي لا يعود إلى الآيات التي تخلصها عنها وتركها خلفه⁽⁴⁾.

انطلاقا مما في هذه الأمثلة وغيرها ، نلاحظ أن تلك الحركة المتخيلة ماكان لها أن تبرز في الخيال ، إلا عن طريق تلك الألفاظ المصورة التي تثبت الإحساس في النفس وتشعر الخيال بهذه الحركة .

1- الفرقان : 23 .

2- سيد قطب ، التصوير الفني في القرآن ، ص76-77.

3- الأعراف : 175.

4- أنظر سيد قطب ، في ظلال القرآن ، 1396/3 .

4- اللون الرابع : يتمثل في حركات سريعة متخيلة فهذا النوع من التعبير القرآني في حالة تشخيصه ورسمه للصور الفنية ، ذات حركات سريعة متتابعة متخيلة ، توصل إلى إتمام تلك الصور ، ومن ضمنها صورة الذي يشرك بالله ، كما جاء في قوله تعالى : {حُنْفَاءُ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ }⁽¹⁾. وفي هذا تمثيل للمشرك في ضلاله وهلاكه ، كما يلاحظ وهو يهوي في سرعة الحركة وشدتها وتتابع الخطوات في اللفظ "بالفاء" ، والإختفاء بسرعة ، على شاكلة القرآن الكريم في التعبير بالتصوير .

وتلك هي صورة لمن يشرك بالله ، فيصبح من الذين انزلقوا من أفق الإيمان القوي إلى مهاوي الفناء والا ندثار . فاقدا لقاعدة التوحيد والاستقرار النفسي والاطمئنان ، وينساق وراء الأهواء ، التي تتقاذفها الأوهام حسب تقاذف الرياح ، ولا يتمسك بالعروة الوثقى ، تلك القاعدة الثابتة للإستقرار في الوجود الذي يعيش فيه⁽²⁾.

وليس ببعيد عما يشبه ذلك بالنسبة للحركة المتعددة السرعة المتخيلة قوله تعالى : {مَنْ كَانَ يَظُنُّ أَنْ لَنْ يَنْصُرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ فَلْيَنْظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدَهُ مَا يَغِيطُ }⁽³⁾. هذه صورة من الصور العجيبة التخيلية السريعة التي تلاحظ في الذين يئسوا من نصره الله لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم ، فلينصرفوا لقتل أنفسهم إن كان الأمر يتعلق بغيظهم . فإن النصر لا محالة آت من الله .

1- الحج : 31.

2- سيد قطب ، في ظلال القرآن ، 4/2421-2422.

3- الحج : 15 .

5- **اللون الخامس :** يتمثل في حركة التخيل الساكن الذي يبعث في التعبير القرآني الحياة والحركة " فينتفض حيا متحركا ... عن طريق الحس والخيال ، يملأ النفس شعورا بالجمال "(1). وما نلاحظه ينطبق على ما جاء في قوله تعالى : { وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ } (2)، وهو ما يدل على صورة الأرض الساكنة التي تبعث فيها الحياة والحركة من جديد من جراء تلك العيون التي تنفجر من الأرض بسبب سقوط الأمطار من السماء .

2- أثر التصوير القرآني في النثر :

وبهذا القدر اليسير من الاستعراض التصوري للقرآن الكريم ننتقل إلى تقديم بعض النماذج التصويرية التي حاول كتاب نهضة الإصلاح في الجزائر استنباطها واستلهاها من القرآن الكريم في كتاباتهم النثرية.

2-1- اللفظ المعبر عن الصورة :

لقد حدث أنه في بعض الأحيان تشترك عدة ألفاظ في عبارة رسم الصورة الفنية تارة وتارة أخرى تكون مساعدة على استكمال معالمها ، وبالتالي تكون الصورة قد استكملت رسمها التام .

1- الخالدي ، نظرية التصوير الفني عند السيد قطب ، ص 145 .

2- القمر : 12.

وهذا جانب من الجوانب التي يطلق عليها نوع من الإعجاز في التعبير القرآني إلا أن هناك نوعاً آخر من هذا الإعجاز أسمى منه ، ذلك أنه " قد يستقل لفظ واحد- لا عبارة كاملة- برسم صورة شاخصة - لا بمجرد المساعدة على إكمال معالم صورة - وهذه خطوة أخرى في تناسق التصوير ، أبعد من الخطوة الأولى ، وأقرب إلى قيمة جديدة في التناسق . خطوة يزيد من قيمتها أن لفظاً مفرداً هو الذي يرسم الصورة ، تارة بجرسه الذي يلقيه في الأذن وتارة بظله الذي يلقيه في الخيال ، وتارة بالجرس والظل جميعاً "(1)

ويمكننا أن نتوقف عند اللفظة القرآنية التي لها علاقة بالصورة . ولكن ذلك لا يمكن أن يكون من حيث البنية اللغوية الموسيقية نفسها بل بالعكس يكون من حيث رسم صورة قرآنية أو استحضار مشهد قرآني . عند استخدام الكاتب لها في سياق خاص ، بحيث يحصل الفضل في جعل تلك اللفظة المعبر عنها بالصياغة التي تساهم في تداعي المعاني والصور التخيلية لدى المتلقى المثقف بالثقافة القرآنية ؛ لأن : " أسرار الإعجاز الأدبي لا تكون في المعاني اللغوية والنحوية ، وهي المعاني الأولى ، وإنما تكون في المعاني الثانية ، وهي التي يحملها الأديب اللفظ أو العواطف البشرية التي تمتلئ بها الألفاظ والتراكيب "(2)

والأمثلة اللفظية القرآنية التي استعان بها الكتاب الإصلاحيون وتجاوزت المعاني اللغوية الأولى ، إلى الاستعارية الثانية ، وصارت عندها محملة بصور عاطفية خفية ، ومن ذلك

1-سيد قطب ، التصوير الفني ، ص91.

2- عبود شراد شلتاغ ، أثر القرآن في الشعر العربي الحديث ، ص174 ، نقلاً عن الدكتور : محمد أحمد خلف الله الفن القصصي في القرآن الكريم ، مكتبة الانجلوا المصرية ، القاهرة ، ط : 3 ، 1965 ، ص237.

ما ورد في موضوع للإبراهيمي عن حديثه عن مهام جمعية علماء المسلمين ، وفي عنصر فرعي بعنوان " عملها في توجه الأمة " . إذ يقول في فقرة منه : " إن الأمة الجزائرية - كغيرها من الأمم الإسلامية - ما سقطت في هذه الهوة السخيفة من الانحطاط إلا حين فقدت القيادة الرشيدة في الدين ، تلك القيادة التي هي قبس من شعلة الوحي ، وشعبه من قوة النبوة ، التي تنبثق عنها جماعات المسلمين ، حينما يضرب الفساد والنخر في أصول مجتمعهم . فإذا وحدت الأمة هذه القيادة التي لا يسفه في يدها زمام ، ولا تضطرب مقاده . وجدت نفسها ؛ ومن وجد نفسه وجد الحقيقة " (1) .

وفي هذا توضيح بأن الأمة الجزائرية ما هي إلا جزء من الأمم الإسلامية ، التي فقدت سلطتها وقوتها ، وصارت إلى الانحطاط أقرب منه للتحضر ، والسبب في ذلك يعود هنا للتخلي عن القيادة الرشيدة في الدين ، لأنه لا يمكن صلاح الأمة إلا بالعودة بما صلح به أولها .

وهو بتعبير : " تلك القيادة التي هي قبس من شعلة الوحي " التي يقدم لنا فيها صورة غنية ، عن القيادة الرفيعة الشأن ، الثابتة الإيمان ، وإن ما يهمننا في هذا النص هي اللفظة المعبر عنها بـ: "قبس" التي استلهمها الكاتب من القرآن الكريم الوارد في قوله تعالى : { هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى ، إِذْ رَأَى نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَّعَلِّي آتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجْدُ عَلَى النَّارِ هُدًى } (1) .

1- محمد البشير الإبراهيمي ، عيون البصائر ، 35/2 .

ومعنى هذا أن موسى عليه السلام "ذهب يطلب قبسا من النار ؛ ويطلب هاديا في السرى ... ولكنه وجد المفاجأة الكبرى . إنها النار التي تدفئ لا الأجسام ولكن الأرواح" (2).

وفي هذا ما يكسب اللفظة " قبس " في بعدها القرآني صياغة تصويرية فنية قوية ، وعمقا تخيليا ، وجودة نص الكاتب ، لأنه قبس القدرة القوية ، ذات النور الإلهي الساطع ، الذي تهتدي به الأمة ، وبه وحده تستطيع الخروج من ظلمات المحنة العسيرة التي تتخبط فيها الأمة .

وفي نص آخر للإبراهيمي يتحدث فيه عن اللغة العربية ، بعنوان اللغة العربية في الجزائر . عقيلة حرة ليس لها ضرة . إذ يقول فيه : " وطار إلى البربر منها قبس لم تكن لتطيره لغة الرومان ، وزاحمت البربرية فأحالتها عربية ، كل ذلك باختيار ولا أثر فيه للجبر ، واقتناع لا يد فيه للقهر ، وديموقراطية لا شبح فيها للاستعمار . وكذب وفجر كل ما يسمى الفتح الإسلامي استعمارا " (3).

وفي هذا التوضيح للمكانة التي حظيت بها اللغة العربية في الجزائر ، دون سواها من اللغات مفندا تلك الأقوال الدعائية المغرضة بأنها لغة استعمار ، ولكن انتشارها كان عكس ما يروج له كلا من دعاة التفرقة ، وزرع البلبلة ، والتشتت من أجل إحلال الاستعمار.

1- طه : 9-10 .

2- سيد قطب ، في ظلال القرآن ، 4/2330.

3- محمد البشير الإبراهيمي ، عيون البصائر ، 2/221.

وما يضيفي هالة على هذا التصوير البارع ، هو تلك الاقتباسات اللفظية القرآنية كالتى أشرنا لها آنفا والتي أوردها الإبراهيمي في عبارة نصه قائلا : "وطار من البربر منها قبس" التي ضمنها لفظة "قبس" المستقاة من سورة طه الآية (10) التي مرت بنا ، وفي هذا الاستعراض الذى يصور لنا ظاهرة انتقال هذه اللغة العربية ، وكيفية تقبلها من طرف الأهالي الجزائريين وخاصة منهم المتدينين بالدين الإسلامى ، المشتمل على التوجيهات الإلهية الهادية إلى النور المبين ، والوعد الحق.

وإذا ما انتقلنا من هذه اللفظة إلى لفظة أخرى استحضرها الكاتب الإبراهيمي في موضوع له ، يتحدث فيه عن آثار اعتقال الأستاذ العقبي نتيجة قيامه بالدعوة الإصلاحية ، التي نذر رجال الإصلاح من أجلها أنفسهم حين يقول : "وإننا لنبتهج بالمصيبة تصيبنا في سبيل الإصلاح أضعاف ما يبهج غيرنا بالطيبات والمسار وتعد كبيرها أعضل وأذى صغيرا هينا وخفيها مهما أظفح وبغت ظاهرا جليا ، ونأسى لأغابها عنا كما يأسى المحل للجذب ، ونترقب إمامها بساحتنا كما يترقب غيرنا النعم والخيرات لعلنا أن المعاني التي تتركها في نفوسها هي المعاني التي نصبوا إليها وإن تمر سناها باب من أبواب الرجولة وسبيل من سبلها"⁽¹⁾.

يلاحظ في هذا النص ، أن الإبراهيمي وظف لفظة "يترقب" التي استقاها من الآية الكريمة في قوله تعالى: {فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا الَّذِي اسْتَنْصَرَهُ بِالْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ قَالَ لَهُ مُوسَى إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُبِينٌ} ⁽¹⁾ ، وتوضيح قوله تعالى : {فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفًا يَتَرَقَّبُ} ، معناها أن موسى عليه السلام الذي قتل القبطي ، أصبح بعد وقوع الحادث يتوجس الخوف على نفسه ، وينتظر المكروه ، نتيجة لما بدر منه في إغتياله للقبطي ⁽²⁾.

1- محمدالبشير الإبراهيمي ، آثاره ، 207/1.

ولفظ "يتربق" يصور حالة القلق التي تنتاب موسى عليه السلام ، ويتوقع الشر في كل لحظة وتفيد اللفظة "يتربق" سمة الشخصية الإنفعالية البارزة سواء تعلق الأمر بما ورد في نص الإبراهيمي، وفي موقف موسى عليه السلام ، لأن التعبير بتلك اللفظة يجسم هيئة الحيرة والقلق ، ومما يزيد في الضخامة هي كلمة "في المدينة" التي تعرف في أكثر الحالات بأنها موطن الإستقرار والأمن والراحة ؛ لأن الإضطراب والخوف الكبير ما كان في مأمن ومستقر! (3).

وفي حديث آخر يستعرض الإبراهيمي ، فضل اللغة العربية على العلم والمدنية التي تأثرت بها الأمم غير العربية ، يقول أن : " العربية لم تخدم مدنية خاصة بأمة . وإنما خدمت المدنية الإنسانية العامة ... ، وقد كانت هذه اللغة في القرون الوسطى يوم كان العالم كله يتخبط في ظلمات الجهل هي اللغة الوحيدة التي احتضنت العلم وآوته ونصرته" (4).

1- القصص : 18.

2- محمد علي الصابوني ، صفوة التفاسير ، 428/2.

3- أنظر سيد قطب ، في ظلال القرآن ، 2682/5.

4- محمد البشير الإبراهيمي ، آثاره ، 263/1.

وهذا توضيح لقيمة اللغة العربية ومكانتها الرفيعة في تاريخ الإنسانية ، التي كانت كالشمس الساطعة على العالم كله لإزالة ظلمات التخلف والجهل التي تتخبط فيها البشرية جمعاء.

وفي حديث الإبراهيمي السابق عن اللغة العربية ، نلاحظ تأثره بالقرآن الكريم وخاصة في استحضار اللفظة القرآنية " ظلمات " التي اقتبسها من الآية الكريمة في قوله تعالى : { أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ ، يَعْشَاهُ مَوْجٌ مِّنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ ، مِّنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ . ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ ، إِذَا أَخْرَجَ يَدُهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا . وَمَنْ لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ }⁽¹⁾.

ومعنى ذلك أن الكفر ظلام مختلف أشد الاختلاف عن هدى الله ونوره المنتشر في الكون . وصورة " الظلمات " هي المشهد الذي يؤدي بالناس إلى الظلال والكفر ، الذي لا يمكن التغلب عليه ، إلا إذا جاء بعده مشهد الإيمان ، الذي ينير الكون الفسيح ، المتمثل في الوجود كله ، شاخصا يسبح لله وحده⁽²⁾.

وفي نص آخر لمحمد السعيد الزاهري يشير فيه إلى جماعة الإصلاح الديني التي اتخذت القرآن الكريم دستورا لها لتتير به أفكار الشباب الجزائري ، وإزالة ما تعلق بأذهانهم من ثقافة التضليل ، والخرافات الواهية التي لا تمت بأي صلة إلى الإسلام ؛ لأن الإسلام الصحيح هو الوحيد الذي يخرجهم من الظلمات إلى النور . وذلك بفضل تلك " الفئة المباركة من جماعة " الإصلاح الديني " التي جعلت دستورها القرآن الكريم الذي هو خير جامعة تجمع أشتات الجزائريين المتناثرة . وفقت إلى أن تهدم كثيرا مما علق بالإسلام من خرافات وأضاليل ، وهي ترجوا أن يهيئ الله لها من أمرها رشدا ، للعودة بالمسلمين إلى الدين الخالص ، والإسلام الصحيح ، ويخرجهم من الظلمات إلى النور " ⁽¹⁾.

1- النور : 40.

2- أنظر سيد قطب ، في ظلال القرآن ، 2521/4.

والهدف من استعراضنا لهذا النص هو ادراج الكاتب للفظة :
"الظلمات"- التي استلهمها من القرآن الكريم - لتصوير المشهد الواقعي
للشباب الجزائري ، وخاصة ما يحاول الاستعمار القيام به من أجل إبعاده
عن دينه الإسلامي وإيقاعه في أتون الإلحاد ، والشك والحيرة ، مستندا في
ذلك على ما جاء في قوله تعالى : { هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ عَلَى عَبْدِهِ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ
لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَإِنَّ اللَّهَ بِكُمْ لَرَؤُوفٌ رَّحِيمٌ } (2) . وهذا
يهدف إلى إظهار نعمة الله التي وجدت بين أظهر الشعب الجزائري ،
المتمثلة في جماعة الإصلاح التي تدعو الأمة بلغة السماء وتخاطبهم بكلام
الله ، قائلين لهم لقد أخطأتم وأنتمم فتوبوا إلى الله ولا تقنطوا من رحمته
التي وسعت كل شيء .

تلك هي دعوة جماعة الإصلاح المستمدة من القرآن الكريم . وهو ما
يجب التمسك به والاقتراء بهديه الذي ينير لهم الطريق ، ويهديهم إلى سبيل
الهدى والرشاد . ويمكن إيضاحه بشتى الوسائل ، ومن ضمنها المثل الذي
سنتطرق إليه في الصفحات الموالية .

1- محمد السعيد ، الإسلام في حاجة إلى دعاية وتبشير ، ص38.

2- الحديد : 9.

2-2- المثل : " والمثل والمثيل كالمثل والجمع أمثال ... والمثل الشيء الذي يضرب لشيء مثلا فيجعله مثله" ⁽¹⁾ ، "ومثل الشيء أيضا : صفته" ⁽²⁾ .

وللتوضيح أكثر نسوق ما ورد عن أبي عبيد بأن : "الأمثال حكمة العرب في الجاهلية والإسلام ، وبها كانت تعارض كلامها فتبلغ بها ما حاولت من حاجاتها من المنطق لكناية غير تصريح ، فيجتمع لها في ذلك ثلاث خلال : إيجاز اللفظ ، وإصابة المعنى ، وحسن التشبيه ، وقد ضربها النبي صلى الله عليه وسلم ، وتمثل بها هو ومن بعده من السلف" ⁽³⁾ .

و لقد جاء عن الرسول صلى الله عليه وسلم : " **إِنَّ مِنَ الْبَيَانِ لَسِحْرًا** " ، ويعني بذلك الرسول عليه السلام ، أنه كثيرا ما يصدر من كلام البلغاء ، ما يؤدي إلى إظهار وإبراز الباطل في صورة حق ، ومعلوم أن البيان هو عبارة عن إجتماع الفصاحة والبلاغة مع ذكاء القلب ، وطلاقة اللسان ، وقد شبه ذلك بالسحر لقوة تأثيره في قلب السامع وهكذا نجد هذا المثل يضرب في حالة إستحسان المنطق ، وإبراز الحجة البالغة ⁽⁴⁾ .

1- ابن منظور ، اللسان ، م: 11، ص 611.

2- الجوهري ، الصحاح ، 1816/5.

3- السيوطي ، المزهري في علوم اللغة وأنواعها ، دار الجيل بيروت ، د-ط ، د-ت ، 486/1.

5- أنظر الميداني مجمع الأمثال ، منشورات دار مكتبة الحياة ، بيروت لبنان ، د-ت ، ط: 2، 15/1.

وهكذا نجد أن " الأصل في المثل أنه قائم على تشبيه شيء بشيء لوجود عنصر تشابه أو تماثل بينهما ، أو لوجود أكثر عنصر تشابه"⁽¹⁾.

2-2-1- التمثيل البسيط :

وهو الذي يشتمل على التمثيل المفرد ، " لأن الممثل له يشابه الممثل به ومن وجه من الوجوه أو جانب من الجوانب ، كتمثيل الجاهل بالأعمى ، والعالم بالبصير والجاهل بالظلمات والعلم بالنور"⁽²⁾.

2-2-2- التمثيل المركب :

وهو التمثيل الذي يلاحظ عليه أنه يقدم على شكل لوحة تصور أكثر من مفرد ووجه الشبه فيه لا يكون مأخوذاً من مفرد بعينه ، بل يكون مأخوذاً منه ومن غيره أو من الصور العامة"⁽³⁾.
ونستطيع أن نسوق أمثلة للتمثيل البسيط من طرف أحد المصلحين من رجال جمعية العلماء وهو العربي التبسي . في مقال له بعنوان : " نداء" الموجه للشعب الجزائري ليكون مستعداً لليوم العظيم الذي هو افتتاح الأمة الجزائرية لمؤسستها الكبرى هي : دار التلميذ الجزائري ، حيث سعت جمعية العلماء الجزائريين لإخراجها للوجود ، " وقدمتها

1- عبد الرحمن حسن الميداني ، أمثال القرآن ، دار القلم دمشق ، ط : 2 ، 1992 ، ص19.

2- المرجع نفسه ، ص45.

3- المرجع نفسه ، ص45.

باسم الله إلى شبابنا العامل المناضل في سبيل الدين والعروبة ، والقومية والوطنية لتكون له مأوى الراحة والاستقرار ، يركن إليها فيجد فيها الهناء والسعادة ، ويصفو له طلب العلم والتفرغ له ، والبقاء فيه ، ويغدق على الأمة بعد حين من فيض علومه ، ونور قلبه وخالص نصيحته ما يخرج من الظلمات إلى النور ، ويهديها الطريق السوي الذي يبوؤها مقعد صدق لدى الأمم الحية الراقية ، والعقل السليم في الجسم السليم⁽¹⁾ .

تطرق الكاتب في هذا النص إلى عدة مضامين وأهداف تمكن الطلبة الذين يؤمنون المؤسسات العلمية من التزود منها بما يكفيهم من الأفكار التي تنير عقولهم ، وهو ما عبر عنه الكاتب في نصه السابق كمضرب للمثل ، لذلك النشء الذي ينهل من فيض تلك العلوم التي تخرجه من ظلمات الكفر إلى نور الإيمان وهذا مصداقا لقوله تعالى : {رَسُولًا يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِ اللَّهِ مُبَيِّنَاتٍ لِّيُخْرِجَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَمَنْ يُؤْمِن بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا قَدْ أَحْسَنَ اللَّهُ لَهُ رِزْقًا}⁽²⁾ .

وكذلك قوله تعالى: {الرَّ كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ}⁽³⁾ أي ليخرج المؤمنين المتقين من الضلالة إلى الهدى ، ومن ظلمة الكفر والجهل إلى نور الإيمان والعلم⁽¹⁾

1- العربي التبسي ، مقالات في الدعوة إلى النهضة الإسلامية في الجزائر ، جمع وتعليق :شرفي أحمد الرفاعي ص221-222
2- الطلاق :11.
3- إبراهيم :1.

نلاحظ أن الكاتب في تمثيله له دلالة واضحة بتأثره بهذه الآيات القرآنية التي حاول أن يقدم لنا من خلالها صورة تمثيلية من فيض القرآن الكريم الذي شبه فيها الظلمات بالجهل والعلم بالنور وهكذا .

أما إذا إنتقلنا إلى النوع الثاني من التقسيم التمثيلي ، وهو التمثيل المركب الذي جاء في لوحة المثل ، التي تصور " المنافق المتردد المتذبذب الحيران ، الذي تتجاذبه المتناقضات وهو قادر على أن يسمع الإنذارات التي تهز قلبه ، ولكنه يعرض عنها"(2) .

ونوع هذا التمثيل الذي ينطبق على المنافقين ، ورد في قوله تعالى :
{مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ صُمُّ بُكْمٌ عُمِيٌّ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ، أَوْ كَصَيْبٍ مِنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ أَبْصَارَهُمْ كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَشَوْا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ ، إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ}{(3)} .

فالنص يشتمل على مثلين للمنافقين : فالصنف الأول مرد على النفاق ، وهم الكفار

1- أنظر محمد علي الصابوني ، صفوة التفاسير ، ص403، ابن كثير ، تفسير القرآن العظيم ، ص2916.

2- عبد الرحمن الميداني ، أمثال القرآن ، ص21.

3- البقرة: 17-20.

دون شك ، انهم كانوا يتظاهرون بالإسلام من أجل تضليل المسلمين ،
وهؤلاء هم الذين نزل فيهم قوله تعالى : {صَمُّكُمْ عَمِّي فَهُمْ لَا
يَرْجِعُونَ} ⁽¹⁾ ، خلاف للصنف الثاني من المنافقين

المتذبذبين بين الإيمان والكفر ، وهو إلى الكفر أقرب .

وعلى غرار هذا التمثيل القرآني نلاحظ عبد الحميد بن باديس يقتبس
هذا التمثيل ويستعمله من أجل تبليغ الرسالة التي قام رجال الإصلاح
بتوصيلها إلى من هم بأمس الحاجة إليها من الأمة الجزائرية ، ألا وهي
الدعوة إلى الإسلام الخالص والعلم الصحيح ، وهو القائل لقد : " رأينا
واجبا علينا أن نقوم بالدعوة العامة إلى الإسلام الخالص والعلم الصحيح
إلى الكتاب والسنة وهدى صالح سلف الأمة وطرح البدع والضلالات
ومفاسد العادات ، فكان لزاما أن نؤسس لدعوتنا صحافة نبلغها للناس
فكان المنتقد وكان الشهاب ونهض كتاب القطر ومفكروه في تلك الصحف
بالدعوة خير قيام وفتحوا بكتاب الله وسنة رسوله - صلى الله عليه
وسلم - أعينا عميا وآذانا صما وقلوبا غلفا " ⁽²⁾ ، وفي هذا ما يوضح
دور ما قام به رجال الإصلاح من الأعمال الجليلة التي فتحت آفاقا
ومجالا واسعا في حياة الفرد الجزائري الذي ظل سبيل الهداية بسبب
ماكان رجال التبشير الذين استقدمهم الاستعمار معه يروجون له ، وهو
الأمر الذي أشار إليه الكاتب بأن ما قاموا به نحو مجتمعهم هو فتح : "
أعينا عميا وآذانا صما وقلوبا غلفا " ⁽³⁾ .

1- البقرة : 18 .

2- ابن باديس ، حياته وأثاره ، جمع ودراسة : عمار الطالبي ، 28/3 .

3- المرجع نفسه ، ص28

إن ما ذهب إليه الكاتب في تمثيله الذي قدمه في نصه السابق ، أن عملهم أي رجال الإصلاح ، كان حقا الأسلوب الأمثل في فتح الآفاق للذين كانوا فاقد الحواس لا يرون ولا ينطقون ولا يسمعون ، وقلوبا مغطاة ، إلا أن إرادة الخالق كانت فوق إرادتهم ، إذ ساق إليها من يهتم بأمر هذا الصنف من شباب الشعب الجزائري ، بواسطة تلك النداءات الموجهة إليهم سواء عن طريق النداءات المكتوبة أو المسموعة من أجل العودة إلى أصالتهم والتمسك بشخصيتهم ، وفعلًا كان لذلك أثره في إعادة أولئك الشباب سمعهم وأبصارهم وتفتحت قلوبهم على الحقيقة وجادة الصواب ، والقيام بكل ما يمليه عليهم الواجب الوطني والديني .

وبهذا الموقف الجاد ضد كل من تسول له نفسه المساس بقيم الدين الإسلامي الحنيف أو الحط من قيمته السمحاء نجد ابن باديس ومن معه من زملائه قد نذروا أنفسهم من أجل الدفاع عن الدين والوطن حتى في أحلك الظروف والمواقف ، ومن ضمنها ما حدث في مجلة "المقتطف" وفي مقال بعنوان : "مفاخر أور الكلدانيين" من طرف كاتبه الدكتور صروف الذي ورد عنه قوله : " لقد جاء في بعض الخرافات العربية القديمة أن عاصفة من الرمل طمرت مدينة عاد فأصبحت بعد العاصفة لا عين لها ولا أثر"⁽¹⁾ ، إطلع عليه ابن باديس فأجابه معلقا عن ذلك بأننا : " لا نشك أن كاتب المقال ليس مسلما ، كما لا نرتاب أنه لا يجهل أن قصة عاد من قصص القرآن، فتعبيره عنها بالخرافة من سوء الأدب..

1- ابن باديس ، حياته وأثاره ، جمع ودراسة : عمار الطالبي ، 16/3.

إن القرآن العظيم كما يسلك في أدلته العقلية أقرب طريق وأوضحه ، كذلك يسلك في تذكيره أصدق المواعظ وأبلغها . وإنه كان يخوف العرب أن يحل بهم ما حل بالأمم قبلهم ولقد خلت قبلهم أمم كثيرة جاءتهم رسلهم بالبينات فكذبوا فأخذهم الله بالعذاب الشديد ... " وقد تواترت لديهم أخبارهم ، ومثلت أمامهم آثارهم من قوم عاد سكان الأحقاف وقوم ثمود سكان الحجر"(1) .

ونلاحظ في هذا النص أن ابن باديس أجاب الكاتب صروف بأدلة تاريخية مفندة لأقواله ، بما تواتر من أخبار الأمم ، الأقرب من الأمة العربية ، والمتمثلة في آثار قوم عاد وثمود التي اقتبس استدلالاتها من قوله تعالى : { فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثُمُودَ } (2) ، والآية هنا تعني أن الإعراض عن الإيمان بالله بعد هذا البيان الواضح والدليل القاطع من "جولة في مصارع الغابرين ، بعد تلك الجولة في ملكوت السماوات والأرض . جولة تهز القلوب المستكبرة بروؤية مصارع المستكبرين"(3) .

تلك هي نوع من يمثل هذه الأدلة العقلية والنقلية التي كان رجال الإصلاح يستندون عليها للدفاع عن الدين الإسلامي ومحاولة تصفيته وتنقيحه من البدع والخرافات ، وبذلك استطاعوا التغلب على كل من تسول له نفسه المساس بكل ما جاء في القرآن الكريم أو الطعن فيه .

1- المرجع السابق ، 16/3 .

2- فصلت : 13 .

3- سيد قطب ، في ظلال القرآن ، 3117/5 .

الختامة

إن الملاحظ لما تعرضنا له في هذا البحث ، يكتشف أن القرآن الكريم هو المصدر الأساسي ، والمعين الوحيد الذي يغرف منه هؤلاء الكتاب ، ويلجؤون إليه في كل حين لحل ما يعترض سبيلهم من الإشكاليات ، نظرا لما ينطوي عليه ، وما يمتاز به في شتى المجالات وما اشتمل عليه من نصاعة البيان وفصاحة القول ، لذلك ومن خلال هذا البحث نجد أنه استولى على نفوسهم ، واستهوى قلوبهم ، فراحوا يتلهفون إليه ، وينهلون من نبعه ، ولم يتوقفوا عند هذا الحد بل راحوا يسعون ويبذلون كل ما في وسعهم من أجل إحياء مدارسته من جديد وتبليغه إلى كافة الخلق عامة والمجتمع الجزائري بصفة خاصة ، وذلك عن طريق قيامهم بتشكيل الجمعية الإصلاحية التي أسندت إليها مهمة إنشاء المؤسسات التربوية والتعليمية ، والإشراف عليها بأنفسهم تدريسا وتنظيما ، كما هو الأمر بالنسبة لمن أسندت لهم هذه المهمة من أعضاء الجمعية كالإمام عبد الحميد بن باديس ، والإبراهيمي والعربي التبسي ومبارك الميلي ، والعقبي وغيرهم من رجال الإصلاح .

وهكذا راح رجال الإصلاح من النخبة المتحررة يدعون إلى قيام النهضة بروح من الحنكة والحكمة والتدبير مستمدين أفكارهم من القرآن الكريم وسنة رسول الله محمد صلى الله عليه وسلم ، لتقويم ما لمسوه من التقهقر والجمود والضعف الملحوظ في شتى المجالات السابقة للمرحلة السائدة لما قبل النهضة ، وبهذا السلوك المنتهج ، والمستمد من القرآن الكريم ، استطاع رجال الإصلاح أن يؤثروا في مجتمعهم ، وأن يرفعوا من مستوى قدراتهم الفكرية ، بالدعوة إلى الإعتكاف على مدارسة ماجاء في كتاب الله من صور

الهداية ورموز الإقْتداء والتبليغ إلى من هم في حاجة إليه ليخرجوهم من ظلمات الجهل إلى

نور اليقين للتخلص مما تعانيه أمتهم من التقهقر والاستعباد المسلط عليهم من طرف الاستعمار ومن والاهم من الإستغلايين . ومن هذا المنطلق يمكننا أن نخلص من بحثنا هذا إلى النتائج التالية :

أولاً : توصل كتاب تلك المرحلة بتعاملهم مع القرآن واستلھامهم من روحه ، والإحتذاء على أسلوبه ومنهجه إلى كشف و إبراز خفايا الاستعمار وأهدافه الرامية إلى طمس المعالم التاريخية ، وكذلك كل ما يمت بصلة إلى الشخصية الوطنية الإسلامية العربية في الجزائر وإمّاطة اللثام عن كل ما يحاول الاستعمار الفرنسي إحلاله في البلاد عن طريق إسكات كل أصوات الإّنتفاضة ، وإخماد كل حركة تطالب بحقوقها المتمثلة في التحرر والإنعتاق ، والوقوف ضد كل ما يمكن أن يؤدي إلى الحصول على الاستقلال . إلا أن إرادة رجال الإصلاح القوية والحازمة أدت إلى يقظة الأمة ، والقيام بالثورة التي تكللت بالنجاح المتمثل في الإستقلال . ومع ذلك فالأهداف التي سطرها أولئك القادة الذين خططوا للاستقلال لم تتحقق بعد . ونتمنى من جيل الإستقلال أن يكمل المسيرة المسطرة من طرف أولئك الذين ضحوا بالنفس والنفيس . لكي يكون القرآن الكريم هو دستور الأمة الجزائرية ، دون سواه من الدساتير الوضعية للحفاظ على الوطن ، والمساواة ، والعدل ، ليسود الخير ويضمحل الشر وينتصر الحق على الباطل .

ثانيا : كان السعي من وراء اقتباس الأثر القرآني من طرف رجال الإصلاح هو زرع الفضائل الأخلاقية وتأكيدھا ، ساعية من وراء ذلك إلى تكوين الفرد الجزائري تكوينا سويا سليما من جميع الجوانب الإنسانية ، لذلك عندما نستقرئ ما خلفه هؤلاء الكتاب من تراث نجد أنهم حاولوا أن يبينوا واقع الصراع ، والتجاذب الحضاري الغربي الاستعماري ، والمحلي العربي الإسلامي ، وكذلك الصراع القائم بين الإصلاحيين والطرفيين من أجل إثبات الذات عن طريق تبليغ تلك الرسالة الملقاة على عاتق رجال الإصلاح ، الراغبين في إبراز النهضة الأدبية والفكرية وترسيخ حقيقة الثورة الجزائرية ، وتصوير الأمة الجزائرية على ضوء تلك الحالة من الإنحطاط التي لا تحسد عليه بسبب فقدانها للقيادة الرشيدة في الدين والوطن كما يشبھها الإبراهيمي : بأنها قبس من شعلة الوحي الذي ينير الطريق المستقيم والهادي إلى سبيل الرشاد ، وفي هذا التصوير نلاحظ أن هناك دعوة إلى إختيار القيادة الصالحة ممثلة في أرض الوجود لتعمل من أجل تحرير الأمة ، وإسعادها بنضامها السليم المستمد من العدالة الإلهية .

وفي هذا التصوير توجيه وشحذ للعزائم ، وبث للأمل في قلوب الناس المصابين بالقنوط واليأس جراء الأعمال اللا إنسانية التي يقوم بها الاستعمار الفرنسي المستبد والمتغطرس . لذلك كان لزاما على رجال جمعية العلماء المسلمين الجزائريين وغيرهم أن يستمروا في الأخذ من القرآن الكريم ويغرفوا منه كل ما هم في حاجة إليه ليسترشدوا منه ويبلغهم وأمتهم لا محالة إلى بر الأمان .

ثالثا : نلاحظ اعتماد الكتاب على الاقتباس من القرآن الكريم على النحو التالي :

- 1 - يقتبسون آيات قرآنية كاملة ، وفي بعض الأحيان يعتمدون التضمين .
- 2- إقتباس شبه كامل للآيات والتراكيب معا .
- 3- يكون ذلك الإقتباس عبارة عن إشارات للآيات أو السور القرآنية حسب مبلغ المتلقي من الثقافة القرآنية ، وسعة فطنته وذكائه .
- 4- إقتباس للفظه واحدة لا غير ، واستغلا لها فيما لها من عمق تصويرى.
- 5- إقتباس عدة عبارات لاستغلالها في التصوير .
- 6- تأثر نص من النصوص النثرية بمعاني كثيرة من القرآن الكريم .
- 7- محاولة التمثيل بمعاني القرآن دون استعمال العبارات نفسها .

وفي هذا الأسلوب الإقتباسي من فيض القرآن ما يدعم ويقوي رؤية رجال الإصلاح ويسدد أفكارهم وموضوعاتهم ، سواء تعلق الأمر في ذلك بسمو اللغة أو البعد النظري والثبات على قول الحق ولو أدى ذلك إلى العواقب الوخيمة ، كالقتل بأسلوب الجبناء كالتسمم كما هو الأمر لما جرى للإمام عبد الحميد بن باديس ، أو الاغتيال السري غير الواضح مثل ما فعلوا بالشيخ العربي التبسي الذي لم يعرف قبره بعد ، أو النفي مثل ما وقع للإبراهيمي ، وغيره من أبناء الجزائر ، أولحكم بالسجن، كماوقع للشيخ عمر دردور والعقبي وغيرهم كثيرون.

رابعا : نرى في هذا الاقتباس من القرآن الكريم ما أهلهم على توظيف معاني القرآن الكريم وما مكنهم من الوعي الكامل ، والتمكن من فهمه . وفي ذلك ما نلمسه فيما يتضمنه

أدبهم ، ويكتسبه من معان القرآن ، والتوجيه السليم على ضوء ما تقتضيه الحالة النفسية والظرفية إستجابة للمواقف الإنسانية .

خامسا : هناك من الاقتباس ما هو متحرر من التقليد أو المحاكاة ، ويبدو ذلك جليا في التدخلات الناجمة في كثير من الصور التي حدث فيها تغيير وتحوير ، معتمدين في تصويرهم على الاقتباس من القرآن ، مع وجود علاقة التكثيف في الألفاظ ، والاختيار الدقيق للمعنى لحصر اللفظة الشاملة . والكاملة لتأدية الوظيفة الموحية ، لتقريب الصورة أو الرمز إلى ذهن المتلقي أو السامع .

سادسا : نستطيع رؤية التمييز الحاصل في تطور المعجم اللغوي ، وإضفاء صور ورموز في النثر الجزائري الحديث التي استمدتها الكتاب من الممارسة الدائمة ، وإلتزامهم مدارس القرآن وتدريسه ، وفي ذلك ما يكشف ظاهرة التأثير بالقرآن ، وما تفجرت به تلك القرائح من زخم كبير أدى إلى النضج الفكري الحاصل من التجربة الأدبية النثرية الفياضة شكلا ومضمونا .

سابعا : من الممكن القول أن رجال الإصلاح لم تعترضهم أية صعوبة فيما يخص الأخذ من القرآن في حالة إحقاق الحقائق التي أثبتتها القرآن ، أثناء استلزامهم للمعاني والألفاظ والصور للكشف عن الأهداف المرغوب توضيحها ، وهذا يعود إلى الأسباب التالية : التكوين الجيد في اللغة - والتمرس عليها . والشعور القوي بالأوضاع التي يعاني منها المجتمع الجزائري وأن لا حل لهذه المعظلة إلا بالعودة إلى ما جاء به القرآن الكريم والعمل به .

وعلى العموم فالحديث عن الاقتباس من القرآن الكريم لم يخلُ من
السلبات المثلثة في التكلف أو النزول إلى السهل عند استعمال الصيغ
الجاهزة . ومع ذلك فالنثر الجزائري يعتمد الصدق والإلتزام بعيدا عن الغلو
، والتزلف ، وهو دائما يسعى من أجل أن يكون أدب الإنسان ، والجمال ،
والخير ، والحياة السعيدة المستقرة الحرة .

قائمة المصادر والمراجع

- القرآن الكريم
- مسلم ، صحيحه ، بشرح النووي ، دار الفكر بيروت ، د- ت 1985م.
- الجواهري :
- الصحاح ، دار الفكر ، بيروت ، د-ط ، 1981م .
- ابن منظور :
- لسان العرب ، دار الصادر بيروت ، د-ط ، 1992 م.
- ابن كثير :
- تفسير القرآن العظيم ، دار ابن حزم للطباعة والنشر والتوزيع ، بيروت لبنان ، ط : 1 2002 م.
- ابن باديس :
- حياته وأثاره ، جمع ودراسة عمار الطالبي ، ط : 2 ، 1983 م.
- ابن خلدون :
- المقدمة ، دار القلم بيروت لبنان ، ط: 5 ، 1984 م .
- إبن الشيخ الحسن سفيان :
- المعجزة القرآنية ، دار الشهاب باتنة ، الجزائر ، ط : 1 ، 1983م .
- أبو القاسم سعد الله :
- تاريخ الجزائر الثقافي ، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع الجزائر ، د-ط ، ج:2 ، 1981 م

- أثار عبد الحميد بن باديس :
من مطبوعات وزارة الشؤون الدينية، ط : 1 ، 1985 م .
- الجواهري :
الصاحح ، تحقيق أحمد عبد الغفور عطار، دار العلم للملايين بيروت، ط :
3 ، 1984 م .
- الجاحظ :
البيان والتبيين ، دار الكتب العلمية بيروت لبنان ، د-ط ، د-ت .
- أحمد مصطفى المراعي :
علوم البلاغة ، دار القلم بيروت لبنان ، ط : 2 ، 1984 م.
- أحمد الشرباصي :
موسوعة أخلاق القرآن ، دار الرائد العربي بيروت لبنان ، ط : 1 ، 1971م.
- الزمخشري :
تفسير الكشاف ، تحقيق مرسى عامر ، دار المصحف القاهرة ، ط : 2 ،
1977 م.
- الأمير محمد بن عبد القادر الجزائري :
تحفة الزائر في تاريخ الجزائر والأمير عبد القادر ، شرح وتعليق د :
ممدوح حقي ، دار اليقظة العربية بيروت ، ط : 2 ، 1964 م .
- الأمير عبد القادر الجزائري :
ثقافته وأثرها في أدبه ، المؤسسة الوطنية للكتاب ، الجزائر ، د-ط ،
1986 م .

- العربي التبسي :
مقالات في الدعوة إلى النهضة الإسلامية في الجزائر ، جمع وتعليق ، دار
البعث للطباعة والنشر قسنطينة ، الجزائر ، ط : 1 ، 1981 م.
- العربي الذهبي :
شعريات المتخيل ، شركة النشر والتوزيع - المدارس- الدار البيضاء ، ط:1
، 2000 م.
- العربي لخضر :
الدراسة الفنية للقصة القرآنية ، دار الغرب للنشر والتوزيع وهران الجزائر
، د-ط ، د-ت .
- السيوطي :
المزهر في علوم اللغة وأنواعها ، دار الجيل بيروت ، د-ط ، د-ت .
- الميداني :
مجمع الأمثال ، منشورات دار مكتبة الحياة ، بيروت لبنان ، د-ت .
- بلقاسم بغدادي :
المعجزة القرآنية ، ديوان المطبوعات الجامعية ، الجزائر ، د-ط ، د-ت .
- بكير بن سعد :
أضواء على الاخلاق الإسلامية ، دار البعث قسنطينة ، ط : 1 ، 1984 م.
- حنفي بن عيسى :
محاضرات في علم النفس اللغوي ، الشركة الوطنية للنشر الجزائر، ط : 2
، 1980 م.

- رينيه ويليك أوستن وارين :
نظرية الأدب ، ترجمة محي الدين صبحي ، المؤسسة العربية للدراسات
والنشر بيروت، د-ط 1987 م .
- زكي نجيب محمود :
تجديد الفكر العربي ، دار الشروق بيروت لبنان ، ط:7، 1982 م .
- محمد ناصر بوحجام :
أثر القرآن في الشعر الجزائري الحديث ، 1925-1976 ، الطبعة العربية ،
غرداية ، ط : 1 1992م .
- محمد السيد علي الوزير:
الأمير عبد القادر الجزائري ثقافته وأثارها في أدبه ، المؤسسة الوطنية
للكتاب الجزائر 1986م .
- محمد عباس :
البشير الإبراهيمي أدبيا ، ديوان المطبوعات الجامعية بوهران ، د-ت .
- محمد البشير الإبراهيمي :
أثار الإبراهيمي ، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع الجزائر ، ط : 1 ، 1978
م .
- عيون البصائر ، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ، الجزائر ، ط : 1 ، ج : 2
، 1981 م .
- محمد علي الصابوني :
صفوة التفاسير ، دار الصابوني القاهرة ، ط : 9 ، د-ت .
- 230-
- محمد السعيد الزاهري :
الإسلام في حاجة إلى دعاية وتبشير ، دار الكتب الجزائر ، د-ت .
- محمد الصالح الصديق :
التبيان في علوم القرآن ، المؤسسة الوطنية للكتاب ، الجزائر ، د-ط ، 1989
م .
- محمد الطاهر فضلاء:
قال الشيخ الرئيس الامام عبد الحميد بن باديس ، نشر مطبعة البعث ،
الجزائر، د-ت .
- محمد عبده :
رسالة التوحيد ، ديوان المطبوعات الجامعية ، الجزائر ، د-ت .
- محمد ناصر :
رمضان حمود ، حياته وأثره ، المؤسسة الوطنية للكتاب ، الجزائر ، ط : 2
، 1985 م .

- الشعر الجزائري الحديث ، دار الغرب الإسلامي بيروت ، لبنان ، ط : 1 ، 1985م .
- أبو اليقضان وجهاد الكلمة ، المؤسسة الوطنية للكتاب ، ط : 2 ، 1983 م .
- محمد عبد الستار نصار :
دراسات في فلسفة الأخلاق ، دار القلم الكويت ، ط : 1 ، 1982 م .
- محمد الغزالي :
خلق المسلم ، دار الشهاب للطباعة والنشر باتنة الجزائر ، د-ط ، 1985 م .
- محمد إسماعيل ابراهيم :
معجم ألفاظ القرآن الكريم ، الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر ، ط : 2 ، 1970 م .

-231-

- معجم الألفاظ والإعلام القرآنية ، دار الفكر العربي ، ط : 2 ، د-ت ، ص 188 .
- محمد عبد الستار نصار :
دراسات في فلسفة الأخلاق ، دار القلم ، الكويت ، ط : 1 ، 1982 م .
- محمد عبد العظيم الزرقاني :
مناهل العرفان في علوم القرآن ، دار الفكر مصر ، د-ط ، د-ت .
- محمد متولي الشعراوي :
قصص الأنبياء والمرسلين ، المكتبة العصرية بيروت ، د-ط ، 2000 م .
- محمد كامل جمعة :
الأسلوب ، مكتبة القاهرة الحديثة ، ط : 2 ، 1963 م .
- محمد الصالح الصديق :
الدروب الحمر ، المكتبة الوطنية للنشر والتوزيع ، الجزائر ، د-ط ، 1979 م .
- محمد السيد علي الوزير ومن معه :
قصص القرآن ، دار الجيل بيروت ، ط : 1 ، 2000 م .
- محمد أحمد خلف الله :
الفن القصصي في القرآن الكريم ، مكتبة الانجلوا المصرية ، القاهرة ، ط : 3 ، 1965 .
- محمد لطفي الصباغ :
التصوير الفني في الحديث النبوي ، المكتب الإسلامي ، بيروت ، ط : 1 ، 1983م .

Mercia eliad 1952 . images ...

- محمد أحمد جاد المولى ومن معه:
قصص القرآن ، دار الجيل بيروت ، ط:1 ، 2000م .
- موهوب مصطفى :
الرمزية عند البحتري ، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع الجزائر ، د- ط ، 1981م.
- مصطفى صادق الرافعي :
إعجاز القرآن والبلاغة النبوية ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، ط:8 ، دبت .
- مبارك بن محمد المليي :
رسالة الشرك ومظاهره ، شركة الشهاب الجزائر ، د-ط ، د-ت.
- ملحق الثورة الثقافي ، العدد : 2 ، 1978 م .
- عبد الله الركيبي :
تطور النثر الجزائري الحديث ، 1830-1974م ، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم معهد البحوث والدراسات العربية ، دار نافع للطباعة مصر 1976م.
- عبد الفتاح صالح نافع :
الصورة في شعر بشار بن برد ، دار الفكر ، عمان ، 1983م .
- عبد الرحمن حسن الميداني :
أمثال القرآن ، دار القلم دمشق ، ط:2 ، 1992 م.
- عبود شراد شلتاغ :
أثر القرآن الكريم في الشعر الحديث ، رسالة دكتوراه ، جامعة الجزائر ، د- ط ، 1983م.

- عز الدين بليق :
منهاج الصالحين ، دار الفتح للطباعة والنشر ، بيروت لبنان ، ط: 2 ، 1984 م.
- علي عبد الواحد وافي :
فقه اللغة ، دار نهضة مصر للطباعة والنشر ، ط : 7 ، د-ت .
- عز الدين اسماعيل :
الشعر العربي المعاصر ، دار العودة بيروت لبنان ، ط: 3 ، 1981 م .
- عفيف عبد الفتاح طيارة :
مع الأنبياء في القرآن الكريم ، دار العلم للملايين ، بيروت ، ط : 9 ، 1981 م.
- غنيمي هلال :
النقد الأدبي الحديث ، دار الثقافة والعودة بيروت لبنان ، د- ط ، 1973 م.
- فائز الداية :
جماليات الأسلوب ، دار الفكر دمشق سورية ، ط : 2 ، 1990 .
- فؤاد العرايس :
لطائف التفسير من سورة يوسف ، دار المعرفة بيروت ، ط: 1 ، 2005 م.
- قدامة ابن جعفر :
نقد النثر ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، د-ط ، 1982 م .
- سيد قطب :
التصوير الفني في القرآن ، دار الشروق ، القاهرة ، ط: 7 ، 1982 م.
- 234-
- في ظلال القرآن ، دار الشروق القاهرة ، ط: 35 ، 2005 م.
- شوقي ضيف :
تاريخ الأدب العربي ، العصر الإسلامي ، دار المعارف ، القاهرة ، ط : 10 ، 1986 م.
- نسيب النشاوي :
مدخل إلى دراسة المدارس الأدبية ، نقلا عن خليل موسى ، اللغة في ميزان الشعر ، ملحق الثورة الثقافي ، العدد : 2 ، 1978 م.
- ناجي التكريتي :
الفلسفة السياسية عند ابن الربيع ، دار الأندلس بيروت لبنان ، ط : 3 ، 1983 م.
- نبيل رشاد نوفل :
العلاقات التصويرية، منشأة المعارف بالإسكندرية ، د- ط ، د-ت .
- صلاح عبد الفتاح الخالدي :

نظرية التصوير الفني ، شركة الشهاب الجزائري ، د- ط ، 1988 م.
- وهبة الزحيلي :
الفقه الإسلامي ، مطبعة ابن حيان بدمشق ، ط:3، 1980.

فهرس الموضوعات

فهرس الموضوعات

- 21-1 - مدخل
- 1- أثر القرآن الكريم في النثر الجزائري الحديث قبل سنة 1925م
- توطئة
- 17-4 1-1 - الخطابة
- 21-18 2-1 - الرسائل
- الفصل الأول : إستلهام معاني القرآن الكريم
- 23 - التمهيد
- 26 1 - الإيمان بالله
- 40 2 - اليوم الآخر
- 42 3- القضاء والقدر
- 45 4- صفات المؤمنين
- 48 1-4- التقوى
- 52 2-4- الصبر
- 61 3-4- الجهاد
- 73 4-4- العبادات
- 83 5-4- الشورى
- 237-
- 87 6-4- صفات أخرى
- 95 7-4- بعض الصفات السلبية
- الفصل الثاني : أثر القرآن الكريم في المعجم اللغوي

104	- تمهيد
107	1 - اللغة
119	2 - أسماء القرآن في النثر
123	3 - الصفة والموصوف
130	4 - الطباق
134	5 - المقابلة
138	6 - الجمل

الفصل الثالث : أثر القرآن الكريم في بناء الرمز

150	- تمهيد
154	1 - الرمز الموضوعي
154	أ - قصة إبراهيم عليه السلام
159	ب - قصة يوسف عليه السلام
167	ج - قصة موسى عليه السلام
182	د - قصة عيسى عليه السلام

-238-

الفصل الرابع : أثر القرآن الكريم في الصورة والتصور والتصوير

196	- تمهيد
198	1 - التصوير الفني في القرآن
200	1-1- خصائص التصوير الفني في القرآن
201	1-2- خصائص الصورة
202	1-2-1- التخيل الحسي
204	1-2-2- ألوان التخيل الحسي
204	1- التشخيص
206	2- التخيل بتوقيع الحركة
207	3- الحركة المتخيلة
208	4- الحركات السريعة المتخيلة
	5- حركة التخيل الساكن
110	2- أثر التصوير القرآني في النثر
110	1-2- اللفظ المعبر عن الصورة
218	2-2- المثل
219	2-2-1- التمثيل البسيط

219

2-2-2- التمثيل المركب

-239-

225

الخاتمة

242

فهرس المصادر والمراجع

-240-